

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

حجرات الوكايع

عبد الحميد خوجة البشار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا﴾

(قرآن کریم)

سجى الليل ونام الكون وما كان يعكر الصمت الذى ران على مسجد الرسول إلا غطيظ أهل الصفة ، ما منهم رجل إلا عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم . كانوا من فقراء المسلمين وكانوا سبعين قد انقطعوا للعبادة وحراسة رسول الله — ﷺ — وكانوا يلزمونه — صلوات الله وسلامه عليه — بشبع بطونهم ، فإذا أتت رسول الله — ﷺ — هدية أصاب منها وأشر كههم فيها ، وإذا كان فى دوره طعام من لبن أو تمر أخرجه إليهم وتناوله معهم ؛ وما أكثر ما كان يصوم ويصومون .

وفى هجعة الليل سار بلال بينهم على أطراف أصابعه مفتوح العينين خشية أن يدوس أحدهم أو ترتطم رجله بأحد النوام فيوقظه من نومه اللذيذ . وفيما هو يقدر موقع قدميه وقعت عيناه على أنى هريرة عريف أهل الصفة فرفت على فمه ابتسامة ؛ إنه تذكر ما رآه منه فى أول الليل ، كان الصبية يلعبون لعبة الغراب فإذا بأنى هريرة يتسلل إليهم وهم لا يشعرون ، حتى إذا ما صار بينهم ضرب برجليه كأنه مجنون ، ففر الصبية ههنا وههنا وهم يتضاחקون .

إنه يحب مداعبة الأطفال ليشرح صدورهم ويدخل السرور إلى نفوسهم ، وكثيرا ما يداعب أصحابه دعابات لطيفة كيسة ، وله فى رسول الله — ﷺ — أسوة ، فهو يداعب أبناء المهاجرين والأنصار ويقبلهم فى حب أبوى عميق ، ويحملهم أمامه على دابته أو يركبهم خلفه ، ويمزح مع أصحابه ولا يقول إلا صدقا .

وبلغ بلال الدرج فراح يعرج فيه ، حتى إذا صار على السطح الذى يؤذن من فوقه أخذ يرعى النجوم ويمد عينيه إلى الأفق الشرقى ، إنه الفجر الكاذب وما حان أو ان الأذان بعد ، فجلس يرصد السماء ، وما لبث أن انثالت الأفكار على رأسه ، ذكريات بعيدة طواها الزمن ولكنها لا تزال حية فى وجدانه ، وذكريات قريبة حبيبة إلى نفسه يتشرح لها صدره ، وآمال لا تزال فى جوف الغيب لا يدرى إذا ما كانت سترى النور يوما .

تذكر أيام كان مولدا من مولدى بنى جمح ؛ كانت أمه حمامة لا تملك من أمرها شيئا ، زوجها من أبيه رباح لينسلا للسادة عبيدا ، فجاء إلى الدنيا عبدا حياته عبث ونهايته عدم .

وشب لا يعرف من أمر الدنيا إلا أن سيده أمية بن خلف . إن غضب عليه جلده وإن رضى عنه أعطاه من فضل زاده ، وعاش بلا أمل يخرج فى قوافل التجارة كما تخرج السائمة ، ليس له من أمرها ألا شيع بطنه والعرق الذى يتصبب منه إذا ما حمل الأثقال على ظهره ليرفعها إلى ظهور الإبل أو ليحطها عنها ، وما كان له أن يشكو من التعب فما كان للدواب حق الشكوى أو التبرم من حياتها !

ومن خلال ظلمات العدم بزغ النور والأمل ، فصوت أبى بكر الصديق يلامس أوتار قلبه فهزها فى نشوة وهو جالس يرقب الفجر فوق أعلى بيت فى المدينة مثلما هزها فى تلك الليلة التى قال له فيها لما كان فى مكة : إن محمد بن عبد الله يدعو إلى عبادة الله وحده . وراح يدعو إلى الإيمان بذلك الدين الذى ثبت الربوبية لرب السموات والأرض وينفيا عن كل الأصنام والأوثان والبشر . أحس فى تلك الليلة سحر الكلمات التى كانت تسكب فى أذنيه وعظمتها ؛ إنها كلمات قليلة ولكنها فتحت أمامه آفاقا واسعة من الرجاء والأمل . إنه فى لحظة من لحظات العمر الذى كان يبدده سدى تيقن أنه ليس عبدا لأحد من بنى جمح ،

وأنه حر ليس لبشر سلطان عليه ، فهو وأمية بن خلف سواء أمام رب الناس إلى الناس ، بل قد يصبح عند الله أفضل من أمية بن خلف إن أحسن العمل .

كانت حرمة لا تستند إلى شيء ، وكانت إرادته كلما هفت روحه إلى الحرية تنجب ؛ فالموت الذى سينهى حياته بالعدم كان يقضى على كل إرادة ، ولكن الدين الجديد الذى يدعو إليه أبو القاسم لم يجعل الموت نهاية ، بل هو بداية حياة أخرى خالدة توفى كل نفس فيها حسابها ، فلم تعد الحياة عبثا ولا هملا ثقيلًا بل دار ممر إلى دار مقر ، والعاقل من أخذ من ممره لمقره لينال الفوز الأكبر .

لم يعد يتأرجح بين الوجود والعدم ، تملكه نزوع وجداني ينشد الحرية المطلقة ، حرية العقل وحرية الاختيار والإرادة . فكلمات أنى بكر قدر فت عن عين بصيرته الغشاوة فشعرت ذاته بوجودها وحريتها ، وامتلاء قلبه بنور أضاء ذاته العميقة فإذا به يكاد يقرع أبواب ملكوت السماء .

إنه عرف ما يريد بعد تدبير وتفكير فاعتنق الإسلام دون إكراه ، وحمل الأمانة وهو سعيد ، فقد عزم على أن يتحرر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وأن يعانى الحياة في صبر بعد أن بدد ظلمات وجوده واهتدى إلى اليقين المبين .

خرج بنو جمع لما حمت الظهيرة فطرحوه في بطحاء مكة ثم أمروا بالصخرة العظيمة فتوضع فوق صدره ، ثم قالوا له :

— لا والله لا نزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى .
كان لإيمانه أرسخ في ذاته الحية التى شحذها الإسلام من تلك الصخرة العظيمة التى تكاد تكتم أنفاسه ، وكانت إرادته أمضى مما نزل به من بلاء فراح يقول :

— أحد .. أحد .

ونزل نشيده بردا وسلاما على فؤاده ، فلم يكتف بالثبات على دينه بل جعل

يسخر من معذبيه . وجاء أبو بكر الصديق ورأى ما يقاسيه من تعذيب فأنقذه مما كان فيه ، وأخذته فأعتقه فحرر الجسد بعد أن تحررت الروح .

وأشرق وجوده وابتهج به فالدين الذى اعتنقه بعبر عن صوت العقل ، عن جوهر الذات المتعالية ؛ بنمى فى النفوس الخير ويسد جميع المسالك فى وجه الشر ، ما دام الخير والشر لا وجود لهما إلا فى عين إرادة البشر .

كان سعيدا بحرية روحه وجسده ، وبالطمأنينة التى شاعت فى وجدانه ، وبالتجانس الذى بات يحسه فى نسيج الكون بعد أن كانت الفوضى سمته ، والتنافر صفته ، وزاد فى سعادته أنه تعلم بعد الهجرة إلى المدينة أن الله قد خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض ، فبنو آدم قد أصبحوا خلفاء الله بسلطان العلم الذى علمهم ، وبثقل الأمانة التى حملهم ؛ وأنه شرف يشارك فيه إخوانه من البشر ، وأنه يعمل مع إخوانه المؤمنين على تأكيد استحقاق الإنسان لهذه الخلافة وهذا الشرف . وقد زكاهم الله بقوله العظيم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف ... » (١) .

إن صراع الذات مستمر ، وسمو النفس فوق الأهواء يشتد عوده ، والنزوات تتحطم عند حدود الله ، والإحساسات الدينية السامية تزداد إرهابا . وذلت عبودية المادة بعد أن أغلقت الأقفلة المؤمنة الأبواب دونها ، ورفعت الأقنعة عن الحرية الراشدة ووجدت على ظهر الأرض الحياة الروحية الحققة القادرة على طرق أبواب السماوات ، فكان الإنسان فى أروع صورة وأحسن تكوين .

وطافت به ذكريات أيام الحندق ، فرأى سلمان الفارسي يضرب فى ناحية منه فغلظت عليه صخرة ورسول الله ﷺ — قريب منه ، فلما رآه يضرب ورأى

شدة المكان عليه نزل فأخذ بالمعول من يده فضرب به ضربة لمعت تحت المعول
برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة
فلمعت تحته برقة أخرى ، قال سلمان :

— بأى أنت وأمى يا رسول الله ! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت

تضرب ؟

— أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟

— نعم .

أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام
والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق .

كان بلال على يقين من أن الله قد أعطى رسوله — ﷺ — مفاتيح تلك
البلاد ، وأن المسلمين سيفتحونها ، فما ساوره في ذلك شك ، ولكن سؤالا قام في
نفسه : ترى أيقدر له أن يؤذن في صنعاء أو منف أو دمشق ؟

إن الله قد أكرمه يوم فتح مكة ، فقد اعتلى ظهر الكعبة أول بيت وضع للناس
مباركا وهدى للعالمين ليؤذن في ضمير الكون معلنا تحرير البشرية من العبودية
لغير الله وحده ، وبزوغ شمس الحرية الكبرى ، وبداية عصر القيم والمثل العليا .
ورن في عين ذاته ذلك الدعاء الذى سمعه ذات ليلة في مسجد الرسول :
« اللهم اجعلنى ممن سيلقون أسماعهم إلى أذان بلال في الجنة » . فسرت فيه
قشعريرة وبللت الدموع روحه قبل أن تبلل مقلتيه ، وأطرق برأسه تواضعا لله
وشكرا حتى كادت جبهته تلمس الأرض .

وبدأت طلّاع الفجر تزحف في الأفق الشرقي فراح صوت بلال يدعو الناس إلى الصلاة ، إلى استفتاح يومهم بقاء الله لتطهير النفوس وتطبيب الروح واستدرار البركات ؛ فما أروع أن يبدأ اليوم باسم الله وذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب .

وقام سلمان الفارسي يتوضأ وكل خلجة من خلجات نفسه تتجه إلى الله وتسبح بحمده ، فهو يعيش بالله وفي الله ؛ فخفقات قلبه شكر وومضات فكره ذكر ؛ فقد كان في بيت أبيه خادماً نار المجوس ولكن الرحمن الرحيم أراد له الرشد والهداية فبذر في أعماق ذاته الشك ووجهه نفساته فو إلى الحق ، فما إن مر بكنيسة من كنائس النصارى وسمع أصواتهم فيها وهم يصلون حتى دخل عليهم ينظر ما يصنعون ، فلما رآهم أعجبه صلاتهم ورغب في أمرهم وقال دون استكبار : هذا والله خير من الدين الذي نحن فيه .

كان يريد وجه الحقيقة أينما كانت وقد برأه الله من الهوى ، فلما علم أن أصل ذلك الدين بالشام لم يفكر في أبيه ولا في أهله ولا في قريته ، بل شد الرحال إلى الشام باحثاً عن إيمان يستريح إليه فؤاده .

وجاء إلى الأسقف في كنيسة وراح يخدمه ويتعلم منه ويصلي معه ، ولكنه وجد الأسقف يعمل غير ما يقول ، يأمر الناس بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتززه لنفسه ، فلم يسخط على الدين بل سخط على رجل السوء ، وبقي في الكنيسة ثم رحل من الشام إلى الموصل بحثاً عن الحقيقة ، ولم تعرف الطمأنينة طريقها إلى قلبه فشدد الرحال إلى نصيبين ثم إلى عمورية في أرض الروم ، وهناك علم أنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث على دين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب .

نبي ١٩ ياليتيه يستطيع أن يلقاه ليجد عنده جوهر الحقيقة التي ترك الأهل والحلان والأوطان في سبيلها . وجاء الفرج فقد مرت به قافلة من العرب فاتمس منهم أن يحملوه إلى أرضهم التي أصبحت حلمه ومهوى قواده وعط آماله . وبلغوا وادى القرى فظلموه وباعوه إلى رجل يهودى عبدا .

إن ابن دهقان قرية جى بأصبهان المحوسى خادما النار الذى هام على وجهه في الأرض بحثا عن الحقيقة قد أصبح عبدا لليهودى . ولم يدرك ما حكمته صيرورته عبدا ولكن ظل قلبه عامرا بالإيمان بأن الله الذى خرج للبحث عنه لن يضيعه ، وكان أن تعلم العربية لغة ذلك النبي المنتظر ، وكانت حكمه الله التي غابت عنه أن يتعلم لسان القرآن الذى سيشفى نفسه وينير قواده بأنوار اليقين .

وقدم على اليهودى الذى اشتراه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعه منه فاحتلمه إلى المدينة ، فوالله ما هو إلا أن رآها فعرفها بصفة صاحبه فبات يتحرق شوقا للقاء ذلك النبي الذى بشر به الأنبياء ، واحتمل الرق صابرا في سبيل أن يكون له شرف أن يلقاه ويلقى إليه السمع والفؤاد .

وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وسمع به فإذا برعدة تسرى في بدنه وإذا بكياته كله ينتفض وإذا به ينطلق إلى حيث كان رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه ، فلما رآه وأصغى إلى حكمته خفق قلبه في رضا ، ويتقن أن ذلك الحديث الذى ينبض بالصدق هو ما هجر كل مباهج الدنيا في سبيله ، وبهرته الحقيقة وغمره فرح فياض أن عثر على ضالته المنشودة ، فنطق بالشهادتين في صوت متهدج تحنقه العبرات من فرط الانفعال .

وعلم رسول الله ﷺ أن سابق الفرس عبد لليهودى من بنى قريظة ، ولما كان رسول الإسلام قد بعث لتحرير النفوس والرقاب قال :
— كاتب يا سلمان .

وهرع سلمان إلى اليهودى الذى اشتراه وراح يفاوضه على تحريره من الرق

والعبودية ، فكانت له صاحبه على ثلاثمائة نخلة يحميها له بالحفر والغرس ، وأربعين أوقية ، فقال رسول الله ﷺ — محرر الأرواح والرقاب — لأصحابه :
— أعينوا أخاكم .

فأعانونه بالنخل ، الرجل بثلاثين من فراخ النخل الصغار ، والرجل بعشرين ، والرجل بخمس عشرة ، والرجل بعشر ، يعين الرجل بقدر ما عنده ، فقد كان المسلمون يحبون أن يروا إخوانهم في الدين أحرارا من ألال الرق البيض . واجتمع له ثلاثمائة من فراخ النخل الصغار ، فقال له رسول الله ﷺ :
— اذهب يا سلمان ففقر^(١) لها ، فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي . وحفر وأعانه أصحابه ، حتى إذا فرغ جاء رسول الله ﷺ — فأخبره ، فخرج عليه السلام معه إليها ، فجعلوا يقربون إليه فراخ النخل الصغار ويضعها رسول الله ﷺ — بيده حتى فرغوا ، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها واحدة .

وأدى سلمان النخل وبقي عليه المال ، فأتى رسول الله ﷺ — بمثل بيضة الدجاجة من ذهب ، فقال لسلمان :

— خذ هذه فأدها بما عليك يا سلمان .

فأخذها فوزن لهم منها أربعين أوقية فأوفى صاحبه حقه منها ، وأصبح سلمان حرا فخر ساجدا لله شكرا أن حرره من رقه ، وأن كشف له عن وجه الحقيقة ، وأن انتصح عليه من مزايا لطفه ورحمته ، وأن جعله صاحب رسول المصطفى عليه السلام .

وتذكر سلمان وقلبه بحقق سعادة ما كان بين المهاجرين والأنصار من شأنه ،

(١) فقر : احفر .

قال المهاجرون سلمان منا ، وقال الأنصار بل سلمان منا ، فقال رسول الله ﷺ :

— سلمان منا أهل البيت .

وكان بعض المسلمين الذين لم يتخلصوا بعد من روح الجاهلية يعيرون بلالا بأنه حبشي وأن أمه سوداء ، وكانوا يعيرون سلمان بأنه فارسي . فقضى رسول الله ﷺ — على هذه النعرة التي لا تتفق مع دين الإنسانية جمعاء ، فقال عليه السلام :

— « يا أيها الناس إن الرب واحد ، والأب واحد ، ليست العربية بأحدكم أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » .
وأم سلمان وضوءه فحرح إلى المسجد وقد أشرقت أنوار المعرفة في فؤاده ، فهو على نور من ربه ، قد ارتفعت الحجب عن عين بصيرته بلطف خفي من مولاه ، فلمع في قلبه من وراء الغيب شيء من غرائب العلم كالبرق الخاطف بالزهد في الدنيا ، والتبري من علائقها ، وتفرغ القلب من شواغلها ، والإقبال بكنه المهمة على الله ، فمن كان لله كان الله له .

وخرج على بن أبي طالب إلى المسجد تتحرك شفتاه ببعض ما في صدره من كنوز علمه ، وقد اتجهت عيناه إلى الباب الذي سيخرج منه رسول الله ﷺ — حبيبه ومعلمه وقدوته وأب زوجه الزهراء وجد ولديه الحسن والحسين .

أصاب قريش أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ﷺ — للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم :
— يا عباس إن أحاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه

الأرمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله ، أحذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكلهما عنه .

فقال العباس :

— نعم .

لم ينس رسول الله ﷺ — قبل أن يعث ليتمم مكارم الأخلاق أن أبا طالب قد كفله صغيرا وأن الأوان قد آن ليرد للشيخ بعض أفضاله ، فانطلق مع عمه العباس حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

— إنا نريد أن نخفف عك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .
— إذا تركتما لي عقيلًا فاصعما ما شئتما .

وكان مما أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان في حجر رسول الله ﷺ — قبل الإسلام ، وفي بيت خديجة بنت خويلد فلم يهره ما في الدار من فاخر الرياش بل كان مأخوذا بابن عمه ، وبذلك النور الذي كان يملأ الغرفة التي أعدها ابن عمه لعبادته .

وكان الصبي يجلس إلى ميسرة غلام خديجة يسمع منه في إعجاب ما كان من أبي القاسم لما خرج معه إلى الشام في تجارة مولاته ، إن محمدا قد أسر الناس في الأسواق بيسره ودمائه خلقه ولين حابه . وكان ميسرة يقول في حماس . إن أبا القاسم قد خلق ليكون أعظم تاجر في جزيرة العرب وإن أمانته تؤمله لذلك ، ولكن عليا على الرغم من صغر سنه كان يستشعر في أعماقه أن ابن عمه قد خلق لشيء أعظم من ذلك ، فهو زاهد في عرض الدنيا لا يحفل كثيرًا بالمال ، وهو ينفقه إفاق من لا يحشى الفقر ، فهو جواد كالغيث كريم كالسحاب .

وجاء ما أكد حدس الصبي فبعث الله رسوله بشيرا ونذيرا للناس كافة ، فآمن به وصدق بما جاءه من الله تعالى ، وكان إذا حضرت الصلاة خرج رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه إلى شعاب مكة وخرج معه على بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين مستحفيا من أبيه ، ولكن أبا طالب عثر عليهما يوما وهو يصليان ، فقال لرسول الله — ﷺ :

— يا بن أخي ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟

— أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أيننا إبراهيم ، يعثنى الله به رسولا إلى العباد ، وأنت أى عم أحق من بدلت له الصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجاننى إليه وأعاسى عليه .

— أى ابن أحمى إلى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص إليك بشئ ، تكرهه ما بقيت .

قطب الصبي جيبه وطاف به حزن ، كان يطمع فى إسلام أبيه ، وقد خفف من لوعته أن الأمل فى إسلام أبى طالب كان يراوده مادام أبو طالب حيا ، ولكن أبا طالب قد وافته أحله دون أن يربط لسانه بشهادة الحق ؛ كان فى قرارة نفسه يؤمن أن الله أكبر من أن يبعث بشرا رسولا . إن عليا كرم الله وجهه كلما تذكر أن الشيخ مات على الكفر أحس عصاة فى حلقه ودموعا تبلل مقلتيه .

إنه فى تلك الليلة التى هاجر فيها الرسول — ﷺ — نام على فراشه وتسجى بيرده الحضر مى الأخصر ، ولم ترتعد فرائضه وإن كان يعلم أن قريشا اجتمعت على باب الرسول يصدونه حتى ينام ليشوا عليه ويصربوه ضربة رجل واحد ، وأنهم قد يدخلون عليه فى أية لحظة يتهبونه بأسيا فهم .

كان هادئ النفس مطمئن القنود فهو منذ أعلن إسلامه قد وطد العزم على أن يكون نحره قبل نحر رسوله ، وأن يفدى ابن عمه الذى اصطفاه ربه بالروح ، وهاجر الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ولم يخلص إلى على شئ ، يكرهه من أعداء الإسلام ، فراح على يذى الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان رسول

الله — ﷺ — ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته — ﷺ .

وهاجر إلى المدينة ونزل بقاء لبتين ، فرأى امرأة مسلمة لا زوج لها يأتيها إنسان في خوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطئها شيئا معه فتأخذه ، فاستراب بشأنه فذهب إلى المرأة وقال لها :

— يا أمة الله من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطئك شيئا لا أدري ما هو ، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك ؟

— هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أنى امرأة لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أولئك قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال احتطبي بهذا .

وكانت صداقة بينه وبين سهل بن حنيف ، ولم يدر في خلده في ذلك الوقت أن سهلا سيقف إلى جانبه في الفتنة الكبرى ، وأنه سيهلك عنده بالعراق .

وآخى رسول الله — ﷺ — بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم أحد بيد علي بن أبي طالب فقال :

— هذا أخى .

واشد وجيب قلب الفتى وامتلاء صدره رضا ، فإمام المتقين ورسول رب العالمين قد أعلن على الملأ أنه قد آخى بين نفسه التي لا نظير لها في العباد وبين ابن عمه الذي شب في حجره يعترف من نبع الحكمة ، ويروي داته المتعطشة إلى العلم من أنهار المعرفة المتدفقة من لدن العليم الخبير إلى صدر رسوله المصطفى الأمين .

وكان الفتى رفيق عمار بن ياسر في عزوة العشيرة ، فلما نزلها رسول الله — ﷺ — وأقام بهاريا أناسا من بني مدح يعملون في عين لهم وفي نخل ، فقال علي ابن أبي طالب لعمار :

— يا أبا اليقظان هل لك في أن تأتي هؤلاء القوم فنظر كيف يعملون ؟

— إن شئت .

فجاءهم فنظروا في عملهم ساعة ، ثم غشيتهما النوم فانطلقا حتى اضطجعا في صفار النحل وفي تراب لين فناما ، فوالله ما أيقظهما إلا رسول الله — ﷺ —
يحر كهما برحله وقد تترابا من ذلك التراب اللين الذي ناما فيه ، فيومئذ قال رسول الله — ﷺ — لعلي :

— مالك يا أبا تراب ؟

لما يرى عليه من التراب ، ثم قال :

— ألا أحدنكما بأشقى البار رجلين ؟

— بلى يا رسول الله .

— أحيمر ثمود الذي عقر الباقة ، والذي يضربك يا علي على هذه — ووضع يده على قرنه — حتى يبلل منها هذه — وأخذ بلحيتيه .

وكانت كنية أبي تراب أحب كناه إلى نفسه .

وخرج المسلمون إلى بدر وكانت إبل أصحاب رسول الله — ﷺ — يومئذ سبعين بعيرا فاعتقبوها ، فكان رسول الله — ﷺ — وعلى بن أبي طالب ومرثد ابن أبي مرثد العنوي يعتقبون بعيرا ، وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله — ﷺ — يعتقبون بعيرا ، وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا ، أين ذلك اليوم من يوم حنين ؟ كانوا يوم بدر قلة ولكن قلوبهم عامرة باليقين ، وكانوا يوم حنين يقولون في غرور لن تغلب اليوم عن قلة ، بينما كان فيهم منافقون يترصدون الأحداث لينفثوا سموم الهزيمة في قلوبهم .

وقتل علي بن أبي طالب يوم بدر الوليد بن عتبة فيذرة الكراهية في قلب أخته همد بنت عتبة ، فكانت ترى ابنها معاوية بن أبي سفيان على كراهية ابن أبي

طالب . ولم ينج بيت من بيوت قريش من سيف على بن أبى طالب البتار ، فقد قتل
مهم سبعة وثلاثين رجلا ، فكانت قريش كلها تتحرق شوقا للثأر من ربيب
محمد وفارسه . وقد دخلت قريش كلها فى الإسلام بعد فتح مكة ولم تخمد نار
العداوة لفتى الإسلام بل ظلت ذممة تحت الرماد ، حتى إذا ما هت رباح الفتنة
بعد مقتل عثمان تأججت نيران الثأر القديم والحقد الدفين ليكتوى بها الإمام .
وكان يوم أحد ، فراح مصعب بن عمير يقاتل دون رسول الله ﷺ —
وهو يحمل لواء المهاجرين ، وقتل مصعب فأعطى رسول الله ﷺ — الدواء
على بن أبى طالب فتقدم على فقال :
— أنا أبو الفصم ^(١) .

فناداه أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين ، قال فى سخرية :
— هل لك يا أبا الفصم فى البرار من حاجة ؟
— نعم .

فبرز ابين الصفين ، فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم
يجهز عليه فقال له أصحابه :
— أفلا أجهزت عليه ؟

— إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد
قتله .

كانت ضربة فتى الإسلام وترا فما كان فى حاجة إلى أن يجهز على الرجل
فضربه قاتلة ليس لها دواء .
وعصى الرماة أوامر النبى ﷺ — فكانت الهزيمة ، ولما انصرف أبو سفيان

(١) الفصم . كسر بعير بيوة ، ككسر القصيب الرطب ونحوه

ومن معه نادى :

— إن موعدكم بدر للعام القابل .

فقال رسول الله ﷺ — لرحل من أصحابه :

— قل نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب فقال :

— اخرج فى آثار النجوم فانظر مادا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جئوا

الخيل وامتطوا الإبل فإسهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإسهم

يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لآناجزنهم .

فخرج على فى آثارهم وقد امتلأ شفقة على المسلمين ، فعبد الرحمن بن عوف

أصيب فوه فهمم ، وخرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعصها فى رجله فعرح ،

وترس دون رسول الله ﷺ — أبو دحانة بنفسه يقع النبى فى ظهره وهو منحني

عليه حتى كثر فيه البلى ، وأصبحت عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على وجنته ،

وكسرت رباعية النبى ﷺ — وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ،

وقتل « أسد الله » حمزة بن عبد المطلب ، وقتل رجال من الأنصار والمهاجرين ،

وأصاب الجهد المسلمين .

وجب أبو سفيان ومن معه الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة ، فاستشعر

على راحة وتمس الصعداء فلما يكون قتال فى المدينة بين المسلمين المشركين

بالخراج وبين أعدائهم الذين فضلوا أن يعودوا إلى مكة وفى ركابهم نصر ، وإن لم

يكن نصرا حاسما ولكنه نصر على أى حال .

وعاد رسول الله ﷺ — إلى داره ومعه ربيبه وحبيبه وأخوه على بن أبى

طالب ، وناول عليه السلام سيفه ابنته فاطمة فقال :

— اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

وباؤها على بن أبى طالب سبعة فقال :

— وهذا أبصا فاعسلى عنه دمه ، فوالله لقد صدقنى اليوم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجاجة .

وساد الصمت برهة ، ثم قال رسول الله — ﷺ — لعل :

— لا يصيب المشركون ما مثلها حتى يفتح الله علينا .

وصدق رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما أصاب المشركون

منهم مثلها حتى فتح الله عليهم مكة .

وحاءت قريش بزوها يوم الخندق إلى المدينة وهى تحرض القبائل على السير

معها ، فعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن عدود وهيرة بن أبى وهب الخزوميون ،

وصرار بن الخطاب الشاعرا بن مرداس تلسوا للقتال ، ثم خرجوا على حيلهم

حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا :

— تهيئوا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم .

ثم أقبلوا تسرع بهم حيلهم حتى وقفوا على الخندق ، فلما رأوه قالوا :

— والله إن هذا لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

ثم تيمموا مكانا صيقا من الخندق فضربوا حيلهم فاقتحمت منه ، فحالت بهم

في السبخة بين الخندق وطلع ، وحرص على بن أبى طالب عليه السلام في نفر معه

من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها حيلهم ، وأقلت

المرسان تسرع نحوهم ، وكان عمرو به عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته

الجراحة فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مكانه ،

فلما وقف هو وخيله قال :

— من يبارز ؟

فأراد علي بن أبي طالب أن يتقدم لمبارزته ولكن رسول الله — ﷺ — حال بينه وبين ذلك ، فقد قتل يوم بدر عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه الحارث ، وقتل يوم أحد عمه حمزة بن عبد المطلب ، وهو يخشى أن يقتل في هذه العزوة ربيبة وحبيبه وروح الزهراء ، ولكن عليا صمم على قتال ابن عبدود فراح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يسهل إلى الله في حرارة أن يبقى له خير أهله الذي نشأ في حجره ، والذي أحبه من كل قلبه .

وبرز علي بن أبي طالب لعمر بن عبدود فقال له :

— يا عمرو إنك قد كمت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلعتين إلا أخذتها منه .

— أجل .

— إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

— لا حاجة لي بذلك .

إن ربيب محمد — صلوات الله وسلامه عليه — قد حفظ الدرس الذي لقنه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — للمسلمين : أن يعرضوا السلام قبل القتال ، فأنه لا يجب المعتدين ، وقد دعا ابن أبي طالب عدوه إلى الله فأبى ، فقال له على بعد أن يمس من سلمه :

— فإني أدعوك إلى التراجع .

— لم يا بن أخي ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

— لكنني والله أحب أن أقتلك .

فاشتد غضب عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعفره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ فتارلا ونجاولا ورسول الله — ﷺ — يتهل في حرارة ويدعوربه أن يصبر ابن عمه ولا يفجعه فيه ، وارتفعت أصوات المسلمين بالنكير ، وأعلست

أصواتهم في فرح أن علياً قتل ابن عبدود، فالتفت رسول الله ﷺ — وقد امتلأ قلبه بالشكر لله، فرأى حيل المشركين منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة. وحان بو قريظة عهد رسول الله ﷺ — وانفقوا مع قريش على أن يخذلوا رسول الله عليه السلام وأن يفتحوا لهم الطريق الذي كان عليهم أن يدافعوا عنه، ليطوفوا المسلمين في الخندق، ولولا لطف الله وهبوب الرياح التي اقتلعت خيام قريش وكفأت قدورهم فاصطروا للرحيل تمت المؤامرة وقضى قضاء مبرما على الإسلام والمسلمين، إنها حيانة عظمى للدولة ليس لها جزاء إلا القتل، فأمر رسول الله ﷺ — مؤدنا فأذن في الناس :

— من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بى قريظة .

وقدم رسول الله ﷺ — علي بن أبي طالب برأيه إلى بى قريظة، وابتدورها الناس . فسار على بن أبي طالب حتى إذا دنا من الحصن سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ — وضايق ابن أبي طالب أن يسمع رسول الله ﷺ — السباب من أفواه اليهود، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ — بالطريق فقال :

— يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث .

— لم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى .

— نعم يا رسول الله .

وكان رسول الله ﷺ — أعلم بأخلاق اليهود من ربيبه وحبيبه فقال :

— لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .

فلما دنا رسول الله ﷺ — من حصونهم قال :

— يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نعمته ؟

— يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

وكان جراؤهم جزاء من يرتكبون جريمة الخيانة العظمى للدولة التي

يعيشون فيها أثناء حرب تنذر بالقضاء على الدولة ومعتقداتها، فضربت أعناقهم . وكانت عزوة بنى المصطلق وسقوط عقد عائشة وتحلفها للبحث عنه ، ومرور ابن المفضل بها واحتماله إياها على بعيره وحديث الإفك وخطبة الرسول في الناس بذكر إيداء قوم له في عرضه ، ثم دعا على بن أبي طالب وأسماء بن زيد فاستشارهما ، فأما أسماء فأتت على عائشة حيرا وقالت ، ثم قال :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلا حيرا ، وهذا الكذب والباطل .
وأما على فإنه قال :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الحاربة فإنها مستصدقت .

ولم يكن على يريد السيل من عائشة ، كان هدفه أن يقطع دابر ذلك القلق الذي استولى على حبيه ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها ، فقام إليها على بن أبي طالب فضرها ضربا شديدا ويقول :

— اصدقي رسول الله ﷺ .

— والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا إلا أني كنت أعجب عحيبي فأمرها أن تحمظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله .

ونزلت براءة عائشة من فوق سبع سماوات ، واطمأن قلب رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه — وفرح على لبراءة عائشة فقد كان على يقين من أنها أحب زوجات رسول الله ﷺ عليه السلام إليه ، ولكن قول ابن أبي طالب وفعله جرح كبيراء عائشة جرحا عميقا لم تقو الأيام على برئه ، فلما قتل عثمان نكأت الأحداث جرح النفس فخرجت عائشة تطالب بدم عثمان ، وكانت وقعة الحمل ، وكان أن قُتل صحابة الرسول بأسياف صحابة الرسول بعد أن كانوا سيوف الله المسلولة في وجه أعداء الإسلام .

وكان صلح الحديبية ، ثم نقض قريش لذلك الصلح بأن تظاهرت ببو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم من أصابوا وكانوا في عقد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ، وكان أن حامت قريش أن يصل أمر ذلك إلى رسول الله عليه السلام فينهض لنصرة حلفائه ، فبعثت أبا سفيان بن حرب إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة ، ولكن أبا سفيان قدم على رسول الله — ﷺ — في المدينة بعد أن حرج عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله — ﷺ — فاستنصره فنصره .

ودخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين ، إنها كانت من أوائل المسلمين وقد هاجرت إلى الحبشة وتنصر هناك زوجها وبقيت هي على دينها ، وتزوجها النبي — ﷺ — لعل هذه المصاهرة تخفف من عداوة بني أمية عامة وأبي سفيان خاصة ، ولكن هذه الزيجة لم تحقق هدفها السياسي ، فقد بقي أبو سفيان بن حرب على عدونه للإسلام والمسلمين .

إن أم حبيبة مسلمة مؤمنة بالدين الذي اعتنقته وإن أباها يعلم ذلك ، ولكن زعامته مهددة إذا ما أخفقت سفارته ، بل إن مكانة مكة كلها قد أصبحت في الميزان ، ولا بد أن أم حبيبة ستفطر إلى كل ذلك وإلى حرج موقف أبيها فتמיד العون إلى سيد قريش وتشفع له عند زوجها الذي صار مفتاح الموقف في يده : وذهب ليجلس على فراش رسول الله — ﷺ — فطوته عنه ، فلاح الدهش في وجهه وقال وهو يتفرس فيها في عجب :

— يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني .

— بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن

تجلس على فراش رسول الله — ﷺ — .

وتقاصرت نفس شيخ قريش فما دار في حبله أن يأتي يوم يطوى عنه فراش ،

وهو الذي قدمت إليه التمارق في قصر كسرى وكانت الأبواب تفتح له في قصور الشام . ومن ذا الذي طوى عنه العراش ؟ إنها أم حبيبة ابنته التي كانت أطوع له من بانه قبل أن يفرق محمد بن عبد الله بتعائمه بيته وبينها .

وهب غاضبا وقال :

— والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فلم يرد عليه شيئا ، فاستشعر مذلة ورأودته فكرة أن يعود من حيث جاء ؛ ولكنه وجد في رجوعه خائبا هائته فعزم على أن يسير إلى آخر الشوط وأن يقرع كل الأبواب وإن كان في ذلك إراقة لماء وجهه ، فالمهمة التي قد تلحقه في المدينة أهون من أن يعود إلى مكة دون أن يشد العقد ويزيد في المدة .

ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما أنا بفاعل .

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه فقال :

— أنا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ — ؟ — هو الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

ثم حرج مدخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — وعندها حس بن علي غلام يدب بين يديها ، فقال :

— يا عليّ إنك أمس القوم بي رحما ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرحعن كما جئت خائبا ، فاشفع لي إلى رسول الله .

— ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم رسول الله — ﷺ — — على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

— يا بنة محمد هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت :

— والله ما بلغ بُنى ذلك أن يُجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله ﷺ .

— فالتفت إلى علي وقال في هوان :

— يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على فاصحسى .

— والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكك سيد بى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

— أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

— لا والله ما أظنه ، ولكى لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان فى المسجد فقال :

— أيها الناس إني قد أجرت بين الناس .

ثم ركب بعيره فانطلق ، فلما قدم على قريش قالوا :

— ما وراءك ؟

— جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد على شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد

فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عياها فوجدته ألين

القوم وقد أشار على بشيء صنعتته فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئا أم لا ؟

— وبم أمرك ؟

— أمرنى أن أجبر بين الناس ففعلت .

— فهل أجاز ذلك محمد ؟

— لا .

— ويلك ! والله إن زاد الرجل على أن لعب بك فما يضي عنك ما قلت .

— لا والله ما وجدت غير ذلك .

كان على من أوى طالب ليا ولكه كان داهية ، ولولا التقى والدين لكان أدهى العرب ، فالداهية يفجرون وريب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لا يصجر بل يتقى الله فيما يفعل وفيما يقول .

وكان رسول الله — ﷺ — يحب عليا وكان ذلك الحب يثير غيرة المنافقين ، فلما خلف رسول الله — ﷺ — على بن أوى طالب على أهله وأمره بالإقامة فيهم عندما خرج لغزوة تبوك وجد المنافقون في ذلك فرصة لإغفار صدر على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقالوا :

— ما خلفه إلا استقالا له وتخففا منه .

فما بلغ القول مسامع على أخذ سلاحه ثم خرج حتى أوى رسول الله — ﷺ — وهو نازل بالجرف فقال :

— يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما حلفتني أنك — استقلتني وتخففت مني . — كذبوا ولكسى خلقتك لما تركت ورائي ، فارجع فاحلمني في أهلي وأهلك ، أفلا ترضى يا على أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ؟

كان عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين في المدينة لم يخرج مع المسلمين للغزو ، وقد قعد المنافقون عن الجهاد ، فكان من الحكمة أن يبقى رجل قوى الشكيمة من أهل بيت الرسول يقطع رأس الفتنة إذا ما زينت لها أطماعها أن تتحرك ، فرجع على إلى المدينة ليخلف رسول الله — ﷺ — لما ترك ورائه من أهله ومن أعداء الله وأعداء رسوله .

ونزل صدر سورة براءة على رسول الله — ﷺ — وقد كان بعث أبا بكر

الصدق ليقم للناس الحج ، قيل له :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر ؟

— لا يؤدى عني إلا رجل من أهل بيتي .

ثم دعا على بن أبي طالب فقال له :

— اخرج هذه القصعة من صدر براءة ، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا

بمى أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يمح بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ،
ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج على بن أبي طالب على باقة رسول الله — ﷺ — العصاة حتى أدرك
أبا بكر في الطريق ، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أأمير أم مأمور ؟

إن أبا بكر يقل بقلب سليم كل ما يأتي من عند رسول الله — ﷺ — فسواء
عنده أن يكون أميرا أو مأمورا فقد جبل على الطاعة مد إشراف قلبه بور
الإسلام ، فقال على :

— بل مأمور .

ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منارهم
من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب
فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله — ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يمح بعد العام مشرك ، ولا يطوف

بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهدا فهو له إلى مدته .

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مآمنهم أو

بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا دمة إلا أحد كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد

إلى مدة فهو له إلى مدته .

ولو رفعت الأسحاف عن العيب القريب لرأى الناس أن ذلك كان تدبير العزيز الحكيم لآخر حجة يحجها رسوله الأمين ليصع آحر اللمسات في الدين القيم ، وليكمل الله للناس دينهم ويم عليهم نعمته ويرضى لهم الإسلام دينا .

وفتح دار في السنع فخرج منه شيخ جليل في الثامنة والخمسين من عمره ، حيف قد انحنى طهره قليلا ، وديع كالحمل ، مستقيم الصمير سهل لين ، متواضع يألفه الناس ، ذهنه متفتح للفهم والتفكير ، مطبوع على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح ؛ وراح يوسع من خطوه في عماية الصبح ليصلى الفجر حلف صاحبه الذي لم يفارقه في طفولته وشابه وشهد معه المشاهد كلها ، إنه أبو بكر الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار .

تأثر بصاحبه منذ نعومة أظفاره فتعلم منه قبل أن يبعث الكمر بالأصنام والاستخفاف بعبادة قومه ، فلما ناهز الحلم أخذ أبو قحافة بيده فانطلق به إلى مخدع فيه الأصنام فقال :

— هذه آلهتكم الشم العوالى .

وحلاه وذهب ، فدنا من الصم وقال :

— إني جائع فأطعمنى .

فلم يجبه فقال :

— إني عار فاكسنى .

فلم يجبه ، فالتقى عليه صخرة فخر لوجهه ، وفي تلك اللحظة انهارت جميع الحواجز والسدود التى قد تقف في سبيل اعتناقه دينا جديدا يقبله عقله المتفتح للفهم وقلة الذى حلا من التعصب للدين الذى وجد آباءه عليه عاكفين .
وبعث الله محمدا ﷺ — بشيرا ونذيرا معرضا للإسلام على رفيق صباه ،

فأسلم أبو بكر بن أبي قحافة ولم يتردد بعد أن وجد أن ما يعرضه عليه رسول الله ﷺ — يستقيم مع الفطرة ويتساق مع منطق الوجود ، ولما كان شجاعاً يجهر بالحق فقد أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ؛ فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومي والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان ابن مظعون وأخوه .

وكان عثمان بن مظعون أحد من حرم الخمر في الجاهلية وقال :
— لا أشرب شراباً يذهب عقلي ، ويضحك بي من هو أدنى مني ، ويحملني على أن أنكح كرميتي .

فلما حرمت الخمر أتى وهو بالعوالي فقيل له :
— لقد حرمت .

— تبا لها ، قد كان بصري فيها ثاقباً .

أقل أبو بكر على الإسلام بكل كيانه وحماسه ، ودخل في الإسلام من بعده خلق كثير ، ولكن إسلام أبي بكر كان شيئاً هاماً في الإسلام ترك أثراً عميقاً في وجدان رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، حتى إنه كان يقول :

— ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة^(١) ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم^(٢) عنه حين ذكرته له وما تردد فيه .
وكان أبو بكر منذ أول يوم دخل فيه في الدين الجديد عوناً للإسلام ونبي الإسلام عليه السلام ، فقد كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يطوف

(١) الكبوة : التأخير وقلة الإجابة . وهو من قولهم كبا الرشد : إدام يور ماراً .

(٢) عكم : تلبث .

بالبيت فوثب إليه أشراف قريش وثبة رجل واحد وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع رداءه ، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول :

— أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟

وفهم أبو بكر روح الإسلام فهما عميقا ، إنه جاء ليحرر الأرواح ويفك الرقاب ، مما أتيت له فرصة ليعتق عبدا إلا اهتبلها ، إنه أعتق مولاه عامر بن مهيبة وأم عيسى ورثيرة ، وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش :

— ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى .

فقالت :

— كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى وما تنفعان .

وأعتق التهذية وبنتها وكانت لامرأة من بني عبد الدار ، فمرهما وقد بهتتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول :

— والله لا أعتقكما أبدا !

— حل^(١) يا أم فلان .

— حل ، أنت أفسدتكما فأعتقتهما .

— فبكم هما ؟

— بكذا وكذا .

— قد أخذتهما وهما حرتان ، أرجعا إليها طحيها .

فالتا وقد أرهف الإسلام إحساسهما بالمسؤولية :

— أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها ؟

— وذلك إن شئتما .

(١) حل : يريد تحلل من يمينك واستثنى فيها .

ومر بخارية بنى مؤمل — حتى من بنى عدى بن كعب — وكانت مسلمة ،
وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك ، وهو يصربها حتى
إذا مل قال :

— إني أعتذر إليك ؛ إني لم أتركك إلا ملالة .

— كذلك فعل الله بك .

فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

ومر أبو بكر بلال وهو يعذب وكانت دار أبي بكر في بى جمع ، فقال لأمية
ابن خلف :

— ألا تتقى الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟

— أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

— أفعل . عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك ، أعطيك به .
— قد قبلت .

— هو لك .

فأعطاه أبو بكر الصديق غلامه ذلك ، وأخذ بلالا وأعتقه .

وكان أبو قحافة يرى ما يفعل ابنه فيعجب في نفسه ، كان أبو قحافة على دين
قومه ولم يكن قد أسلم فلم يتشرب روح الإسلام بعد ، فكان عسير عليه أن يفهم
صنيع ابنه فهو يقيس أفعال أبي بكر بمقاييس مادية لا تصلح لقياس الأفعال في
الدين الجديد .

قال أبو قحافة لأبي بكر :

— يا بنى إني أراك تعتق رقبا ضعافا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا
جلدا يمنعونك ويقومون دونك ؟

— يا أبت إني إنما أريد ما أريد الله عز وجل .

فأنزل الله فيهما : « فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره
لليسرى . وأما من بخل واستعس . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما
يعنى عه ماله إذا تردى . إن علينا للهدى . وإن لنا للأخرة والأولى . فأنذر تكتم
نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجزيها الأتقى .
الذى يؤتى ماله بتركى . وما لأحد عنده من نعمة تحزى . إلا ابتغاء وجه ربه
الأعلى . ولسوف يرضى » (١) .

واضطهد كفار قريش المسلمين فصاقت على أبى بكر مكة وأصابه فيها
الأذى ، فاستأذن رسول الله — ﷺ — فى الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر
مهاجرا حتى إذا سار من مكة يوما أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش فقال :
— أين يا أبابكر ؟

— أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا علىّ .

— ولم ؟ والله إنك لتزىن العشيرة وتعين على النوائب وتعمل المعروف
وتكسب المعدوم . ارجع فأنت فى جوارى .

فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال :

— يامعشر قريش إني قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرضن له أحد إلا بحير

فكفوا عنه . وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح فكان يصلى
فيه ، وكان رجلا رقيقا إذا قرأ القرآن استبكى ، فيقف عليه الصبيان والعبيد
والنساء يعجبون لما يرون من هيئته ، فمضى رجال من قريش إلى ابن الدغنة
فقالوا له :

— يا ابن الدغنة إنك لم تُجر هذا الرجل ليؤذينا ! إنه رجل إذا صلي وقرأ ما جاء به محمد يرق ويكي وكأنت له هيئة ومحو ، محو تتخوف على صياها ونسائها وضعفتا أن يعتنهم ، فأتته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما يشاء فمشى ابن الدغنة إليه فقال له :

— يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذي قومك ، إنهم قد كرهوا مكانك الذي أبت فيه وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت .

— أو أرد عليك جوارك وأرضى بخوار الله ؟

— فاردد على جوارى .

— قد رددته عليك .

فقام ابن الدغنة فقال :

— يا معشر قريش إن ابن أبي قحافة قد رد عليّ جوارى ، فشأنكم بصاحبكم .

ولقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة فحشا على رأسه ترابا ، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة فقال أبو بكر :

— ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ؟

— أنت فعلت ذلك بنفسك .

فرفع أبو بكر عييه إلى السماء وقال :

— أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! أى رب ما أحلمك ! .

وأسرى برسول الله — ﷺ — فعدا رسول الله عليه السلام على قريش فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس :

— هذا والله الأمر (العجب) البين ، والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مُدبرة وشهرا مقلّة ، أفيدهب ذلك محمدى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟

فارتد كثير من كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له :
 — هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يرغم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس
 وصلى فيه ورجع إلى مكة .
 — إنكم تكذبون عليه .
 — بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس .

فقال أبو بكر في إيمان عميق :
 — والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ هو الله إنه ليخبرني أن
 الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا
 أبعد مما تعجبون منه .

إنه يؤمن برسالة محمد عليه السلام ويصدق كل ما جاء به ، فهو الصديق ، ولو
 وزن إيمان الأمة ووزن إيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر .
 وهاجر المسلمون إلى المدينة وأقام رسول الله ﷺ — بمكة بعد أصحابه
 من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة . ولم يتحلف معه بمكة أحد من
 المهاجرين إلا من حبس أو قتل إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق .
 وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله ﷺ — في الهجرة فيقول له
 رسول الله ﷺ — :

— لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .
 فيطمع أبو بكر أن يكونه ، فلما أذن الله تعالى لنبيه ﷺ — بالهجرة انطلق
 إلى دار أبي بكر فقال :

— إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة .

— الصحبة يا رسول الله .

— الصحبة .

وبكى أبو بكر من الفرح ثم قال :

— يا بى الله إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا .

فخرجوا من حوكة لأبى بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى عار شور فانتبها إليه ليلا .
فدخل أبو بكر قل رسول الله — ﷺ — فدمس الغار لينظر أفيه سبع أو حية ،
بقى رسول الله — ﷺ — بنفسه

ومصت ثلاثة أيام وسكن عنهما الناس ، فأتاهما صاحبهما الذى استأجراه
بغيرهما وبغير له ، فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله — ﷺ — قدم له
أفضلها ثم قال :

— اركب فذاك أبى وأمى .

— إني لا أركب بغير اليس لى .

— فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى .

— لا ولكن ما التمس الذى ابتعتها به ؟

— كذا وكذا .

— قد أخذتها به .

— هى لك يا رسول الله .

فركبا وانطلقا ؛ رسول الله — ﷺ — مطمئن الفؤاد تنكشف له الحقائق
بكشف إلهى وتنسكب في قلبه الأنوار ويرى ببيصيرته النافذة عالم الملكوت
فيشاهد ما وراء حواسه ويستشعر شعورا صادقا لا ريب فيه أنه مع الله وأن الله
معه ، وأبو بكر الصديق متفرح في الله يعيش بكل كيانه في اللحظة الخالدة التى
تحتويه . إنه اختار الطريق وإنه يتحمل راصيا ما يقاسمه من آلام مراق الأهل
والأحباب والأوطان ، فإرادته الحرة قد غمرته بسعادة طاغية يهون في سبيلها أى
ألم ، إنه قطع كل علاقه بالديار وأقبل بكنه الحمة على الله فأشرفت ذاته بأنوار نهر ما

في النفس من آمال زائفة وأطماع زائلة . إنه ذاق حلاوة الإيمان فملئ شوقاً إلى ما عند الله .

كانت قافلة صغيرة تسرى في معبد الكون ؛ رسول الله — ﷺ — قد رطب لسانه بذكر الله ، وأبو بكر الصديق يكر في جلال الله وعظمته وملكوته أرضه وسماؤه فأنساه ذلك الخطر المترصصهما في الطريق ، كان عميق الإيمان بأن الله ناصر رسوله ومبلغه مأمه ، فهو سبحانه الذي أشار على عبده بالهجرة ولن يضيعه ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يحدهما في الطريق ، وكان الدليل ينطلق بهم في شعاب غير مطروقة ليتعد بهم عن الأنظار !

كان الركب صغيراً ولكن الحدث كان أعظم حدث في تاريخ البشرية ، كان موس الفساد ينخر في شجرة الحضارة ، اتعد الناس بعضهم بعضاً أرباباً ، الرعية يعبدون ملوكهم بعد أن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، والأقوياء يستعبدون الضعفاء ، والأغنياء يعيشون في الأرض فساداً بأموالهم ، والوجود قد رانت عليه الظلمات ، حياة بلا أمل وصياح بلا نهاية . الدولة الرومانية عاتبة في عيوبه الحمر واللذات الحسية قد صمت أذنيها عن أنات الشعب الذي طحنته المطالم والصرائب الجائرة ، وقيصر قد صار إلهاً ، والكنيسة أعرضت عن السماء وصار القصر الإمبراطوري مصدر وحيها ونبع بركايتها ، والمتنفذون يتخذون الرجال شهوة من دون النساء ، والدولة الإيرانية ساجدة أمام بيوت النار قد سرى في جنباتها الفساد بعد أن أنهكتها الحروب وخوت خزائن الأموال ، فراح الأقوياء يهضمون حقوق الضعفاء ، وصارت الحياة بلا هدف كأنما كان خلق الكون باطلاً وعيثاً ، وفي ذلك الوقت الذي وصل فيه العفن إلى قلب البشرية ، كان الركب الصغير الذي خرج من مكة ، فراراً من الاضطهاد متجهاً إلى المدينة هو النور والأمل والبلسم الشافي لكل أمراض الإنسانية .

إنه إعلان أن لا عبودية بعد اليوم إلا لله وحده، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن الإنسان خليفة الله في أرضه، وأنه حر رقبته حرة وإرادته حرة، له أن يعتقد ما يشاء وأن يفكر كيف يشاء وأن يحتمل مسئولية حرية إرادته وحرية فعله وتفكيره، ولم تعد الحياة عبثاً تنتهى بخمود الأنفاس بل هى بداية حياة أخرى حائلة، حياة توفى فيها كل نفس ما عملت ولا يظلم ربك أحداً .

أصبح العمل عبادة، وطلب العلم عبادة، وطهارة النفس والبدن عبادة، وإيفاق المال فيما أمر به الله عبادة، والصدق فى القول والعمل عبادة، وبر الوالدين عبادة، ومحاربة الظلم عبادة، وكف الأذى عن الناس عبادة، وبذل المعروف لأهله ولغير أهله عبادة، وحب الخير للشرية جمعاء عبادة، والصبر على المكروه عبادة، وإماطة الأذى من الطريق صدقة، وإتسامتك فى وجه أحيك صدقة .

حرح محمد — ﷺ — من مكة ليس معه إلا صاحبه أبو بكر الصديق، ولم تمض إلا سنوات حتى عاد إلى مكة فى عشرة آلاف من الأبرار ليحطم الأصنام ويظهر مارة التوحيد من الشرك ويعيد للبشرية كرامتها، وقد فاصت النهضة التى سعدت بها الجزيرة العربية على الرومان والفرس فحددت شباب الحضارة المتداعية وزيتها بمكارم الأخلاق، فهرقل إمبراطور الروم لما بلغه بآ تحطيم الأصنام فى البلاد العربية قام بى ادى بإزالة التماثيل والصور من الكنائس فكانت حرب الصور، ولم ينجح هرقل فى أن يحقق بعض ما حقق رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه، وطل الاستبداد الطبقي مسيطر ا على الدولة الرومانية والدولة العارسية، فكان على العرب حملة مشعل الحرية أن يعزوا دولتى العرس والروم لتمكين الحرية والمساواة فى الأرض، والقضاء على الطبقة المستبدة العاملة على استعباد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وسمع المسلمون في يثرب بخروج رسول الله ﷺ — من مكة فانتظروا قدومه ، فكانوا يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر حرّتهم ينتظرون رسول الله ﷺ — وأكثرهم لم يكونوا رؤا رسول الله ﷺ — إسم سمعوا ما أنزل عليه من القرآن فانشروا صدورهم للإسلام ، كانوا يلقون أسماعهم إلى شعراء الأوس والخزرج يصيخون إلى ما يلقى في الأسواق من حكم وأشعار فكانوا يتنقون البيان . فلما أنصتوا إلى آيات الله البينات أشرفت أفئدتهم بالأنوار ، فتلفقت يثرب وحي السماء في شوق وإكبار ، وفتح القرآن العظيم أبواب يثرب على مصاريعها للوافد الكريم .

وقدم رسول الله ﷺ — فخرجوا إليه وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبي بكر ، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ — فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك .

لم يعرفوه يوم مقدمه ، أما الآن فهو أبو الجميع والروح السارى في جنبات المدينة والأسوة الحسنة والأمل المشرق قد نزل جبه في سويداء القلوب ، إذا رآه الصغار هرعوا إليه فرحين فهو يغمرهم بعطفه ، ويداعبهم ويلاعبهم وما يهر أحدًا منهم بل يزحى إليهم الصبح في حب غامر وحذب شديد ، وإذا مرّ بحى فسرعان ما تحل الهجة بالدور وتنشرح صدور الرجال والنساء والولدان ، فهو يعنى السلام ويعود المرضى ويواسى المكروبين ، وإذا دعاه عبد أن ينطلق معه إلى السوق أو إلى أى مكان فإنه ينطلق معه يحدثه في ود فهو على خلق عظيم .

وآخى — ﷺ — بين المهاجرين والأنصار ، فكان أبو بكر الصديق وخارجة بن زهير أخو بلحارث بن الخزرج أخوين ، وبلال مؤذن الرسول وأبو رويحة أخوين ، وقد ظل المهاجرون يذكرون هذه المؤاحاة حتى إنه لما دون عمر

ابن الخطاب الدواوين^(١) بالشام ، وكان بلال قد خرج إلى الشام فأقام بها مجاهدا ، قال عمر لبلال :

— إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟

— مع أي رويحة لا أفارقه أبدا ، للأحوة التي كان رسول الله ﷺ — عقد بينه وبينى .

وكان رسول الله ﷺ — يدخل مجامع اليهود يحادثهم بالتي هي أحسن ، وكان أبو بكر الصديق يذهب إلى حيث كان اليهود يتدارسون كتابهم ويعرض عليهم الإسلام . وذات يوم دخل بيت المدارس على يهود فوجد منهم ماسا كثيرا فاجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر من أخبارهم يقال له أشيع ، فقال أبو بكر لفنحاص :

— ويحك يا فنحاص ! اتق الله وأسلم ، والله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عبده تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص لأبي بكر :

— والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإننا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى ، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم .

وثارت الدماء في عروق أبي بكر وعضب الله غضبا شديدا ، فضرب وجه فنحاص ضربا ألما وقال :

— والذى يمسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم لضربت رأسك أي عدو الله .

(١) ديوان : نصيب في العطاء .

إن الرجل الخليم قد ثار الله، وإبه وهو الرجل السهل اللين إذا ثار الله لا يبقى ولا يدر، فبين جسي جسمه النحيل قلب جسور وعزم من حديد.

وذهب فنحاص إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا محمد انظر ما صنع بي صاحبك .

فقال رسول الله — ﷺ — لأنى بكر :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما، إنه رعم أن الله فقير وأنهم أغنياء .

فلما قال ذلك غضبت لله مما قال وصريت وجهه .

فجحد ذلك فنحاص وقال :

— ما قلت ذلك .

وضايق أبا بكر كذب عالم اليهود وحبرهم، فأمر الله تعالى فيما قال فنحاص رد عليه وتصديقا لأنى بكر : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول دو قوا عذاب الحريق » (١) .

ونزل في أنى بكر الصديق وما بلغه في ذلك من الغضب : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الدين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٢) ، ثم قال سبحانه وتعالى فيما قال فنحاص والأخبار معه من يهود : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبسه للناس ولا تكتمونه فبدوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون . لا تحسن الدين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » (٣) .

(١) آل عمران ١٨١ (٢) آل عمران ١٨٦ (٣) آل عمران ١٨٧، ١٨٨

غضب أبو بكر وكان قويا في غضبته ، وقد وضحت شخصيته القوية منذ ذلك اليوم ، فهو ليس بحوار وإنه لكفاء لقتال الذين ارتدوا بعد موت رسول الله ﷺ — ومعوا أداء الركاة ، ولم يكن بين صحابة رسول الله ﷺ — غيره من يقول ما قال : « والله لو منعوني عاقا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ — لحاربهم عليه » .

وكان أبو بكر قليل الكلام يتكلم بخير أو يصمت ، وكان يرى نعيمان وهو يداعب رسول الله ﷺ — أو يداعب أصحابه عليه السلام فينسم . وقد حدث أن حرح أبو بكر في تجارة إلى بصرى بعد أن استقر الإسلام في مكة ومعه نعيمان وسويبط بن سعد بن حرملة — وكان مراحا يفرط في الدعابة — وكان نعيمان على الزاد فقال له سويبط :

— أطمعنى .

— لا ، حتى يحىء أبو بكر .

— أما والله لأغيطانك .

فمروا يقوم فقال لهم سويبط :

— تشترون منى عبدا ؟

— نعم .

— إنه عبد له كلام ، وهو قائل لكم إلى حر ، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة

تركتموه فلا تفسدوا على عبيدى .

— بل نشتره منك .

فاشتروه منه بعشر قلائص ، فجاءوا فوضعوا في عنقه حبلا ، فقال نعيمان

الذى طالما أضحك النبي ﷺ — :

— إن هذا يستهزئ بكم وإلى حر لست بعبد .

فقالوا له في استخفاف :

— قد أخبرنا خبرك .

فانطلقوا به ، فجاء أبو بكر فأخبره سويط ، فاتبعهم فرد عليهم القلائص وأخذهم .

وبلغ أبو بكر مسجد رسول الله ﷺ — وصوت بلال يتردد في جنبات المدينة ، فدخل وهو يتلو بعض آيات الذكر الحكيم ، وكانت عيناه قد اعتادت أن على الظلام فرأى عمر بن الخطاب فذهب ليجلس إلى جواره خلف محراب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه .

كان عمر حبارا في الجاهلية ينزل أقسى العذاب على من تنكر لدين الآباء ، فكان يضطهد عامر بن ربيعة وروحه أم عبد الله بنت أبي حثمة فيمس يضطهد من حيرانه الذين شرح الله صدورهم للإسلام ، فلما ضاق المسلمون باضطهاد قريش واستأذوا رسول الله ﷺ — في الهجرة إلى الحبشة ، راحت أم عبد الله بنت أبي حثمة تتأهب للرحيل ، وذهب زوجها عامر في بعض حاجاتها ، وأقبل عمر بن الخطاب ورأى أم عبد الله وقد عزم على فراق أهل والوطن ، فإذا برققة تغمر قلب الرجل الجبار فيقول في صوت قد حلا من كل غلظة :

— إنه للانطلاق يا أم عبد الله .

— نعم والله لبحر جن في أرض الله أذيتمونا وفهرتمونا حتى يجعل الله مخرجا .
— صحبكم الله .

ورأت له رقعة لم تكن تراها ، ثم انصرف وقد أحزنه حروجهما فحاء عامر بحاجته تلك فقالت له :

— يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا .

— أطمعت في إسلامه ؟

— معم .

— فلا يسلم الدي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب .

و كانت أم عبد الله أكثر فراسة من زوجها ؛ إنها لمست نفاسة معدن ابن الخطاب ، فلو أن صداً الجاهلية قد جلى عن قلب عمر ، ولو أن عمر قد فقه في الدين لكان من حير رجال الإسلام ، إنه لو أسلم لكان إسلامه فتحاً ، فهو رجل ذو شكيمة لا يرام ما وراء ظهره .

وقد أثر خروج أم عبد الله وزوجها عامر في نفس عمر تأثيراً عميقاً ؛ كان يفكر في ذلك الدين الذي هان في سبيله العذاب والاضطهاد وفراق الأهل والصحاب وهجرة الأوطان ، وكان يلقي سمعه أحياناً إلى صوت عقله ولكن شيا به التأثير كان يصده عن أن يصعى إلى ما يهيمس في وجدانه من تدبر وتمكير ، فكان يدفعه إلى الحانات ليرتمى في أحضان العيوبه التي تريجه من آلام أفكاره ، وإلى حلقات المصارعة في الأسواق ليفتن بقوته النساء .

وفي لحظات صحوه كان فكره يؤرقه ، كان الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله يعكر عليه صفو حياته ، إنه يتذكر المعذبين والمهاجرين وذلك العراق الذي وقع بين الأب وبنيه والزوج و زوجته . إنها فتنة أصابت كل بيت ، ولن يحمده الثورة التي اندلعت في مكة إلا قتل الصائى الذي سمه أحلام الآباء وأثار الأبناء على الآباء وجراً العبيد على السادة .

وخرج عمر متوشحاً سيفه يريد رسول الله — ﷺ — ورهط من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال وساء ، ومع رسول الله — ﷺ — عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله — ﷺ — مكة ولم يخرج فيمن حرج إلى أرض الحبشة ، فلقية نعيم بن عبد الله النحام رجل من

قومه من بنى عدى ابن كعب قد أسلم وكان يستخفى إسلامه فرقا من قومه ، فقال نعيم لعمر :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمدا هذا الصائى الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلتها فأقتله .

وحقق قلب نعيم خوفا ؛ إنه يعلم حروت عمر ، وأراد أن يكسر حدته وأن يحوفه إنقاذ الحياة رسوله الذى أخرجه من الظلمات إلى النور ، فقال له نعيم : — والله لقد عرتك نفسك من نفسك يا عمر . أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا !

وأراد أن يوجه عمر وجهة غير وجهته إلى رسول الله — ﷺ — ليبعد عنه أذاه ، فقال :

— أفلا ترحم إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟

— خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأحتك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

لم يحن نعيم بن عبد الله سر سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فقد كان هدفه أسمى من أن يشى بهما . إنه يريد إنقاذ حياة رسول الله — ﷺ — وإن كل شىء دون حياة الرسول عليه السلام يهون ، وإن صلة الرحم التى بين عمر وأخته فاطمة قد يكون لها أطيب الأثر فى ثورة ابن الخطاب ، فلن يصل به غضبه إلى أن يقتل أخته بينما كان عازما عز ما أكيدا على قتل من فرق أمر قريش وسفه أحلامها . ودخل عمر بيت أخته وبطش بسعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فصر بها فاشجها . فلما رأى ما بأخته من الدم ندم على

ما صنع فارعوى وقال لأخته :

— أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به

محمد !

قرأ عمر القرآن بقله فإذا بالغشاوة تنزاح عن عين بصيرته ، وطاب فؤاده فإذا
بأنوار تنسكب فيه لتشع بالهداية في أرجاء وجدانه ، وإذا بنسائم الألفاظ تهب
عليه ففاضت عليه الرحمة حتى دمت عيابه فسالت عبراته لتغسل كل أدران
ماصيه ، واستشعر كأنما قد خلق من حديد فرفع بصره عن الصحيفة وقال :

— ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

وأسلم عمر فكان إسلامه فتحا ، وأراد أن يعلن إسلامه على الملأ فقال :

— أي قريش أنقل للحديث ؟

— جميل بن معمر الجمحي .

فغدا عليه حتى جاءه فقال له :

— أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ؟

فقام جميل يجر رداءه واتبعه عمر ، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى

صوته :

— يا معشر قريش ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ .

ويقول عمر من خلفه :

— كذب ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

ورسوله .

كانوا في أيديهم حول الكعبة فثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى
قامت الشمس على رءوسهم وبلغ به الإعياء فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول :

— افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها

لكم أو تركتموها لنا .

كان المسلمون قد صاروا أربعين بعد إسلام عمر ، ولو كانوا اثلاثمائة رجل لما سكتوا على اصطهاد قريش . فبينما هم يوسعون ضرباً إذ أقبل العاصم بن وائل عليه حلة جيرة حتى وقف عليهم فقال :

— ما شأنكم ؟

— صبأ عمر .

— فمه أ رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أتريدون بى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم هكذا ؟ خلوا عن الرجل .

فوالله لكأنما كانوا ثوبا كشط عنه ، وخرج عمر من الكعبة واطلق إلى دار أبنى جهل وكان يعلم أنه أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ﷺ — ليخبره أنه قد أسلم ، وراح يضرب عليه بابه فخرج إليه أبو جهل فقال :

— مرحبا وأهلا بابن أختى . ما جاء بك ؟

— جئت لأحبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به .

فضرب الباب فى وجهه وقال :

— قبحك الله وقبح ما جئت به .

وفزعت قريش لإسلام عمر بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب ، فهما لا يبايان أحداً ويصران على أن يعلا إسلامهما فى الكعبة وأن يمارس المسلمون شعائر دينهم فى بيت الله الحرام . ففشا أمر محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فى قبائل قريش كلها ، وتأرجحت هبة سادات البيت العتيق ، بل أصبح الخطر يهدد مكانة الكعبة قبلة قبائل العرب كلها والعروة الوثقى التى تربط العدمايين والقحطانيين على السواء .

وبلغ الدين هاجروا إلى الحبشة نبأ إسلام عمر فأفعموا بالسرور وكانت أم

عبد الله بن أبي حشمة أكثرهم فرحا فقد رأت بعين بصيرتها جوهر عمر النفيس على الرعم مما كان يبدو عليه من غلظة، وكانت تطمع في إسلامه وإن سخر منها روحها وقال: « فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب ». وها هو ذا عمر يتهدى إلى الطريق ويشرح الله صدره للإسلام فيصدق حدسها، وقد شجع إسلام عمر كثيرا من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة على أن يعودوا إلى مكة ليقفوا إلى حوار إخوانهم في وجه الطغيان .

وكانت هجرة عمر إلى المدينة نصرا، فقد أثبت لما أراد الهجرة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص بن وائل أن يتقابلوا عند التناصب على بعد عشرة أميال من المدينة وقالوا :

— أيما لم يصبح عندها فقد حس فليمض صاحياه .

كان عمر لا يخشى أن يجسه قومه فقد عزم على أن يخرج على رعوس الأشهاد، ولكنه كان يخشى أن يجس أحد صاحبيه . فلو علم أبو جهل بحروح عياش فلن يتردد في جسده، ولو علم العاص بن وائل بحروح ابنه فسيرعه على القاء في مكة قسرا . وحرص عمر وقد توشح سيفه وقال قوله المشهورة: « من يريد أن تشكله أمه فليقابلني حلف هذا الحبل ». وسار ولم يجرؤ أحد على أن يعترض سبيله، وأصبح هو وعياش بن أبي ربيعة عند التناصب وحس عنهما هشام وفن فافتن . وقدما المدينة فترلا في بي عمرو بن عوف في قباء . وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما عليه المدينة، ولم يحاول أبو جهل أن يجادل ابن أخته عمر بن الخطاب أو أن يغريه بالعودة إلى مكة، بل تقدم هو والحارث بن هشام إلى عياش فكلماه وقالوا : — إن أملك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فَرَّقْ لها .

فقال عمر لعياش :

— يا عياش إنه والله إن يردك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أملك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستطلت .
— أبر قسم أمي ولي هنالك مال فأحذه .

فقال عمر في صدق :

— والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالي ولا تذهب معها .

فأبى عليه إلا أن يخرج معها ، فما أبى إلا ذلك قال له :

— أما إني فعلت فحدناقتي هذه فأبى ناقة بحية دلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم فانج عليها .

فخرج عليها معها حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل :

— يا بن أحيى والله لقد استغلظت بعيري هذا ، أفلا تعقبني على ناقتك هذه ؟
— بلى .

فأناح وأناحوا ليتحول عليها ، فلما استوا بالأرض غدوا عليه فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة بهارا موثقا وقالوا :

— يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاكم كما فعلنا بسفيها هذا .

وفتاه فافتن ، فكان المسلمون في المدينة يقولون :

— ما الله قائل ممن افتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى

الكفر لبلاء أصابهم !

وكان الذين افتنوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلما قدم رسول الله ﷺ —

المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفي قول المسلمين وقول الذين افتنوا في أنفسهم : « قل

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب

جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ^(١) .

فكتبها عمر بيده في صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص ، فلما أتته جعل يقرأها بذى طوى ^(٢) ويعيد قراءتها ولا يفهمها حتى قال :
— اللهم فهمنيها .

فألقى الله تعالى في قلبه أنها أنزلت فيهم وفيما كانوا يقولون في أنفسهم ويقال فيهم ، فرجع إلى بعيره فجلس عليه فلحق برسول الله — ﷺ — وهو بالمدينة .

وكان الناس يجمعون إلى رسول الله — ﷺ — للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة ، فهم رسول الله — ﷺ — أن يجعل يوقا كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم ثم كرهه ثم أمر بالاقوس فمحت ليضرب به للمسلمين للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري حشيتين للاقوس إدرأى في المصام ، لا تجعلوا الاقوس بل أدبوا للصلاة .

فذهب عمر إلى النبي — ﷺ — ليخبره بالذي رأى ، فمأراعه إلا بلال يؤذن فقال له رسول الله — ﷺ :
— قد سبقك بذلك الوحي .

وكان بلال يؤذن على أطول بيت حول المسجد وكان لامرأة من بني النجار ، وكان يأتي بسحر فيجلس على السيت ينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ثم قال :

(١) الرمر . ٥٣ — ٥٥ (٢) طوى . مكان نأسل مكة .

— اللهم إني أحمذك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك .

وما كان يتركها ليلة واحدة حتى جاء نصر الله والفتح .

وكانت غزوة بدر وكان رجال من بني هاشم في صفوف المشركين قد خرجوا مع قريش مستكرهين وهم يحفون إسلامهم حتى لا ينكشف أمرهم ، فهم مخابرات الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وكان العباس بن عبد المطلب كبيرهم وما كان من الحكمة أن يكشف السبي عليه السلام أمرهم ، فقال لأصحابه :

— إني قد عرفت رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتلنا ، فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البحتري ابن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها .

فقال أبو حذيفة :

— أقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لعن لقيته لألجمته (١) السيف .

فبلغت رسول الله — ﷺ — فقال لعمر بن الخطاب :

— يا أبا حفص أضرب وجه عم رسول الله — ﷺ — بالسيف ؟

إنه لأول يوم كسى فيه رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب بأبي حفص ، فقال عمر :

— يا رسول الله دعني فلا أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نأق .

واسلجت الحقيقة لعيسى أبي حذيفة فكان يقول :

(١) لألجمه لأطعم لحمه بالسيف ولأحاططه به .

— ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة .

فقتل يوم اليمامة شهيدا .

وانقضت غزوة بدر ولكن لم تنقض أحقادها ، فقد مر سعيد بن العاص بعمر ابن الخطاب فقال له عمر :

— إني أراك كأن في نفسك شيئا : أراك تظن أني قتلت أباك ، إني لو قتلتك لم أعتذر إليك عن قتله ، ولكني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فأبى مررت به وهو يبحث بحث الثور بروقه (بقرنه) فحدثت عنه ، وقصد له ابن عمه علي فقتله .

فذهب أبو الحسن بأحقاد بدر كلها .

وبينما عمر بن الخطاب في نهر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويدكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحا السيف فقال :

— هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب والله ما جاء إلا لشر ، وهو الذي حرش بيسا وحرريا (قدر عددنا تحمينا) للقوم يوم بدر .

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ — فقال :

— يا ببي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه .

— فأدخله علي .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّيه بها وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

— ادخلوا على رسول الله ﷺ — فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا

الخبث ، فإنه غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر
أخذ حمالة سيفه في عنقه قال :

— أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

— أنعموا صياحا .

— قد أمرنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية أهل الجنة .

— أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

— فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسوا فيه .

كان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر ، فقال عليه السلام :

— فما بال السيف في عنقك ؟

— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عما شيئا ؟

— أصدقني ما الذي جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القلب

من فريش ثم قلت : لولا دئب عليّ وعيال عندى لحرجت حتى أقتل محمدا .

فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلى له ، والله حائل بينك وبين

ذلك .

فظهر الدهش في وجه عمير ثم قال :

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من

حر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان .

فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا

المساق .

ثم شهد شهادة الحق فقال رسول الله ﷺ :
— فقهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره .

وراح عمر يطر إلى عمير في دهش ، فالرجل الذي كان جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، قد أشرق قلبه بالأنوار وأصبح يلتبس من رسول الله أن يأذن له أن يقدم مكة فيدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ — وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذاهم في دينهم كما كان يؤدي أصحاب رسول الله ﷺ .

* * *

وكانت عروة أحد وقتل وحشي حمرة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة هرب وحشي إلى الطائف فمكث بها ، فلما حرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا سدت في وجهه السبل فقال :

— ألحق بالشام أو اليمس أو ببعض البلاد .

وإبه لقي ذلك من همة إذ قال له رجل :

— ويحك ! إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل في دينه وتشهد بشهادته .

فلما قال له ذلك حرج حتى قدم على رسول الله ﷺ — المدينة ، فلم يؤعه عليه السلام إلا به قائما على رأسه يشهد بشهادة الحق ، فلما رآه قال :

— أو وحشي ؟

— نعم يا رسول الله .

— أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة .

— كنت غلاما لحبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم

بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعني فأنت عتيق ، فخرجت مع الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قدوف الحبشة فلما أخطى بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق (١) ، بهد الناس بسيفه هذا ما يقوم له شيء ، فوالله إني لأتنبأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنومي ، إذ تقدمني إليه سياع بن عبد العزى ، فلما رآه حمزة قال له :

— هلم إلى يا بن مقطعة البظور .

فضر به ضربة كان ما أخطأ رأسه ، وهززت حريرتي حتى إذا رصيت منها دفعتها عنيه ، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجله ، وذهب لينوء بحوى فقلب ، وتركته وإياها حتى مات ثم أتيت فأخذت حريرتي ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه ، ولم يكن لي بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق .

— ويحك ! عيب عى وجهك فلا أرينك .

فكان يتنكب رسول الله ﷺ — فلما حرح المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرج وحشى معهم وأخذ حريرته التي قتل بها حمزة ، فلما التقى الناس رأى مسيلمة الكذاب قائماً في يده سيفه وما يعرفه ، فتنبأ له وتنبأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلاهما يريد ، فهز حريرته حتى إذا رضى منها دفعها عليه فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضر به بالسيف فربك أعلم أيهما قتله ، فإن كان قتله فقد قتل خير الناس بعد رسول الله ﷺ — وقد قتل شر الناس .

ولم يستطع وحشى أن يمتنع عن الشراب فلم يزل يُحدق في الخمر حتى تُخلع من

(١) الحمل الأورق : الذى لونه بين الغبرة و سواد ، سماه كذلك لما عليه من الغبار .

الديوان ولم يعد له عطاء مثل غيره من المسلمين ، فكان عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يقول :

— وقد علمت أن الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة .

ورمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله ﷺ — يوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى ، وشجه عبد الله بن شهاب الزهري في جبهته ، وجرح ابن قمئة وحنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، ووقع رسول الله ﷺ — في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون . وأوسع ابن قمئة الأرض إذاعة أن محمدا قتل فقعد المسلمون عن القتال ، وانتهى أنس بن البصر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم فقال :

— ما يجلسكم ؟

— قتل رسول الله ﷺ .

— فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ .

ثم استقبل القوم يقاتل قتال الأسود الكواسر ، يتلقى الطعنات في صبر ، ولم يسقط شهيدا إلا بعد أن ضرب بسيوف المشركين سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته عرفته بيناته .

وكان أول من عرف رسول الله ﷺ — بعد الهزيمة ، وقول الناس قتل رسول الله ﷺ — كعب بن مالك ، عرف عينيه تضيئان من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ — .

فأشار إليه رسول الله ﷺ — أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله

— ﷺ — أخذ على بن أبي طالب بيد رسول الله — ﷺ — ورفع طلحة بن عبد الله حتى استوى قائما . ومص ماله بن سنان ، أبو أبي سعيد الخدري الدم عن وجه رسول الله — ﷺ — واطلق رسول الله عليه السلام نحو الشعب معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، وجاء أبو عبيدة بن الجراح ونزع إحدى الحلقة من وجه رسول الله — ﷺ — فسقطت نتيته ، ثم نزع الأخرى فسقطت نتيته الأخرى ، فكان ساقط الشيتين .

ثم إن أبا سفيان بن حرب لما أراد الانصراف أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته فقال :

— إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعل هبل .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل لا سواه ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .

فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له أبو سفيان :

— هلم إلى يا عمر .

فقال رسول الله — ﷺ — لعمر :

— ائتني فانظر ما شأنه .

فجاءه فقال له أبو سفيان :

— أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدا ؟

— اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت أصدق عندي من ابن قمعة وأبر .

عرف أبو سفيان قائد قریش أن رسول الله — ﷺ — لم يقتل ، فلما ذالم يأمر

باستئناف القتال حتى يقضى على المسلمين ونبي الإسلام ويستأصل ذلك الخطر الذى بات يهدد قريش في المدينة؟ إن كان الجهد قد نال من المسلمين، وإن كان قد مسهم جراح فقد مس الكافرين جراح مثلها، وما كانت نتائج المعركة إذا ما استؤنفت مضمونة، فآثر أبو سفيان أن يعود ظافرا منتصرا وإن لم يكن نصرا حاسما من أن يخاطر بمخاطرة قد تكون نتائجها وبالا عليه وعلى قومه.

وبعد ست سنوات من الهجرة خرج رسول الله ﷺ — عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا، وساق معه الهدى سبعين بدنة، وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر. واطلق المسلمون معتمرين حتى إذا بلعوا الحديبية أمر رسول الله ﷺ — الناس بالزول فزلوا، ومشت السفارات بين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وبين قريش فقالت قريش :
— والله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تحدث بذلك عما العرب .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال :

— يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان .

فدعا رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة . وكان صلح الحديبية، وثار عمر بن الخطاب ثورة عارمة، إنه ينكر الصلح ولا يقره فأقأ أبا بكر فقال :

— يا أبا بكر أليس برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

— يا عمر الزم عُرَّة ، فإنني أشهد أنه رسول الله .

— وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أألسنت برسول الله ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

— أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني .

وفي أثناء العودة إلى المدينة نزلت منورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا .

ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا

مستقيما » (١) . وعلم عمر أنه تسرع لما أنكر على رسول الله — ﷺ — الصلح ،

ثم جاء فتح مكة فتقاصرت نفس عمر وأرهقه ضميره المرهف ، فما زال يتصدق

و يصوم ويصلى ويعتق من الذى صنع يوم الحديبية ، محافة كلامه الذى تكلم به .
وأجمع رسول الله ﷺ — المسير إلى مكة فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا
إلى قريش يحذرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ — من الأمر فى السير
إليهم ، ثم أعطاه سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب وجعل لها جعلا على أن تبذره
قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به .

وأبى رسول الله الخير من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب
والزبير بن العوام فقال :

— أدر كما امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم
ما قد أجمعنا له من أمرهم .

فخرجنا حتى أدركاها بالخليفة خليفة بنى أحمد فاستتر لاهما فالتصا فى رحلها
فلم يجدا شيئا ، فقال لها على ابن أبى طالب :

— إني أحلف بالله ما كُذِبَ رسول الله ﷺ — ولا كُذِّبنا ، ولتخرج لنا
هذا الكتاب أو لنكشفنك .

فلما رأت الجمد منه قالت :

— أعرض .

فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأبى به
رسول الله ﷺ — فدعا رسول الله ﷺ — حاطبا فقال :

— يا حاطب ما حملك على هذا ؟

— يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت وما بدلت ، ولكنى
كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل
مصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب :

— يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافع .

— وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال :

« اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

فأمر الله تعالى في حاطب : « يا أيها الدين آموا لا تتحدوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأستبهم بالسوء وودوا لو تكفروا . لن تمعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرونا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده لا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربما لا نجعلنا فتنة للذين كفروا أو اعمرنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو العسى الحميد » (١) .

و ذات يوم استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ — وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن بالحجاب ، فأذن له رسول الله ﷺ — فدخل عمر ورسول الله ﷺ — يضحك ، فقال عمر :

— أضحك الله سلك يا رسول الله .

— عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن بالحجاب .

— فأنت أحق أن يهين يا رسول الله .

ثم قال عمر :

— يا عدوات أنفسهن أتهينى ولا تهين رسول الله ؟

— نعم ، أنت أفظ وأعظ من رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إياها ياب الخطاب ، والذي نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجعك .

* * *

ودخل مسجد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عثمان بن عفان ذو النورين تعلوه السكينة والوقار ؛ إنه رجل تستحي منه الملائكة ، وكان عثمان جسرا من الحسور التي تربط بى هاشم بى أمية ، فأمة أروى بنت عامر بن كريب وأمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب ، وكانت البيضاء وعبد الله أبو رسول الله — ﷺ — توأمين ، وكان أبوه أبا العاص بن أمية فهو هاشمى من جهة أمه وأموى من جهة أبيه .

وكان عثمان يألف أبا بكر ، فلما أسلم أبو بكر دعا عثمان إلى الإسلام فدخل فيه ، وكان عثمان فى الرابعة والثلاثين لما اعتنق الدين الجديد ، وقد تزوج رقية بنت رسول الله — ﷺ — وقد اضطهده عمه الحكم بن العاص وأنزل به سوط عذاب ، فكان عثمان أول من خرج من المسلمين من بى أمية إلى الحبشة معه امرأته رقية ، وتوطدت الصداقة بينه وبين النجاشى ولكنه لما سمع بأن الله أعز الإسلام

بعمر بن الخطاب عاد إلى مكة ليكون إلى جوار رسول الله ﷺ — ثم هاجر عثمان إلى المدينة فنزل على أوس بن ثابت بن المذر أخى حسان بن ثابت ، ولما آخى رسول الله ﷺ — بين المهاجرين والأنصار آخى بين عثمان بن عفان لكماله وحسن خلقه وأوس بن ثابت . وقد آخى رسول الله ﷺ — بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة ليذهب عنهم وحشة العرب ويؤسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أرباب بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل وذهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ (١) . فلم يعد من آخى بينهما الرسول يرث أحدهما الآخر ، بل أصبح الميراث من حق أولى الأرحام ، ثم جعل الله المؤمنين كلهم إخوة في التوادة وشمول الدعوة ، فقال جل من قائل : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٢) .

وكانت غزوة بدر وتخلف عنها عثمان بن عفان ، فقد كان إلى جوار زوجته رقية التى كانت تجود بأفاسها . وجاء خبر النصر وعثمان يسوى التراب على ابنة رسول الله ﷺ — فقد ماتت ذات المجرتين قبل أن تسعد روحها الطاهرة بالبشرى . وأقبل رسول الله ﷺ — على المدينة وقد شاع فيها السرور بنصر الله ، ودخل مسجده وصلّى فيه ركعتين شكر الله ، ثم دخل على فاطمة الزهراء فوجدتها تسح الدموع على رقية الحبيبة فاعتصر الحزن قلبه وجعل يمسح دموع الزهراء بطرف ثوبه .

وصرب رسول الله ﷺ — لعثمان بسهمه فقال عثمان :

— وأجرى يا رسول الله ؟

— وأجرك .

وفر عثمان فيمن فر يوم أحد وعفا الله عنه وغفر له ، وقد أمره رسول الله ﷺ — أن يضرب عنق الحارث بن سويد . وكان الحارث منافقا فخرج يوم أحد مع المسلمين ، فلما التقى الناس عدا على المجذر بن ذباد البلوى وقيس بن زيد فقتلها ، ثم لحق بمكة بقریش ، وكان رسول الله ﷺ — قد أمر عمر بن الخطاب بقتله إن ظفر به فقاته فكان بمكة ، ثم بعث إلى أخيه الجلاس بن سويد يطلب التوبة ليرجع إلى قومه ، فبينما رسول الله ﷺ — في نفر من أصحابه إذ خرج الحارث بن سويد من بعض حدائق المدينة وعليه ثوبان في لون الدم ، فأمر به رسول الله ﷺ — عثمان فصرب عنقه .

وبعث رسول الله ﷺ — عثمان بن عفان إلى أنى سفیان وأشراف قریش يوم الحديبية يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة ، فخرج عثمان إلى مكة فلقية إبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ — فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفیان وعظماء قریش فبلغهم عن رسول الله ﷺ — ما أرسله به ، فقالوا له حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ — إليهم : — إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ — واحتبسته قریش عندها ، فبلغ رسول الله ﷺ — والمسلمين أن عثمان قتل ، فقال رسول الله ﷺ — : — لا نبرح حتى نأجز القوم .

فدعا رسول الله ﷺ — الناس للبيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وكانت البيعة على ألا يقرؤا ، ثم أتى رسول الله ﷺ — أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

وفتحت مكة ثم تأهب المسلمون للخروج إلى تبوك ، وحض رسول الله ﷺ — أهل الغنى على النفقة والحملان فأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فقال رسول الله ﷺ :

— اللهم ارض عن عثمان فإنه راض .

وتوضأ أبو موسى الأشعري في بيته ذات يوم ثم خرج فقال :

— لألزمن رسول الله ﷺ — ولأكوس معه يومى هذا .

فجاء المسجد فسأل عن السى — فقالوا :

— خرج ووجهه ههنا .

فخرج على أثره يسأل عه حتى دخل بئر أريس ، فجلس عند الباب وبابها من

جريد حتى قضى رسول الله ﷺ — حاجته فتوضأ ، فقام أبو موسى إليه فإذا

هو جالس على بئر أريس وتوسط حافة البئر وكشف عن ساقيه ودلاهما

في البئر ، فسلم أبو موسى عليه ثم انصرف ، فجلس عند الباب فقال :

— لأكونن بواب رسول الله ﷺ .

فجاء أبو بكر فدفع الباب فقال أبو موسى :

— من هذا ؟

— أبو بكر .

— على رسلك .

ثم ذهب أبو موسى فقال :

— يا رسول الله هذا أبو بكر يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فأقبل أبو موسى حتى قال لأبى بكر :

— ادخل ورسول الله ﷺ — يشارك بالجنة .

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ — ودلى رجله في البحر كما صنع النبي ﷺ — وكشف عن ساقه .

ثم رجع أبو موسى فجلس فإذا إنسان يحرك الباب فقال :
— من هذا ؟

— عمر بن الخطاب .

— علي رسلك .

ثم جاء أبو موسى إلى رسول الله ﷺ — فسلم عليه فقال :
— هذا عمر بن الخطاب يستأذن .

— ائذن له وبشره بالجنة .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله ﷺ — بالجنة .

فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ عن يساره ودلى رجله في البحر .

ثم رجع أبو موسى فجلس فجاء إنسان يحرك الباب فقال :
— من هذا ؟

— عثمان بن عفان .

— علي رسلك .

فجاء أبو موسى إلى رسول الله ﷺ — فأخبره فقال :
— ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه .

فجاء أبو موسى فقال له :

— ادخل وبشرك رسول الله ﷺ — بالجنة على بلوى تصيبك .

ودخل عثمان بن عفان فعطى رسول الله ﷺ ما انكشف عن ركبته .

بشر رسول الله ﷺ — عثمان بالجنة ، فلم يمض عثمان في الأرض مرحاباً بل

كان يرتجف من خشية الله، وكان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحينه فقيلاً له :

— تذكر الجنة والنار ولا تسكى وتبكي من هذا ؟

— إن رسول الله ﷺ قال . إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه .

كان عثمان بن عفان ورعاً تقياً حليماً أوامها دامت الخلق ، وزوجه رسول الله ﷺ — ابنتين ؛ فلما ماتت أم كلثوم قال له ﷺ :

— لو كان عندنا ثلاثة لزوجنا كلها .

وبشره رسول الله ﷺ — بالجنة ، ولكن لما كثر ظلم الناس له أرادوا أن يبحسوه فصله وأن يسلبوه محاسنه ، فقد جاء رجل من أهل مصر حج البيت فرأى قوماً جلوساً فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

— هؤلاء قریش .

— فمن الشيخ فيهم ؟

— عبد الله بن عمر .

— يا ابن عمر إلى سائلك عن شيء فحدثني عنه . هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تعيب عن بدر ولم يشهد ؟

— نعم .

— هل تعلم أنه تعيب عنبيعة الرضوان فلم يشهدا ؟

— نعم .

— الله أكبر !

— تعال أبين لك . أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له ، وأما
تعبه عن بدر فإنه كانت تحته بت رسول الله ﷺ — وكانت مريضة ، فقال له
رسول الله ﷺ : إن لك أجر رجل ممن شهد بدر أو سهمه ، وأما تعبته عن بيعة
الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه ، فبعث رسول الله
ﷺ — عثمان وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة ، فقال رسول
الله ﷺ — بيده اليمنى : هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان .

وهبط بلال بعد أن أذن بالفجر من فوق أعلى بيت بجوار مسجد الرسول ،
وخرج رسول الله ﷺ — أطيّب رائحة من المسك فقام أقرب الناس منه
فجعلوا يأخذون يديه فيمسحون بها وجوههم . وتقدم عليه السلام إلى المحراب
وقد تواضع لله ووقف يصلى وقد اصطف خلفه أصحابه قد ملكت أفتدتهم تقوى
واردادوا علما فازدادوا من ربهم قربا ، تحبوا بحارم الله وأدوا فرائض الله وعملوا
بالصالحات من الأعمال ، ووقروا وجدانهم أن الأجل دون الأمل ، فبادروا
الأجل بالعمل ليردادوا في عاجل الدنيا رفعة وكرامة ، وينالوا في آجل العقبى
بصالح أعمالهم من ربهم القرب والعز والفوز الأكبر .

كانوا رعاة أو تجارا أو كان من المفروع منه أن يمروا كأجدادهم في قافلة الحياة
دون أن تستشعر بهم الشرية ، ولكن القرآن العظيم وأسوة رسول الله ﷺ —
الحسنة جعلت منهم أعظم حكام وأعدل قضاة وأشهر قواد ، وقد دخلوا التاريخ
من أوسع أبوابه وأظهره ، فقد أصبحوا على يقين من أنهم لم يخلقوا عبثا ولن يتركوا
سدى ، وأن الله سائلهم عما هم فيه وعما عملوا به ، فقد قال لهم رسول الله —
صلوات الله وسلامه عليه — ومعلمهم الأكبر : لا تروا قدما عبد يوم القيامة
حتى يسأل عن أربع : عن علمه ما عمل به ، وعن عمره فيما أفناه ، وعن ماله من أين

اكتسبه وفيه أنفقه ، وعن جسده فيه أبلاه .

أرهفت حواسهم فلم يكن شيء أحب إليهم من الإصلاح ولا أبغض إليهم من الفساد ، فكانوا يحاسبون أنفسهم قبل أن تكشف أقعنتهم فيما بينهم وبين الله في مجمع الأشهاد ، فجعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

كانوا يعملون بالحق ليوم لا يقضى فيه إلا بالحق ، فكان حكماءهم حكماء ، وأموالهم في أيدي السمحاء ، يأمرون بتقوى الله ويخلصون العمل لله ، ويخلطون الرعية بالرهبة ، يأمرون بما أمر الله به ، ويهون عما نهى الله عنه ، يعلمون أن الطمع فقر ، وأن اليأس غنى ، وأن في العرلة راحة من حلطاء السوء ، الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس : « كنتم خير أمة نعمة ، والموت لهم كرامة ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (١) .

كان طسّم وجديس من ساكنى اليمامة ، وهى إذ ذاك من أحصص البلاد وأعمارها وأكثرها خيرا وثمارا وحدائق وقصورا . وكان ملك طسّم عشوما لا ينهائى عن هواه ويقال له عُمَلوق ، وكان مضرا لجديس مستذلا لهم حتى كانت البكر من جديس لا تهدي إلى زوجها حتى تدخل عليه فيفترعها ، وكان السبب فى ذلك أن امرأة منهم كان اسمها هُزيلة طلقها زوجها وأخذ ولده منها ، فأمر عملوق ببيمها وأخذ زوجها الخمس من ثمنها ، فقالت شعرا تتظلم به فأمر ألا تتزوج منهم امرأة حتى يفترعها ، فقاموا كذلك حتى تزوجت الشمسوس وهى غفيرة ابنة غفار بن جديس أخت الأسود ، فافتضها عملوق فقال الأسود بن غفار لرؤساء جديس :

— قد ترون ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينغى للكلاب أن تعافه فأطيعونى ، فإنى أدعوكم إلى عر الدهر .

— وما ذاك ؟

— أصنع للملك وقومه دعوة ، فإذا جاعوا بهضنا إليهم بأسيافا فنقتلهم . فأجمعوا على ذلك ودفنوا سيوفهم فى الرمل ، ودعوا عملوقا وقومه فلما حضروا قتلوهم فأغنوهم . وقتل الأسود عملوقا وقد حسب أنه قد استراح من طسّم وظلمهم ، ولكن رياح بن مرة بن طسّم أفلت فأتى حسان بن تبع مستغيثا ، فهض حسان فى حمير لإعائته حتى كان من اليمامة على ثلاث مراحل ، قال لهم رياح :

— إن لى أختا مروحة فى جديس اسمها اليمامة ليس على وجه الأرض أبصر

منها ، وإنما لتبصر الراكب على ثلاث مراحل وأحاف أن تنفذ القوم .
فأمر كل رجل أن يقطع شجرة فيجعلها في يده ويسير كل كأنه خلعها ، ففعلوا
وبصرت بهم اليمامة فقالت لحديس :
— لقد سارت إليكم حمير ، وإني أرى رجلا من وراء شجرة يده كتف
يتعرقها أو نعل يخلصفها .

فاستبعدوا ذلك ولم يخلوا به ، وصحبهم حسان وجنوده من حمير فأبادهم
وضرب حصونهم وبلادهم ، وهرب الأسود بن غفار إلى جبلى طيء فأقام بها
ودعا تبع باليمامة أخت رباح التي أبصرتهم فقلع عينها ، وكانت تلك البلد جَوَّ
فسميت باليمامة اسم تلك المرأة .

وبقيت اليمامة بعد طسم يابا لا يأكل ثمرها إلا عواقي الطير والسباع ، حتى
برها أبو حيفة وكانوا بعثوا رائداهم عبيد بن ثعلبة الحمصي ير تادهم في البلاد ، فلما
أكل من ذلك الثمر قال :
— إن هذا لطعام .

وانتشرت النصرانية في الحبشة بعد أن اردهرت في الشام ، فأراد قيصر أن
يتصل بصارى الشمال بنصارى الحبوب عبر جزيرة العرب وأن يقوض البيت
العتيق الذى يجمع قبائل العرب لعل راية النصرانية ترفرف على طول الطريق من
الحبشة إلى روما ، فأمر قيصر الحاشى أن يغزو جزيرة العرب وأعانه على ذلك ،
فاستولت الحبشة على اليمن ، ثم خرج أبرهة وأصحاب القيل ليهدموا الكعبة
فجعل الله كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طهرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من
سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول .

وانسحبت فلول جيش أبرهة إلى اليمن وظل الاحتلال الحبشى جاثما على أرض
اليمن ، فخرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا

إليه ما هم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويلبهم هو ويعث إليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فأعرض عنه قيصر ولم يجد عنده شيئا مما يريد .

وانطلق سيف بن دى يزن إلى كسرى وكانت العداوة ناشئة بين الفرس والروم ، فأمد كسرى سيف بن دى يزن بالمقاتلين فانتصر سيف والفرس على الحبشة وصارت اليمن منطقة نفوذ للفرس ، فكان الأكاسرة يعثون قوافل التجارة من فارس إلى اليمن في حماية ملوك اليمن .

وقد أجاز هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة قافلة لكسرى ، فلما وفد هوذة عليه توجه وملكه فأصبح هوذة ملكا على اليمامة .

وكانت اليمن أكثر بلاد العرب حضارة للصلة الوثيقة التي كانت بينها وبين فارس ، فلما بعث الله رسوله ﷺ — قال أعداؤه :

— إنما يعلمه رجل من اليمامة .

وسمعت اليمن بالدين الحديد ورسول الله ﷺ — بمكة ، فقد جاء الطفيل ابن عمرو الدوسى إلى الحرم وسمع القرآن من النبی — صلوات الله وسلامه عليه — فشرح الله صدره إلى الإسلام ، فلما عاد إلى قومه أسلمت دوس وأسلم أبو هريرة ، وألقى الناس أسماءهم إلى قرآن محمد ، وكان مسيلمة يصغى إلى ما يتلى عليه فكان الحسد ينهش قواده ويتمنى لو أن ذلك النور قد نزل عليه ، وبقيت اليمن في ظلمات الجاهلية فخورا بما أتاهما من فارس ، حتى إذا ما كان صلح الحديبية أرسل عليه السلام الرسل إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام .

وخرج سليط بن عمرو أخو سهيل بن عمرو من المدينة يحمل كتاب رسول الله ﷺ — إلى هوذة بن على ملك اليمامة الذى توجه كسرى ، فلما مثل بين يديه قدم إليه الكتاب ففضه هوذة وراح يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على

من اتبع الهدى ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك .

وكان عند هودة عظيم من الصاري فقدم إليه الكتاب ، فلما انتهى من قراءته رفع رأسه إلى الملك وقال له :
— لم لا نجيه ؟

— أنا ملك قومي ولكن اتعته لم أملك .

— بلى والله لكن اتبعته ليملكك وإن الخير لك في اتباعه ، وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل .

وأطرق الملك وبظر إليه سليط طويلا ، إنه يحاف على ملكه وإن سليط ليعرفه جيدا فلما جاء إلى اليمامة ودخل عليه ، وسادت فترة صمت ثم قال له سليط :
— تسويد كسرى إياك هو أعظم حائل يهلك وبين الإسلام ، إنما السيد من متع بالإيمان ثم تزود بالتقوى . وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا أمرك بحير مأمور به وأنهاك عن شر منهي عنه . أمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان فإن في عبادة الله الحية وفي عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيسا كشف الغطاء وهول المطلع .
فقال هودة في حيرة :

— سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أحتر به الأمور فقده ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلى رأيى فأجيبت .

لم يكن يخطر على قلب هودة أن أتباع ذلك الدين الحديد سيقوضون ملك من توجه ، وما كان بقادر على أن يتصور أن جريرة العرب تستطيع أن تنجب رجلا في مكانة كسرى ، فقد كانت نظراته دنيوية وما قدر الروح الجديدة التي نفخها

الإسلام في أتباعه حق قدرها .

وأراد هودة أن يكسب مكاسب دنيوية فرد على كتاب الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ردا دون رد ، فكتب إلى النبي — ﷺ — : « ما أحسن ما تدعو إليه وأحمله ، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني ، فاجعل إلي بعض الأمر أتبعك » .

وأجاز سليطا بخاترة وكساه أثوابا من نسج هجر ، فقدم بذلك كله على النبي — ﷺ — فأحبره ، وقرأ النبي — ﷺ — كتابه وقال :
— لو سألتني سبابة (١) ما فعلت . باد وما د ما في يديه .
وسمع مسيلمة بما كان فراح يحلم أنه بعث رسله إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى دينه !

وجاء نصر الله والفتح ، فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من فتح مكة جاءه جبريل عليه السلام فأحبره بأن هودة قد مات .
ورأى رسول الله — ﷺ — في المنام أن في يده سورين من ذهب ، فأهمه شأنهما فأوحى الله إليه في المنام أن ينفخها ، فنفخهما فطارا ، فأولهما كائير بخرجان من بعده .

وراحت الوفود ترد إلى المدينة بعد أن تم فتح مكة واعتنقت الإسلام ، فحاء وقد بسى حيفة ومعهم مسيلمة وجعلوه في رحالهم ، فلما أسلموا ذكرُوا مكانه فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا في رحالنا يحفظها لنا .
فأمر له — ﷺ — بمثل ما أمر به لواحد من القوم — خمس أواق من فضة —

(١) سبابة : قطعة من الأرض .

وقال :

— أما إنه ليس بشركم مكانا .

وكان نهار الرجال بن عُفوة قد هاجر إلى السى عليه السلام — وقرأ القرآن وفقه في الدين ، فبعثه — عليه السلام — معلما لأهل الجمامة ، وما كان نهار الرجال صادق الإيمان فقد كان يحب الدنيا ، وما كان بقادر على زجر نفسه الأمانة بالسوء .

وعاد بنو حبيفة إلى الجمامة فراح مسيلمة يرغم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أشركه معه في الأمر ، وقال لمن وفد معه :

— ألم يقل لكم حين دكرتموني له : أما إنه ليس بشركم مكانا ، ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه في الأمر .

وعاد مسيلمة إلى المدينة مع وفد من قومه ، فلما انتهى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهم يسترونه بالثياب كلمه وسأله أن يشركه معه في النبوة ، وكان في يد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قطعة من جريد ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتك ، وإنى لأراك الذي منه رأيت .

تذكر رسول الله ما رأى في المنام من أمر السوارين ، إن مسيلمة أحد الكذابين وإنه لا يستحق أن يطيل رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الوقوف معه ، وكان قد حرج معه ثابت بن قيس بن شماس فقال عليه السلام :

— وهذا ثابت بن قيس يحبك عنى .

ثم انصرف — صلوات الله وسلامه عليه .

وانضم نهار الرجال إلى مسيلمة فقد آثر الدنيا على الآخرة ، فكان أعظم فتنة على بنى حبيفة من مسيلمة . شهد له أنه سمع محمدا — صلى الله عليه وسلم — يقول إنه قد أشرك معه ، فصدقوه واستجابوا له .

وضرب حرما بالجمامة فنهى عنه وأخذ الناس به فكان محرما ، فوقع في ذلك

الحرم قرى الأحالف أفخاذ من بى أسيد ، وكانت دارهم باليمامة فصار مكان دارهم فى الحرم .

والأحالف سيحان وغماره ونمر والحارث ، فإن أحصبوا أغاروا على غمار أهل اليمامة واتحدوا الحرم مدجاً ، فإن اقتفوا أثرهم دخلوا الحرم فيحجم عنهم الطلب ، وإن أحجموا عن مطاردتهم فذلك ما يريدون ، فكثير ذلك منهم ، ورفع الناس الأمر إلى مسيلمة فقال :

— أنتظر الذى يأتى من السماء فيكم وفيهم .

ثم قال لهم :

« والليل الأطعم . والذئب الأدلم . والجذع الأزلم . ما انتهكت أسيد من محرم » .

— أما محرم استحلال الحرم وفساد الأموال ؟

وشجع ذلك بنى أسيد فعادوا للعارة وعادوا للعدوان ، ورفع الأمر إلى مسيلمة فقال :

— أنتظر الذى يأتينى .

فقال : « والليل الدامس . والذئب الهامس . ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس » .

— أما التحيل المرطبة فقد جذوها ، وأما الحدران اليابسة فقد هدموها . — اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم .

وكان يحب أن يتألف بنى تميم فكان يقرأ لأتباعه : « إن بى تميم قوم طهر لقاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهم ما حيننا بإحسان . تمنعهم من كل إنسان . فإذا متنا فامرهم إلى الرحمن » .

وكان أصحابه يتلون فى دورهم قرآته : « والمبشرات زرعاً . والحاصدات

حصدا . والداريات قمحا . والطاحنات طحما . والخابزات خبزاً . والتارادات
ثردا . واللاقمات لقما . إهالة وسما . لقد فضلتكم على أهل الوبر . وما سبقكم أهل
المدر . ريمكم فامنعوه . والمعتز فأووه . والباعى فإوئوه .

وجاء طلحة الثمري التمامة فقال :

— أين مسيلمة ؟

— مه ، رسول الله .

— لا حتى أراه .

فلما جاءه قال :

— أنت مسيلمة ؟

— نعم .

— من يأتيك ؟

— رحمن .

— أفي نور أو في ظلمة ؟

— في ظلمة .

— أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إليّ من

صادق مضر .

والتف حول مسيلمة الدين عرثهم الدنيا فأرادوا إيهام الناس أن الصلوات طيبة بين
رسول الله ﷺ وبينه فأشار على الكذاب أن يكتب رسول الله ﷺ —
فبعث إلى المدينة رسولين يحملان كتابه ، فدحلا على الرسول — صلوات الله
وسلامه عليه — وقدمتا إليه الكتاب ، فدفعه عليه السلام إلى من يقرأه فقراً :
— من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ؛ سلام عليك ، أما بعد فإني قد
أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن

قريشا قوم يعتدون .

فالتفت عليه السلام إلى الرجلين وقال :

— فما تقولان أنتما ؟

— نقول كما قال .

— أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

وكتب رسول الله ﷺ — كتابا إلى مسيلمة بعث به حبيب بن زيد ، وأم حبيب نسيبة بنت كعب أم عمارة وقد شهدت بدرا هي وزوجها ، وابناها حبيب وعد الله ، فانطلق حبيب إلى الإمامة فرأى عجا : رأى عبد الله بن النواحة يؤذن للبيـة — ﷺ — ويشهد في الأذان أن محمدا رسول الله ويشهد لمسيلمة ، ورأى الناس يترحمون من الشرط فقد أباح لهم مسيلمة الخمر ، وانتشر في أرجاء الإمامة الفسق بعد أن أحل لهم الزنا .

ودخل حبيب على مسيلمة وقد أحاط به أنصاره ، فقدم إليه كتاب رسول الله ﷺ — فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

واكفهر وجه مسيلمة ، والتفت إلى حبيب وقد ملئ غضبا وقال له :

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أتشهد أني رسول الله ؟

— لا أسمع .

فراح يقطع يده ويقول :

— أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

— نعم .

— أفتشهد أني رسول الله ؟

— لا أسمع .

فجعل يقطعه عضوا عضوا حتى مات في يده لا يزيده على ذلك ، إذا ذكر له رسول الله — ﷺ — آمن به وصلى عليه ، وإذا ذكر له مسيلمة قال : لا أسمع . وبلغ نُسبية ما فعل مسيلمة بابنها فراحت تتأهب للخروج مع المسلمين محاربة الكذاب .

صلى أبو بكر العصر ثم خرج يمشى وعلى يمشى إلى جانبه ، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان فحمله على عاتقه وقال :

— بأبى (١) شبيه بالنبي لا شبيه بعلى .

وعلى يضحك ، فما من أحد رأى الحسن إلا وقال إن الحسن يشبه جده عليه السلام ، وكان الحسن إذا نادى أباه يقول :

— يا أبا الحسن .

وكان الحسين ينادى أباه بقوله :

— يا أبا الحسن .

وكانا يقولان لرسول الله — ﷺ :

— يا أبتاه .

وأمم الحسن لعبه فذهب إلى المسجد فوجد رسول الله — ﷺ — يحدث أصحابه ، فلما رأى عليه السلام الحسن استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وفتح له دراعيه فارتضى الحسن في أحضانه ، فجعل رسول الله — ﷺ — يقبله ثم قال :

— اللهم إني أحبه فأحبه .

وقام رسول الله — ﷺ — والحسن يسير إلى جواره حتى دخل على ابنته فاطمة الزهراء ، فأشرق وجهه بابتسامة وحقق قلبه في حب ، فالزهراء تذكره بخديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، بالأحبة الذين رحلوا وحلقوا في القلب الأحران .

ومال رسول الله ﷺ — وقبل زينب بنت فاطمة ، الصغيرة التي حملت اسم خالتها الراحلة فاستشعر عواطف جياشة تمور في صدره . عواطف من الحب والأسى ، من الشفقة والحنان ، فابتسامته التي ترسم على شفثيه كلما وقعت عيناه على زيبب الصغيرة وأم كلثوم تمتزج بالدموع ، فهو وإن كان رسول الله الذي يعد نفسه للموت وما بعد الموت فهو إنسان .

وجاء الحسين فلما رأى جده في الدار نادى في فرح فياض :
— أبتاه .

فأقبل عليه رسول الله ﷺ — وقبده ثم حمله على عاتقه وجعل يداعبه ، وفاطمة الرهراء تنظر في سرور تكاد الدموع أن تبلبل عيبيها من الفرح . كانت الرهراء كأبيها حليقة الأحزان ، وما كانت تحس سعادة حقه إلا في تلك الأوقات التي يمضيهما أبوها العظيم في دارها ، فالسرور كان يشيع في كل من في البيت المتواضع الذي كان يخلو من أي أثاث وقد خلا من كل ترف .

لم يكونوا فقراء بعد أن فتح الله عليهم خير والطائف ، ولكنهم كانوا كرماء يفقون على الفقراء والمساكين كل ما يصل إليهم ، فقد كانوا أكثر ثقة بما في يد الله مما في أيديهم ، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كانت فاطمة بضعة منه وكانت قلبه وروحه التي بين جنبيه ، فكان إذا قدم من سفر يصلّي ركعتين لله ثم يبدأ بربارتها قبل أن يعود إلى داره ، وكان كل صباح يطرُق باب دارها ويقول :

— السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ، الصلاة رحمكم الله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .

وكان بكاء طمل من أطعها في الليل يطير النوم من عينيه ، فكان إذا سمع بكاء الحسن أو الحسين يهرع إلى دار الزهراء ويحمل الصغير بين يديه في حنان دافق

وهو يقول للزهراء في عتاب لطيف :

— ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني !

وأقربت أمانة بنت رينب ، فهفا قلب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إليها . إنه يحبها بكل جوارحه وقد أعلن أكثر من مرة أنها أحب أهل بيته إلى فؤاده ، وكان يحملها في الصلاة على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها ، وكان قلبه الكبير يسمع حب أبنائه وحب بناته وحب أحفاده وحب أصحابه وحب المسلمين وحب المؤمنين بل وحب البشر أجمعين ، فما بعث إلا رحمة للعالمين .

وأذن بلال المغرب فخرج رسول الله — ﷺ — إلى المسجد فرأى أبا الدرداء يمشي أمام أبي بكر فقال :

— يا أبا الدرداء أتمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة ؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر .

وكان رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما أحد عندي أعظم من أبي بكر ، وإسألى بنفسه وماله وأنكحني ابنته .
ويقول :

— لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام .

ويقول :

— أبو بكر وعمر بمنزلة السمع والبصر .

كان أبو بكر ملكاً في زى مسكين ، وكان إذا مُدح قال :

— أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، واعمر لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني عما يقولون .

(حجة الوداع)

وقدم عمر بن الخطاب أبيض اللون يعلوه حمرة، أصلم شديد حمرة العينين في عارضيه حفة، وقد قال رسول الله ﷺ — فيه :

— عمر معي وأنا مع عمر، والحق مع عمر حيث كان .
وقال عليه السلام :

— يا عمر إنك لذو رأي رشيد في الإسلام .

— وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— قال لي جبريل ليكيّن الإسلام على موت عمر .
وقال :

— أبو بكر وعمر مئى بمنزلة هارون من موسى .
وكان عمر يقول :

— لولا خوف الحساب لأمرت بكش يشوى لنا في التور .

وحلس عثمان في المسجد لسانه رطب بذكر الله لا يرفع عينيه في الناس، وقد قال رسول الله فيه :

— عثمان أشد أمتى حياء .

وقال لابنته أم كلثوم لما روجها لعثمان بن عفان :

— إن بعلك أشبه الناس بمجدك إبراهيم عليه السلام وأبيك محمد .

إنه يطعم الناس أطيب الطعام ويدخل بيته يأكل الخل والريت وهو الغنى الذى يوسع على الناس، فقد أصاب الناس فحط في خلافة أبى بكر الصديق، فلما اشتد بهم الأمر جاءوا إلى أبى بكر وقالوا :

— يا خليفة رسول الله، السماء لم تمطر والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

— انصرفوا واصبروا إلى أرجو الله ألا تمسوا حتى يرج عكم .

فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عمرا لعثمان جاءت من الشام وتصبح بالمدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هي ألف بعير موسوقة براوزيتا وربيبا . فلما جعلها في داره جاء التجار فقال لهم :

— ما تريدون ؟

— إنك تعلم ما نريد ، بعنا من هذا الذى وصل إليك فإنك تعلم ضرورة الناس .

— حبا وكرامة ، كم تربحونى على شرائى ؟

— الدرهم درهمين .

— أعطيت زيادة على هذا .

— أربعة .

— أعطيت زيادة على هذا .

— خمسة .

— أعطيت أكثر من هذا .

— يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تجار غيرنا وما سبقنا إليك أحد ، فمس ذا الذى أعطاك ؟

— إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟

— لا .

— فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين .

وقال له رسول الله — ﷺ :

— يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصا ، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني يوم القيامة .

* * *

وسار على بن أبي طالب ناحية المحراب . إنه آدم شديد الأدمة ثقيل العينين عظيمهما . أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ذو بطن ، كثير الشعر ، عريض اللحية ، أصلع أبيض الرأس ، عريض ما بين المنكبين ، لا تبين عضده من ساعده . كان رسول الله ﷺ — إذا غضب لم يجترئ أحد أن يكلمه إلا على ، فقد كان يحبه ويقول :

— من آذى عليا فقد آذاني .

ويقول :

— عى مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض .
وكان على لا يترك فرصة يتعلم فيها من رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فهو يحل العلم ويقول :

— العلم يرفع الوضيع ، والجهل يصع الرفيع ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه .
ومن حكمه :

— لا تكون غيا حتى تكون غفيا ، ولا تكون زاهدا حتى تكون متواضعا ، ولا تكون متواضعا حتى تكون حليما ، ولا يسلم قلبك حتى تحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، وكفى بالمرء جهلا أن يرتكب ما عنه نهي ، وكفى به عقلا أن يسلم الناس من شره ، وأعرض عن الجهل وأهله .

كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من حوائبه ، وتنطق الحكمة من لسانه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل

ووحشته ، إنه غزير الدمعة ، طويل العكرة ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما خشن يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا يئأس الضعيف من عدله .

وصلى رسول الله ﷺ — بالناس المغرب والعشاء ثم دخل يدور على نسائه ، فدخل على سودة بنت زمعة ولم يكن بها يوم تزوجها بعد موت خديجة أم المؤمنين على الأزواج من حرص ، ولكنها أحبت أن يعيها الله يوم القيامة روجا للرسول .

إنه — صلوات الله وسلامه عليه — تزوجها عزاء لها بعد أن مات زوجها وابن عمها السكران بن عمرو هناك في الحبشة ، ولم تكن جميلة ولم تكن شابة ولكنها كانت وحيدة ، وما كان المسلمون يدعون مسلمة مؤمنة بلا زوج بل لا بد أن تكون في كنف رجل ، وما أكثر الرجات التي تمت بين الأرامل وكبار الصحابة صيانة للنساء .

وكانت سودة تحاول جاهدة أن تسعد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فكانت تنشرح إذا ما رأته يبتسم ، وكانت تسارع بعمل كل ما تظن أن رضاه فيه ، فلما فطنت إلى أن عائشة بنت أبي بكر أحب نساء النبي ﷺ — إلى قلبه ، ووجدت أن الشيوحة قد دبت فيها قالت لزوجها العظيم :
— إلى أهب ليلتي لعائشة ، وإلى لا أريد ما تريد النساء .

وذهب إلى غرفة عائشة فإذا بالزوجة الحبيبة ترحب به في ود صادق وحب عميق ، إنه ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، إنها لو كانت قد تزوجت من جبر بن المطعم بن عدى لما ارتفع شأنها عن أى روجة من روجات المؤمنين ، ولكنها

بزواجها من رسول رب العالمين أصبحت أم المؤمنين وحب نبي الإسلام، عليه السلام، الكبير .

إنها لا تستطيع أن تنسى ذلك اليوم الذي ماتت فيه أمها أم رومان، فقد واساها عليه السلام أحمل مواساة وغمر بعطمه أباهما الصديق، ولم يكتم بذلك بل نزل قبر أمها واستغفر لها وقال :

— اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك .

إنها لا تنفك تذكر يوم عرسها كلما خلت بنفسها، فقد جاء رسول الله بينهم فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتها أمها وهي في أرجوحة بين عذقين فأبرزتها ثم سوت شعرها ومسحت وجهها بشيء من ماء ثم أقبلت تقودها حتى إذا كانت عند الباب وقفت بها حتى ذهب بعض نفسها، ثم أدخلتها ورسول الله جالس على سرير في بيتها فأجلستها في حجره وقالت :

— هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك .

ومد ذلك اليوم ورسول الله يصعها على عينه ليأخذ عنها المسلمون نصف دينهم، وقد علم المسلمون حب الرسول لبنت أبي بكر فكانوا يبعثون إليه الهدايا وهو في بيتها، فدفعت الغيرة زوجاته إلى أن يلتمسن من الزهراء أن تخاطب أباهما في الأمر فذهبت إليه وقالت :

— يا أباي إن نساءك أرسلتنني إليك وهن ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة .

— أي بنية أتحيينني ؟

— نعم يا أباي .

— فأحبها .

ولم تحاول فاطمة أن تؤذي أباهما بعد ذلك في عائشة .

وظل الناس يتحرون هداياهم يوم عائشة، فاجتمع نساء النبي إلى أم سلمة

فقلن :

— يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وأنا أريد الخير كما تريده عائشة ، فمرى رسول الله ﷺ — أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان وحيث ما دار .

فذكرت ذلك أم سلمة للسيدة ﷺ — فأعرض عنها ، فلما عاد إليها ذكرت ذلك فأعرض عنها ، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال :

— يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه ما نزل على الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها .

ودخل رسول الله ﷺ — حجرة حفصة بنت عمر ، إنه تزوجها بعد أن مات زوجها خيس بن حذافة يوم أحد ليشد الأواصر بينه وبين عمر كما شد الأواصر بينه وبين الصديق من قبل بزواجه من عائشة ، إنه تزوج ابنتي وزريه . لم تكن حفصة في رقة عائشة ولم تكن جميلة وكان فيها حدة ، وكان عمر يحس أن السيدة ﷺ — يتحملها إكراما له ، ولقد قال لها ذات يوم :

— والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاى لطلقك !

ودلف رسول الله ﷺ — إلى أم سلمة بنت زاد الركب ، إنها كانت زوجة لعبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي ، ابن عمه الرسول برة بنت عبد المطلب ، وأخوه — ﷺ — من الرضاعة أَرْضَعْتُهُمَا ثَوْبِيَّةَ مَوْلَاةِ أَبِي هَبٍ . وكان ممن هاجر إلى الحبشة وهناك أنجبا ابنتهما سلمة ، وهاجرا إلى المدينة ووق غروة أحد جرح أبو سلمة جرحا خطيرا ثم التأم ، فبعثه رسول الله ﷺ — لقتال بني أسد فعاد الحرح فغرو وحمل أبو سلمة إلى المدينة حيث قضى نحبه وترك

أم سلمة أرملة .

ولما مات أبو سلمة قال لها — ﷺ :

— سلى الله أن يوجرك في مصيبتك ويخلفك خيرا .

— ومن يكون خيرا من أمي سلمة ؟

ولما اعتدت أم سلمة أرسل إليها النبي — ﷺ — بخطبها مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما جاءها حاطب قالت :

— مرحبا برسول الله — ﷺ — تقول له إني امرأة مسنة ، وأني أم أيتام ، وأني شديدة الغيرة .

فبعث إليها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما العيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فأبى الله ورسوله .

وشبت زيب بنت أم سلمة في رعاية الرسول — ﷺ — فكانت من أفقه نساء أهل زمانها ، واختار لربيبة سلمة ابنة حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

إن ابن أم سلمة زوج أم سلمة رسول الله — ﷺ — على متاع منه رحي وحفنة وفراش حشوه ليف ، وقيمة ذلك المتاع عشرة دراهم ، فتزوجها رسول الله — ﷺ — وأدخلها بيت رينب أم المساكين بعد أن ماتت ، فإذا جرة فيها شيء من شعر وإذا رحي وبرمة وقدر وأدم ، فأخذت ذلك الشعر فطحنته ثم عصدته في البرمة ، فكان ذلك طعام رسول الله — ﷺ — وطعام أهله ليلة عرسه .
 إن أم سلمة بنت راد الركب كانت تعيش عيشة مترفة في بيت أبيها ، فلما اعتنقت الإسلام ضحكت بكل راحة في سبيل راحة صميرها وإحساسها الصادق بحريتها ، وقد هاجرت إلى الحبشة ثم هاجرت إلى المدينة وهي راضية كل

الرضا . ثم أصبحت زوجة لرسول الله ﷺ — تعيش في حجرة متواضعة كل ماها لا يساوي أكثر من عشرة دراهم ، ولكنها كانت تستشعر في أعماقها سعادة من ملك الدنيا بأسرها والآخرة بعيهما .

* * *

ودخل على زينب بنت جحش فإذا بها غارقة في الصلاة فهي حميدة متعددة مفرغ اليتمى والأرامل . كانت زوجة لزيد بن حارثة وكان الأشراف يأنفون أن يزوجوا بعاتهم من الموالى . وقد أراد الإسلام أن يقضى على هذه النعرة الجاهلية فكان زواج زيد من زينب سيلة المجد والشرف .

وكان أشراف العرب يتعففون عمن تزوجن من الموالى ، وأراد الإسلام أن يقضى على تلك العادة المتأصلة فيهم وأن يعلن أن الناس سواسية وأهم من آدم وأن لا فصل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، فكان زواج محمد ﷺ — من ابنة عمته زينب بنت جحش بعد أن قضى زيد منها وطرا .

وكان رسول الله ﷺ — قد أرسل زيد بن حارثة بخطبها له — ﷺ — فذهب زيد إليها فجعل طهره إلى الباب فقال :

— يا زينب بعث رسول الله ﷺ — يذكرك .

— ما كنت لأحدث شيئا حتى أوامرى عز وجل .

فأنزل الله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » (١) . فكانت تفتخر على نسائه — ﷺ — وتقول :

— إن الله أنكحنى إياه من فوق سبع سموات .

ونزلت في ذلك اليوم الذى لا تنساه زينب آية الحجاب فإنه — ﷺ — دعا

القوم وطعموا وتباً — ﷺ — للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من قام
وقعد ثلاثة نفر، فجاء السي — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل،
فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى
طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ إِنَاءٍ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا
مُسْتَأْنَسِينَ لَخَبِيرَاتُ إِنْ دَلِمَ كَانَ يُؤْذَى السَّبِي فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ
الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ دَلِمَ أَطْهَرَ لِقُوبِكُمْ
وَقُلُوبَهُنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ
ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا. إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا.
لَا جَنَاحَ عَلَيْهِمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَيْسَاءُ
أَخْوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا» (١).

وكان الرسول — ﷺ — قد تبى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد،
فتكلم في ذلك المافقون وقالوا:

— محمد حرم ساء الأولاد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله تعالى: « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ
النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » (٢). وأنزل سبحانه وتعالى: « ادْعُوهُمْ
لَأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا » (٣).

(٢) الأحزاب ٤٠ .

(١) الأحزاب ٥٣ — ٥٥

(٣) الأحزاب ٥

وكان رسول الله — ﷺ — يقول عنها :
— إنها لأواهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأواه ؟

— الخاشع المتضرع .

وكانت عائشة تقول في حقها :

— هي التي كانت تساويني في المنزلة عند رسول الله — ﷺ — وما رأيت

قط حبرا في الدين وأتقى لله وأصدق في الحديث وأوصل للرحم وأعظم صدقة
من زينب .

وذهب إلى دار جويرية بنت الحارث وكانت جويرية عليها ملاحه وحلاوة لا
يكاد يراها أحد إلا وقعت بنفسه ، كانت من سبايا بنى المصطلق وقد وقعت في
السهم لثابت بن قيس ، فكاتبته على نفسها ورأت أن تستعين برسول الله
صلوات الله وسلامه عليه فجاءت إليه وهو في حجرة عائشة وقالت :
— يا رسول الله أنا بنت الحارث بن ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء
ما لم يحف عليك ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي فجتثك
أستعينك على أمرى .

— فهل لك في خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقتضى عك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس فأطلقوا ما كان بأيديهم من الأسرى وقالوا :
— أصهار رسول الله .

ودخلت بيت النبی — صلوات الله وسلامه عليه — وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها ، أعتق برواحها من الرسول أهل مائة بيت من بيوت بني المصطلق .

وطاف بریحانة بنت يزيد من بني النضير وكانت قبل رسول الله — ﷺ — عذرجل من بني قريظة يقال له الحكم ، وكانت جميلة وسيمة وقعت في سبي بني قريظة فكانت صفى رسول الله — ﷺ — فخيرها بين الإسلام ودينها فاحتارت الإسلام فأعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتي عشرة أوقية وشا .

ودخلها عليه السلام في بيت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية ، وغارت عليه — ﷺ — غيرة شديدة فطلقها فأكرت البكاء فراجعها عليه السلام .

ودخل على أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وهي بنت عمه عثمان بن عفان هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فولدت له حبيبة ربيبة رسول الله وهي في حجره عليه السلام .

وتصر عبيد الله بن جحش هناك وثبتت هي على الإسلام ، وبعث رسول الله — ﷺ — عمرو بن أمية الصمري إلى النجاشي فزوجه إياها ، وأصدقها النجاشي عن رسول الله — ﷺ — أربع مائة دينار وجهزها النجاشي من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة .

وكانت أم حبيبة راضية النفس مطمئنة الفؤاد لا تفتأ تشكر الله على أن هدى أبا سفيان وأهل بيته إلى الإسلام ، فقد كانت قبل فتح مكة ترتجف فرقا أن يموت

شيع بى أمية على الكهر كما مات شيوخ بى مخروم وبنى وائل وبنى
عبد شمس .

* * *

ورار صفية فى حجرتها ؛ إنها ست حبيى بر أحطب سيد بى النصير قتل مع
قريظة ، وكانت عند سلام بن مشكم ثم حلف عليها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها
يوم خير ، فلما جمع سبى خير جاء رسول الله ﷺ — دحية الكلبي فقال :
— يا رسول الله أعطنى جارية من السبى .

— اذهب وخذ جارية .

فأخذ صفية فقيل :

— يا رسول الله إنها سيدة بى قريظة والنصير ، لا تصلح إلا لك .

فقال النبى ﷺ :

— خذ جارية من السبى غيرها .

فحببها وجهزتها له أم سليم وأهدتها له من الليل ، فأولم — عليها بتمر

وسويق .

ورأى رسول الله ﷺ — أثرها فى وجهها فسأها عن ذلك فقالت :

— رأيت كأن القمر وقع فى حجرى فذكرت ذلك لزوجى كنانة ، فضرب

وجهى ضربة أثرت فى هذا الأثر وقال : إنك لتقدين عنقك إلى أن تكونى عد

ملك العرب .

وكانت صفية عاقلة فاضلة ، ودخل عليها — يوما وهى تبكى فقال

لها فى ذلك فقالت :

— بلعنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من صفية ، نحن

بنات عم رسول الله ﷺ .

— قولى له: كيف تكن حيرامنى وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام وزوجى محمد؟

وطاف — ﷺ — ميمونة بنت الحارث وكان اسمها برة فسمها — ﷺ — ميمونة ، وهى خالة عبد الله بن العباس وأختها أسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس ورينب بنت خزيمة أم المؤمنين ، وخالة خالد بن الوليد ، وكانت فى الحاهلية عند مسعود بن عمر فعارقها فحيف عليها أبو رهم فتوفى عنها ، وقد وهبت نفسها للبنى — ﷺ — عندما كان فى مكة يؤدى العمرة بعد صلح الحديبية وبنى بها بسرف ، وقد ظلت سرف أحب أرض الله إلى قلبها حتى إنها أوصت أن تدفن بسرف .

وترك — ﷺ — دور نسائه وانطلق إلى مشربة أم إبراهيم . كانت مارية المصرية تنتظره وكان معجبا بها لأنها كانت بيضاء جميلة ، وكانت تذكره بأبيه إبراهيم وهاجر المصرية وإسماعيل الذى كان جسرا بين مصر والعرب . وكان إبراهيم الحبيب هاك ؛ إن قلبه الشريف يهفو إليه ويخفق بحبه ، وذمه يسترجع صور الماضى التى تشرق فى وجدانه فتبدد أحرانه . إنه يرى أبا رافع مولاه وقد جاء إلى المسجد بإبراهيم فهرع إليه أسامة بن زيد والحسن والحسين وحبيبة وأميمة ابنة زينب يحاول كل منهم أن يختطفه لنفسه . هذا يداعبه وذاك يقبله والجميع يناجونه فى حب صادق لا تشوبه غيرة . إنها صور إنسانية تمس وترا حساسا فى قلبه الكبير وتفجر ينابيع الحنان من كثر فؤاده بأبلب المشاعر وأرق الإحساسات .

ورأى فى ظلام الليل أبا بكر وعمر وعثمان وعليها وكبار الصحابة وقد فتحوا

قلوبهم لإبراهيم وغمروه بحبهم فاستشعر سعادة عارمة ، ولم يكدر صفوه أنه تذكر في تلك اللحظة ما كان من عائشة بنت أبى بكر ، إنه جاء به إلى عائشة ذات يوم وقال لها :

— انظرى إلى شبهه .

— ما أرى شيئا .

— ألا ترين إلى بياضه ولحمه ؟

أنكرت عائشة كل شبه بينه وبين إبراهيم بوحي من غيرتها ، وأنه ليغفر لبنت الصديق غيرتها . إنه — صلوات الله وسلامه عليه — دفعه لأُم بردة خولة بنت المنذر بن زيد الأنصارى روجة البراء بن أوس لترضعه وأعطاهها قطعة نخل ، فكانت ترضعه في بى مازن وترجع به المدينة ، وكان — ﷺ — يتطلق إليها فيدخل البيت ويأخذه فيقبله ثم يرجع .

إن مارية تعلم مقدار حب رسول الله — ﷺ — لابنه إبراهيم فكانت تحرص على أن يكون عندها كلما جاء — ﷺ — لزيارتها فهو قرّة عينه ومصدر سعادته ، وإنه لما يهجهها أن ترى رسول الله — ﷺ — سعيدا .

ولم تعد مارية جارية فقد حررها ولدها ، فالإسلام دين الحرية يلتزم أى سبب لتحرير الرقاب ، فما أن تضع الجارية ما فى بطنها حتى تصبح حرة لها حقوق كل الأحرار ، وقد أمسى لمارية ليلة يخصصها بها رسول الله — ﷺ — أسوة بأمهات المؤمنين .

ودخل رسول الله — ﷺ — على المصرية بنت الصعيد فألقى إبراهيم فى حجرها فامتد إليه فؤاده قبل أن تمتد إليه يده ، ثم رفعه وراح يقبله فى حب وهو يفكر فى إسماعيل الحديد الذى سيكون جسر الحب بين مصر والعرب .

كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل فيمن شهد العقبة الأخيرة ، وقد بايعاه — ﷺ — مع من بايعوه من الأنصار على حرب الأحمر والأسود . وكان عمرو بن الجموح من بني حرام بن كعب بن غانم بن كعب بن سلمة ، وكان معاذ بن جبل من بني جشم وقد ادعته بو سلمة لأنه كان أخا سهيل السلمى لأمه ، وقد توطدت الصداقة بين معاذ بن عمرو بن الجموح وبين معاذ بن جبل الذي كان في بني سلمة .

فلما قدم الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — بالمدينة أظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من انشرك منهم عمرو بن الجموح بن سلمة — وكان ابنه معاذ بن عمرو قد أسلم — وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من أشرفهم ، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مائة ، وكان الأوس والخزرج يعبدون مائة قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام ، فلما أسلم فتيان بني سلمة معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح في فتیانهم ، كانوا يؤجلون بالليل على صم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها فضلات الناس منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : — ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟

ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجدته غسله وطرهه وطيبه ثم قال :

— أما والله لو أعمم من فعل هذا بك لأحزينة .

فإذا أمسى ونام عمرو وعدوا عليه فمعلوا به مثل ذلك ، فيغدو فيجده في مثل

ما كان فيه من الأذى فيعسله ويطهره ويطيبه ، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك ، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوما فغسله وطرهه وطيبه ، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال :

— إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك .

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقر به به يحمل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة ، ثم عدا عمرو بن الجموح فلم يجد في مكانه الذي كان به فحرج يتبعه حتى وجد في تلك البئر منكسا مقرونا بكلب ميت ، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من رجال قومه فشرح الله صدره للإسلام ، فأسلم ليسير في موكب النور .

وآخى رسول الله ﷺ — بين جعفر بن أبي طالب ومعاد بن جبل ، فكان معاذ في شوق إلى أن يلقى أحاه الذي كان هالك في الحشة ، وكان يتبع أخباره في شعب ويرقب ذلك اليوم الذي بها جرفه إلى المدينة في لحظة ، فلطائما سمع أن جعفر كان أقرب بني هاشم شهبا بر رسول الله ﷺ .

وكان معاد بن جبل يحسب أن اليهود سيسارعون بالتصديق بر رسول الله عليه السلام ، فقد كانوا إذا ما نشب قتال بينهم وبين الأوس والخزرج يستفتحون عليهم بر رسول الله ﷺ — قبل مبعثه ، فلما رأى معاد بن جبل أنهم قد جهدوا ما كانوا يقولون فيه ، سار إليهم هو وبشر بن البراء بن معرور وقال لهم :

— يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك ونخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته .

فقال سلام بن مشكم أحد بني النضير :

— ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكره لكم .

فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ (١)

وعاد معاد بن جبل إلى نفر من أحبار يهود يسألهم عن بعض ما في التوراة فكتبوه إياه وأبوا أن يخبروه عنه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من الكتاب والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ (٢) .

ودعا رسول الله ﷺ — يهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم الله وعقوبته فأبوا عليه وكفروا بما جاءهم به ، فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب :

— يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل معثته وتصفونه لنا بصفته .

فقال يهود :

— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بشيرا ولا نديرا بعده ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (٣) .

وكانت عروة بدر فشهدا معاد بن جبل ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، ولم يكتف أن يكون رجل سيف بل أراد أن يكون رجل علم ، فكان

يلزم مسجد الرسول يتلقى منه الحكمة ويقرأ عليه القرآن العظيم ويتفقه في الدين . فلما عاد رسول الله ﷺ — إلى مكة بعد حرب الطائف استحب عتاب بن أسيد على مكة وكان عمره إذ ذاك نحو عشرين سنة ، وخلف معه معاذ ابن جبل يفقه الناس .

وقدم على رسول الله في عام الوفود رسول ملوك حير ، فكتب — ﷺ — إليهم كتابا جاء فيه : « ... أما بعد فإن رسول الله محمد النبي أرسل إلى زريعة ذي يزن أن إذا أتاكم رسل فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك ابن عباد وعقبة بن عمر ومالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والخزينة من مخالفكم وأبلغوها رسل ، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيا . أما بعد فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وأمرك بحمير حيرا ولا تخونوا ولا تتحدلوا فإن رسول الله هو ولي غيبكم وفقيركم وأن الصدقة لا تحل لعمد ولا لأهل بيته وإنما هي ركاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل .

وأن مالكًا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب وأمركم به خيرا ، وإنني قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم وأمركم بهم حيرا فإنهم مظلور إليهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وراح — صلوات الله وسلامه عليه — يوصى معاذًا ويعهد إليه ثم قال له : — يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، وأنت ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فحرج معاذ حتى إذا قدم اليه قام بما أمره به رسول الله ﷺ — وكان حُافر بن التوأم الحميرى كاهها وكان قد أوتى بسطة في الجسم وسعة المال وكان

عائيا ، فلما وفدت وفود اليمن على النبي — ﷺ — وظهر الإسلام أغار على إبل
حراء فاكتسحها وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر ونزل بواد من أودية الشحر
محصا كثير الشجر من الأيكة والعرين ، وكان يحاول أن يصمم أديبه عن القرآن
الذي فتح أفئدة اليميين ، ولكن القرآن كان على كل لسان فألقى إليه السمع فإذا به
ليس بالشعر ولا بالسجع المتكلف ، وإذا به فرقان بين الكفر والإيمان ، فلما برق له
النور امتطى راحته وأعلم أعبيده واحتمل أهله حتى ورد الحدف فرد الإبل على
أربابها وأقبل يريد صعاء ، فأصاب بها معاذ بن جبل أمير الرسول — ﷺ —
فألقى إليه سمعه فإذا يقلبه يتحرك ، وإذا بالدمع يفيض ، وإذا به يتعرض لتفحات
ربه فتشرق أنوار المعارف في عين ذاته ، وإذا به يستشعر أن عالمه أوسع من العالم
الأرضي ، وأن ملكه أعظم من أعظم ملك بعد أن سلم قلبه من غير الله ، فأقبل على
معاذ بن جبل يبأيعه على الإسلام بعد أن ارتفعت الحجب بين قواده والملوك .

كانت وفود اليمن ترد إلى المدينة وتلقى رسول الله ﷺ — يحملون إسلامهم وإسلام من وراءهم ، وكان رسول الله يبعث إليهم من يفقههم في الدين ، فقد أرسل إلى الكورة العليا من جهة عدن معاذ بن جبل ، وبعث أبو موسى الأشعري إلى الكورة السفلى وقال له بوصيه :

— بسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر ، إنك ستأتى قوما أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإن أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب .

وانطلق أبو موسى الأشعري إلى اليمن فراح يذكر تلك الأيام التي سبقت هجرته إلى المدينة ، فقد بلغه وهو في اليمن مخرج النبي ﷺ — إلى يثرب ، فخرجوا مهاجرين إليه هو وأخوان له هو أصغرهم ، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم في ثلاثة وخمسين رجلا من قومه ، فركبوا سفينة فألقتهم سفينتهم إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبي طالب فأقاموا معه حتى قدموا جميعا فوافقوا النبي ﷺ — حين افتتح حير .

وكان أناس من الناس يقولون لهم :

— سبقناكم إلى الهجرة .

ودخلت أسماء بنت عميس وكانت تحت جعفر بن أبي طالب وهي ممن قدم

معه على حفصة روح البى — ﷺ — زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى الحبشة فيم هاجر ، فدحل عمر على حفصة وأسماء عدها فقال عمر حين رأى أسماء :
— من هذه ؟

— أسماء بنت عميس .

— الحبشية ؟ هذه البحرية هذه ؟

قالت أسماء :

— نعم .

— سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله — ﷺ — منكم .

فغضبت وقالت :

— كلا والله ، كنتم مع رسول الله — ﷺ — يُطعمم جائعكم ويعط جاهلكم ، وكنا في دار البُعداء البُعضاء في الحبشة وذلك في الله وفي رسول الله — ﷺ — .
وايم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله — ﷺ — .
ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك لنبي وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيه عليه .

وانصرف عمر وبقيت أسماء بنت عميس تنتظر رسول الله — ﷺ — فلما جاء قالت :

— يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا .

— فما قلت له ؟

— قلت له كذا وكذا .

— ليس بأحق منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

وذاع خبر ذلك الحديث فكان أبو موسى وأصحاب السفينة يأتون أسماء بنت

عميس أرسلوا يسألونها عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي — ﷺ .

وتوجت شفتي أنى موسى بسمه رقيقة وراح بحرى وراء أفكاره ، إنه يذكر ما قاله رسول الله — ﷺ — ليلة أن نزلوا المدينة ، قال صدوات الله وسلامه عليه : — إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أرمز لهم حين نزلوا بالنهار .

وبعث — ﷺ — جرير بن عبد الله السحلي إلى تخريب ذى الخلصة ، إنه قدم على رسول الله — ﷺ — سنة عشر من الهجرة في شهر رمضان فبايعه وأسلم ، وكان جرير صبيح الوجه جميلا وقد قال — ﷺ — لما رآه : — كأن على وجهه مسح ملك .

وكان عمر بن الخطاب يقول :

— جرير يوسف هذه الأمة .

وكان طوالا وقد بعثه — ﷺ — ليهدم صنم قومه ، فانطلق جرير والأفكار تشال على رأسه . إنه يرى ما كان مه في الحاهلية يوم نافر خالد بن أرطاة الكلبي ، إن كلبا أصابت رجلا من بحيلة يقال له ملك بن عتبة من بى عادية فوافوا به عكاظ ، فمر العادى باهن عم له يقال له القاسم يأكل تمرا ، فتناول من ذلك التمر ليتحرم به فحذنه الكلبي فقال له القاسم :

— إنه رجل من عشيرتى .

— لو كانت له عشيرة منعتة .

فانطلق القاسم إلى بى عمه بى زيد بن الغوث ليستعين بهم على بى كلب فقالوا :

— نحن منقطعون في العرب وليست لنا جماعة نقوى بها .

فانطلق إلى آخر يستعين بهم فقالوا :

— كلما طارت ورقة من بنى زيد في أيدي العرب أردنا أن ننبعها ؟!

فانطلق عند ذلك إلى جرير فكلمه والدهش في عينيه ، فذاك كان أول يوم يرى فيه القاسم الثياب المصنفة والقباب الحمر . كان جرير سيد بني مالك بن سعد بن ريد بن قسر وهم بنو أبيه ، فدعاهم في انتراع العادي من كلب فتبعوه فحرح يمشي بهم حتى هجم على مارل كلب بعكاظ فانترع معهم مالك بن عتبة العادي وقامت كلب دونه ، فقال جرير :

— زعمتم أن قومه يمنعونه .

— إن رجالنا خلوف .

— لو كانوا لم يدفعوا عنكم شيئا .

— كأنك تستطيل على قضاة ، إن شئت قايسناكم المحدث .

ثم قال رعيم قضاة خالد بن أرطاة بن خشين بن شبت :

— ميعادنا من قابل سوق عكاظ .

فجمعت كلب وجمعت قسر ووافوا عكاظا من قابل وصاحب أمر كلب خالد بن أرطاة ، فحكموا الأفرع بن حابس وكان عالم العرب في زمانه ووصعوا الرهون على يد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس من أشراف قريش ، وكان في الرهن من قشر الأصرم بن عوف ، ومن بني ريد الغوث بن أمار ، ثم قام خالد بن أرطاة فقال لجرير :

— ما تجعل ؟

— الحظر (الرهان) في يدك .

— ألفت ناقة حمراء في ألفت ناقة حمراء .

فقال جرير :

— ألف قينة عذراء في ألف قينة عذراء ، وإن شئت فألف أوقية صفراء لألف أوقية صفراء .

— من لى بالوفاء ؟

— كميلك اللات والعزى وإساف ونائلة ويعوق ودو الخليفة وسر . فمن

عليك بالوفاء ؟

— ود ومناة وفلس ورضا .

موضعوا الرهن من بحيلة ومن كلب على أيدي عتبة بن ربيعة ، فقال الأقرع :

— ما عندك يا خالد ؟

فقال خالد في فخر :

— نزل الرياح ، ويطعن بالرمح ، ونحن فتيان الصباح .

فقال الأقرع :

— ما عندك يا جرير ؟

— نحن أهل الذهب الأصفر والأحمر المعتصر . نحيف ولا نحاف . ونطعم ولا

نستطعم ، ونحن حى لقاح ، نطعم ما هبت الرياح ، نطعم الشهر ، ونضمن

الدهر ، ونحن الملوك لقسر .

أيام مضت بمجالتها . إن عتبة بن ربيعة قتل يوم بدر وبات بالقلب وقد ذهب

عنه كل مجد ، والأقرع بن حابس عالم العرب في زمانه قد شرح الله صدره

للإسلام لا فضل له على أحد إلا بالتقوى ، واللات والعزى وإساف ونائلة

ويعوق وسر ود ومناة وفلس ورضا قد تحطمت ، وإبه لذهب لتعطيم دى

الخليفة فقد جاء الحق ورهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وانتهى جرير من تقويض دى الخليفة فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى ذى

الكلاع . إنه مشرح الصدر راضى النفس ، فى صحبة رسول الله — ﷺ — مد
أسلم ، ولا رآه إلا تبسم ، ولا غرو فرسول الله — ﷺ — يقول :
— ابتسامتك لصاحبك صدقة .

وبعث رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب إلى اليمن وعقد له لواء وعمه
بيده وقال :

— امض لا تلتفت ، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقتاتلوك .
وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال :
— إن انتقيتم فالأمير على بن أبى طالب .

فخرج على فى ثلاثمائة فارس وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد وهى
بلاد مدحج ، ففرق أصحابه فأتوا بهب وغائم وساء وأطقال ونعم وشاء ،
وجعل على الغائم بريدة بن الحصيب الأسلمى فجمع إليه ما أصابوا ، ثم لقى
جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورما بالسل ، ثم حمل عليهم على كرم الله وجهه
وأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا فتمرقوا واسهروا ، فكف عن طلبهم ثم دعاهم
إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا ، وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا :
— نحن على من وراءنا من قومنا ، من قوما ، وهذه صدقاتنا فجد منها حق الله .

وأسلمت همدان كلها فى يوم واحد ، فكتب على بذلك إلى رسول الله —
ﷺ — فلما قرأ كتابه حر ساجدا ثم جلس فقال :
— السلام على همدان السلام على همدان .

كان الظلام يحيم على المدينة ولم يكن في السماء نجم يتلأل ولكن الدور كانت كحلايا النحل الرجال والنساء والولدان يرتلون القرآن في هجعة الليل وقد أصابت قلوبهم بأنوار اليقين ، ورسول الله ﷺ — يصلي في جوف الليل فهو أشد الناس خشية وخوفا من الله ، وصلى ما شاء الله أن يصلي ثم أتى — ﷺ — عائشة فدخل معها في لحافها وقلبه مشغول بربه ، فقال لبست الصديق :

— ذريني أتعبد لربي .

مقام — ﷺ — فتروصاً ثم قام فصلى فبكى حتى سال دمه على صدره ، ثم رجع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاءه بلال فأذنه بالصلاة فقالت عائشة :

— يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

— أفلا أكون عدا شكورا ؟ ولم لا أفعل وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة .

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار . الذين يذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما حلقت هدا باطلا سبحانهك فقعا عذاب النار ﴾ (١) . أواه من عذاب الله قبل أن لا ينفع أواه .

وكان رسول الله ﷺ — يعمل عمل البيت وأكثر ما كان يعمل الخياطة ،

ما يرى فار عاقط في بيته إما يخلص نعلًا لرجل مسكين أو يخطط ثوبًا لأرملة وإياه لم يذق طعامًا منذ يومين ، وكانت عائشة ترقى له من الجوع وتقول :

— نفسي لك الفداء ، لو تلفت من الدنيا بقدر ما يقولك ويمسح عليك الجوع !
فيقول عليه السلام :

— يا عائشة إن إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا فمصوا على حائهم فقدموا على ربهم فأكرمهم وأجزل ثوابهم ، أحشى إن ترفعت في معيشتي أن يقصرني دونهم ، فأصبر أيامًا يسيرة أحب إلي من أن يقصر حتى غدا في الأخرى ، وما من شيء أحب إلي من اللحوق بإخواني . يا عائشة إن الدنيا لا تنبغي لحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر وقال : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . والله لأصبرن جهدي ولا قوة إلا بالله .

ودخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ — عبادة مثنية . فاطلقت فبعثت إليه بفراش حشوه صوف ، فدخل — صلوات الله وسلامه عليه — على عائشة فقال :

— ما هذا ؟

— يا رسول الله فلاة الأنصارية دخلت على فرأت فراشك ، فذهمت فبعثت هذا .

— رديه .

فلم ترده وأعجبها أن يكون في بيتها حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فقال :

— والله يا عائشة لو شئت لأجرى الله على جبال الذهب والفضة .

وخرج — ﷺ — ليصلي بالناس فإذا برجل من العرب يرنو إليه في حب شديد . إن الرجل زحم رسول الله — ﷺ — يوم حين وفي رجله نعل كثيفة

فوطىء بها على رجل رسول الله ﷺ — فبعجه عليه السلام بعجة بسوط في يده وقال :

— بسم الله أوجعتنى .

فبات الرجل لنفسه لائما يقول أوجعت رسول الله ﷺ ، فلما أصبح إذا رجل يقول أين فلان ؟ فانطلق الرجل وهو متحوف فقال له النبي ﷺ : — إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس فأوجعتنى فبعجتك بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها .

كان يمر هلال ثم هلال لا يوقد في بيت من بيوت رسول الله ﷺ — نار لا تحبز ولا لطبخ . كانوا يعيشون بالأسودين الماء والتمر ، وكان — يعطى ثمانين نعجة لأنه بعج بالسوط رجلا ووطىء قدمه . إنه كان يحرم نفسه وأهله للتأسي به أمته ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وكان لسي — مهابة — فكان يسط الناس بالدعاية يضحك مما يضحكون . وكان يحب نعيمان وكان رجلا مضحكا مراحا ، فقد جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ — فدخل المسجد فأناخ راحلته بفنائها ، فقال بعض الصحابة لنعيمان :

— لو نحررتا فأكلناها فإما قد اشتقا إلى اللحم ويقرم النبي ﷺ — حقها . فحرها نعيمان . فخرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح :

— واعقرا يا محمد .

فحرح السي — فقال :

— من فعل هذا ؟

— نعيمان .

فأتبعه السي — يسأل عنه فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن

عبد المطلب قد احتفى في خندق وجعل عليه الحريد ، فأشار إليه رجل ورفع
صوته :

— ما رأيته يا رسول الله .

وأشار بأصبعه حيث هو فأخرجه رسول الله ﷺ — وقد تغفر وجهه
بالتراب ، فقال — ﷺ :

— ما حملك على ما صنعت ؟

— الذين دلوك على يا رسول الله هم الذين أمروني .

فجعل رسول الله ﷺ — يمسح عن وجهه التراب ويضحك ، ثم غرم
— ﷺ — ثمنها .

وكان نعيمان إذا دخل المدينة طرفه اشتراها في ذمته ثم جاءها إلى النبي عليه
الصلاة والسلام ويقول :

— يا رسول الله هذه هدية .

فإذا جاء صاحبها يطلب ثمنها جاء به إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال له :

— أعط هذا ثمن ما جئت به إليك .

— أو لم تهد ذلك لي ؟

— يا رسول الله لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن يكون لك .

فيضحك النبي — ﷺ — ويأمر لصاحبه بشمه .

وقصيت الصلاة فالتف المسلمون حول النبي — ﷺ . كان المسجد

جامعهم وكان — صلوات الله وسلامه عليه — معلمهم الأكبر الذي لا ينضب

علمه ، ولا جرم فعلمه من لدن العليم الحكيم . فراح عليه السلام يقول :

— قال الله تبارك وتعالى : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما

كان منك ولا أبالي . يا بن آدم لو بلغت ذنوبك عان السماء ثم استغفرتني غفرت

لك ولا أبالي . يا بن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة .

وقال عليه السلام :

— البادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله ، وإنما الأعمال بخواتيمها . والليل والنهار مطيقتان ، فأحسنوا السير عليها إلى الآخرة واحذروا التسويف ، فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يعترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شرك نعله .

ثم قرأ رسول الله ﷺ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (١) .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان يصغون إلى رسول الله ﷺ — وكان المسلمون يعرفون مكانتهم في الإسلام فرسول الله ﷺ — قال :

— أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشد هم في أمر الله عمر ، وأشد هم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلل والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم ريد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ؛ ولكل قوم أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر ، أشبه عيسى في ورعه .

وقام الناس إلى الأسواق لما ارتفعت الشمس ، ودخل رسول الله ﷺ — داره ، فجاءت إليه امرأة فقالت :

— يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبك الله على الرجال فإن
يصيبوا أحرؤا وإن قتلوا كالبوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم
عليهم فما لنا في ذلك ؟

— أبعى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك ،
وقليل منكن من يفعله .

وخرج رسول الله ﷺ — يمشي مع أبي ذر الغفاري ، فقال له فيما قال .
— إنكم ستفتحون مصر ، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

جاء البراء بن أنس زوج أم بردة خولة بنت المذر مر ضعة إبراهيم إلى مسجد رسول الله باسر الوجه ثقيل الخطو تكاد نفسه أن تذهب شعاعا ، يتلفت دون أن تستقر عيناه على شيء ، يحس كأنما يحمل أثقال الدنيا ، فعلى لسانه يتراقص حر مفعج أليم ، حبر يود أن لو قدره قد أعفاه من حمله .

ورأى بعينين زائعتين رسول الله ﷺ — جالسا عند المحراب وعنده عدد الرحمن بن عوف ، فاشتد وجيب قلبه واضطربت أنفاسه وشحب لونه وتقدم يترنح من الألم حتى إذا ما بلغ رسول الله ﷺ — استمسك حتى لا ينهار ، ثم قال في صوت تخنقه العبرات :

— يا رسول الله إبراهيم يموت .

وأجهش الرجل بالبكاء ، وأحس رسول الله ﷺ — أن قلبه يكاد أن يتصدع أسى على ابنه الحبيب ، وبرل بصدرة حرن عميق فلم يستطع أن يقوم ، فاعتمد على يد عبد الرحمن بن عوف حتى نهض ، ثم انطلق معتمدا على يد صديقه من شدة ما به من الألم .

وجاء إلى فاطمة الزهراء بأاحتضار أخيها وأن أباه — قد ذهب إلى بى مارن فأحست ناراً تتلظى في أحشائها وغصة في حلقها ، إبراهيم كان سلوى أبيها وعزاءه عن الأحبة الديق دسهم في التراب : رينب ورقية وأم كلثوم . إنها فاجعة تنقص الطهر وتمزق بياط القلب وتشعل الوجدان بمران الأحزان . وراحت تعدو وتروح في الدار وهي فريسة الآلام والأفكار ، فعلى بن أبى

طالب هياك في النيس وليس معها إلا الخس والحسين وريب وأم كلثوم . وهي تريد أن تبعث إلى أبي بكر وعمر وصحابة أبيها ليحففوا عنه لوعة المصاب ، ورأت أنس بن مالك فنادته وأخبرته الخبر واتمست منه أن يبلغ الرجال ، فإذا أسامة بن زيد يهدو إلى مشربة أم إبراهيم ، وإذا بالفضل بن العباس يوسع من خطوه ليلحق بابن عمه ، وإذا بأبي بكر وعمر وكبار الصحابة يشتدون إلى العالية وفي قلوبهم حزن وفي حلوقهم عصاة وقد لادوا بالصمت وكان صمتا أفصح من البيان ، فالأسي الذي ارتسم على الوجوه كان يعكس ما يعتمل في صدورهم من ألم وما يمور في نفوسهم من أحرار .

وبلغ سيرين أخت مارية وروج حسان بن ثابت أن ابن أختها يجود بأنفاسه فلمها خوف واستولى عليها ذهول ، حتى إذا ما استبان لعقلها هول الفاجعة بدت عنها صرحة عبرت عما تكاند من آلام ، ثم راحت تهرول إلى دار أختها وبين ضلوعها نار .

ولحق أنس بن مالك برسول الله ﷺ — وعبدالرحمن بن عوف والبراء بن أنس وهم يقتربون من دار البراء ، وكان إلى جوار الدار حداد ينفخ الكور فيملا المكان بالدخان ، فتقدم أنس وهو يقول : رسول الله .. رسول الله .

ودخل رسول الله ﷺ — على أم بردة فإذا الحجر قد امتلأت بدخان الحداد ، وإذا بأُم بردة قد وضعت إبراهيم في حجرها . فقال رسول الله ﷺ — على فلذة كبد ونظر في وجهه فألعاه دايلا ذبول الموت ، فزل به حزن لو برل على جبل لتصدع ، ثم قبله قبله أو دعها حبه وذوب نفس والهة حرية لا تملك إلا الامثال لأمر الله .

وحرجت أم بردة تحمل إبراهيم وخلفها رسول الله ﷺ — فمد إليه عبد الرحمن يده فاعتمد عليها ، وسار الركب الحزين إلى مشربة أم إبراهيم وأنس

والبراء وعبد الرحمن بن عوف يغالبون دموعهم حتى لا يزيدوا أحزان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

ودخلت أم بردة على مارية فهرعت إليها ملهوفة وأخذته منها وقلبا يرف كجناح حمامة بين ضلوعها ، ونظرت في وجهه فإذا بها تنوء بآلامها تكاد أن تموت كمدا ، فابتها بين ذراعها بموت . وأى ابن ؟ إنه من رسول رب العالمين ، من الطاهر الأمين ، الأمل الحلو المرجو الذي أحال حياتها إلى فردوس طوال الستين اللتين عاشهما في دارها .

ووضعه في حجرها ، وجاءت سيرين تمد إليه عيبيها ولكنها لم تقو على أن ترى الزهرة ذابلة فأشاحت بوجهها تسح دموعها ، واستمرت مارية ترنو إلى نور حياتها وهو يخو فسفحت الدمع السحين . وأحس رسول الله — ﷺ — ما تعاني مارية من عذاب أليم فما بها بعض ما به ، فأخذه — ﷺ — ووضعه في حجره .

وراح إبراهيم ينتقط أنعاسا واهية ثم حشرح حشرة الموت ، فتأججت النيران في صدر رسول الله — ﷺ — وغص حلقه واعرورقت عيابه بالدمع ، ثم قال :

— يا إبراهيم ، إنا لن نغني عنك من الله شيئا .

وفاضت الروح الطاهرة فذرفت عينا الرسول ، وصاحت مارية وسيرين بهما — ﷺ — عن الصباح ، ثم التفت إلى إبراهيم المسحى في حجره وقال : — إنا بك يا إبراهيم لمحرونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب . ولولا أنه وعد صادق وموعود جامع فإن الآخر منا يتبع الأول ، وجدنا عليك يا إبراهيم وجدا شديدا ما وجدناه .

وحرج — ﷺ — على أصحابه منكس الرأس يذرف الدمع ، فهرع إليه أبو

بكر وعمر وقال له :

— أنت أحق من علم الله حقه .

— تدمع العين .

وقال له عبد الرحمن بن عوف :

— أولم تكن نهييت عن البكاء ؟

— لا . ولكن نهييت عن صوتين أحققين آخرين . صوت عدم مصيبة وخمش

وجوه وشق جيوب ورة شيطان . وصوت عند نعمة لهو ، وهذه رحمة . من

لا يرحم لا يرحم .

وصرخ أسامة بن زيد فيها رسول الله ﷺ — فقال له :

— رأيتك تبكى .

— البكاء من الرحمة ، والصراخ من الشيطان .

إنه — ﷺ — يحذق كده جمره لا يطفئها إلا عرة ، فسكها ، ولم يتحرك

لسانه بما يسخط الرب . وإن مارية تفيض عينها من الدمع حزبا على إبراهيم ،

وقد استولى عليها جزع فلا جرم فسراج حياتها قد انطفأ ، وحلم يقظتها ومنامها

قد أصبح سرايا . كانت ترجو أن يكون إبراهيم للعرب كما كان إسماعيل ، وأن

تصبح أما للعرب كما صارت هاجر المصرية أما لهم . ولكن الزكى الطاهر ابن

النبي المصطفى قد مات .

مات أيا لها من كلمة موحشة تحلل بالسواد وجدانها وتقوص كل الآمال

والآمال ، وأجهشت مارية بالبكاء حتى كادت كبدها تنفطر وروحها تفر من

ذلك الآتون الذى تلتطى بين الصلوع . وانكلمات سيرين على أختها تصمها إليها

لتحصف عنها وقع المصاب والدمع مسفوح والقلب مجروح ، والصوت قد

حبس خشية عصب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

ولم تذهب الدموع بلوعة مارية ، ولم تحفف وطأة الأسى عن رسول الله ﷺ — فإن إبراهيم لما مات كان — ﷺ — مستقلا للحبل فقال :
 — يا جيل لو كان بك مثل ما نى لهدك ، ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون .
 وراح الفضل بن العباس يغسل إبراهيم وقد ساد الصمت الحزين ، حتى إذا ما
 خرج الناس به مادت الأرض تحت قدمي مارية فانهارت تكى وتنتحب . ولولا
 امتثالها لأمر رسول الله ﷺ — لصرخت وخمشت وجهها وشقت جيبها ؛
 فقد خرج بلا عودة من كان وجودها في وجوده ومكانتها مستمدة من مكاته
 وعزها من عزه ، ولا عرو فلم يكن ابها وحسب ولكنه كان ابنها وابن رسول الله
 الذي بعثه ربه رحمة للعباد .

وسارت الحنارة إلى البقيع ، رسول الله ﷺ — بين أنى بكر وعمر ،
 والناس يذرفون الدمع حرناء على حزن سى الإسلام عليه السلام ، وما أكثر ما قطع
 رسول الله عليه السلام ذلك الطريق ، فما من حنارة خرجت من المدينة إلا خرج
 فيها عليه الصلاة والسلام ، وإن حازرات بياته رقية وزينب وأم كلثوم لتعود إلى
 ذاكرته لتريد في آلام حليف الأحزان . وطافت بدهنه حيازة خديجة أم المؤمنين
 وحاصنة الإسلام ؛ إنه ليذكر ذلك اليوم الذي قبرها هناك في مكة إلى جوار ولديه
 القاسم وعبد الله . كان يوما فاجعا مثل ذلك اليوم الذي يقبر فيه آخر أولاده
 الذكور الذي اكتحلت به رمنا يسرا عياها .

وبلغ الجنان الطاهر البقيع فصلى رسول الله ﷺ — على قلعة الغوادر وكبر
 أربعاً ، ثم نزل في قبره هو وأسماء بن زيد . وجلس رسول الله ﷺ — على شفير القبر ثم
 قال :

— لحق بسلفنا الصالح وعثمان بن مظعون .

وكسفت الشمس فقال قائل :

— كسفت لموت إبراهيم .

كان رسول الله — ﷺ — صادقا مع ربه صادقا مع نفسه ومع المؤمنين ، فلم يمنعه حزنه من أن يحتج على ذلك القول الذى يحاق الحقيقة . فقال — ﷺ :
— إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا ينكسفان لموت أحد .
وسوى التراب فرش عليه السلام على القبر ماء وعلم عليه بعلامة ، ووقف يلقي ولده الحبيب في صوت حزين قال :

— يا بى إن القلب يعزن ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسحط الرب . إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بى قل الله ربي ، والإسلام ديني ، ورسول الله أنى .
وبكت الصحابة ومنهم عمر بكى حتى ارتفع صوته ، فالتفت إليه السى — ﷺ — فقال :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— يا رسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ، ويحتاج إلى تلقين مثلك يلقيه التوحيد في مثل هذا الوقت ، فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك .

وبكى النبي — ﷺ — وبكت الصحابة معه ، ونزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (١) . فتلا النبي — ﷺ — الآية قطابت الأنفس وسكنت القلوب وشكروا الله .

وقفل الناس راجعين بعد أن قبروا إبراهيم ، وقال — ﷺ :
— لو عاش مارق له خال .

لوضعت الجزية عن كل قطي ، وإن الحسن بن علي كلم معاوية في أيام خلافته
في أن يضع الخراج عن أهل بلدة مارية ، وهي حفنة من أنصتا في صعيد مصر ،
ففعل معاوية ذلك رعاية لحرمتهم . ولو عاش إبراهيم لكان فتنة . فسلام على
إبراهيم وسلام على أنى إبراهيم — صلوات الله وسلامه عليه .

كانت قوافل التجارة تخرج من مكة والطائف والمدينة ، وكان بعض الذين
يجبون أن يكون لهم نصيب في التجارة ولا مال عندهم يقترضون من الموسرين ،
وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء مكة فكان يقرض الناس على أن يأخذوا
يقدره على القرض كل شهر ، فإذا كان القرض لعام فعلى المدين أن يسدد القرص
كله كاملا في نهاية العام دون أن يقتطع منه ما كان العباس يتقاصاه كل شهر . فإذا
كان المدين معسرا وطلب تحديد عقد القرض سنة أخرى فعلى المدين أن يدفع في
نهاية السنة التالية ضعف القرض وأن يستمر في دفع الفوائد الشهرية المتفق عليها ،
فإذا لم يتمكن المدين من سداد الدين الجديد في نهاية السنة الثالثة فعليه أن يدفع
ضعف المبلغ الذي بلغه القرص في نهاية السنة الثانية إذا أراد أن يؤجل الدين سنة
أخرى .

وما كان العباس وحده الذي يقرض الناس بالربا . فخالدين الوليد وأثرياء
بني مخزوم وسادات الطائف وسادات يثرب الأغنياء كانوا يعيشون على الربا ، بل
إن بعض متوسطي الحال كانوا إذا اقترضوا مقترضا ناقة عمرها عامان ، فإذا طلب
مهلة ثانية فعليه أن يعيد ناقة تجاوزت عامها الثالث ولكنها لم تبلغ الرابع بعد .
وكانت القاعدة دائما تطبق على الذهب والفضة ، فإذا اقترض المدين مائة
دينار فعليه أن يدفع في العام الثاني إذا طلب مد الأجل مائتي دينار ، وإذا عاجز عن
الوفاء وطلب مهلة سنة أخرى فعليه أن يدفع في نهاية السنة الثالثة أربع مائة دينار ،
وهكذا إلى أن يسدد المدين دينه كاملا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴿١﴾ .
 وهاجر خالد بن الوليد إلى المدينة وكان له أموال عظيمة في الربا ، فلما نزلت
 آية تحريم التعامل بالفوائد المركبة راح هو والمسلمون يقرضون الناس بفوائد
 بسيطة ، فكان العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان يقرضون الناس وكانا قد
 أسلفا في التمر ، فلما حضر الحصاد قال لهما صاحب التمر :
 — لا يبقى لي ما يكفي عيالي إذا أتتا أخذتما حظكما كله ، فهل لكما أن تأخذا
 النصف وأضعف لكما ؟
 ففعلا .

إن ابتزاز الأغنياء أموال الفقراء لا يتفق مع المجتمع الجديد الذي يكونه
 الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ونجدة الملهوف ، وإن السماح بوجود طبقة
 غنية لا عمل لها إلا إقراض الناس مال الله الذي آتاهم سيكون طبقة من العاطلين
 لا عمل لهم ، مع أن الإسلام يقدر العمل حتى جعله عبادة ، وإنه يبارك الكسب
 الحلال دون عبادة المال أو تأليه المادة .

إن الربا من الخبائث فهو يقتلع جذور الروح الإنسانية ويحرك في النفوس
 الطمع ؛ وما جاء الإسلام إلا للقضاء على الحشع واستئناس الوحش الرابض في
 صدر الإنسان ، وتقوية الروابط بين الطبقات الاجتماعية وعدم إثارة أسباب
 الصراع بينها ، فإن سمح الإسلام بالربا فلنكأ ما قد ضم الحيات التي ستقضى عليه
 إلى صدره ، ولكن الإسلام ما دام يقصد الاستجمام التام بين طمع الفرد وسلامة
 الجماعة فما كان أمامه إلا أن يحرم الربا الذي يقوض الروابط الاجتماعية الإنسانية
 من أساسها .

إن السماح بالربا ليس له من هدف سوى تكوين رأسمالية مستغلة بغيضة تشيع الفوضى الاجتماعية لتحقيق مآربها من استيلاء على السلطة وتسلط على المجتمع لتحقيق مطامعها . فالإسلام بتحريمه الربا إنما يحكم في أنانية المومنين التي لا ترحم ، وفي جوعهم الدائم للذهب الذي يفسد القلوب ويدنس طهارتها ويهبط الكرامة الإنسانية .

كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله . فكيف يسمح لشخص أن يترشح حصصاً آخر لمجرد أن عنده مالا يفيض عن حاجته ؟ وأين التكافل في مجتمع تستغل فيه فئة قليلة بيدها مال الله فئة كثيرة في حاجة إلى ذلك المال ؟ إن هدف الإسلام بناء جماعة متوارية متحابية قد برئت من أمراض القلوب والأنانية ، جماعة ببيئة تحيا حياة مادية روحية ، تعبد الله وتسعى في مناكب الأرض ، تغذى الروح بغذاء الروح وتعذى الحسد بالطيبات الحلال ، تحب للأغيار ما تحب لنفسها ، وتشارك مكارم الأخلاق وتطلق في طريق الخير شاكراً لأنعم الله ، سعيدة بما تقدم للآخرين من خير . « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، فما دام هذا بعض أهداف الإسلام ، فلا مكان للربا والاستغلال ولا للبغص والحقد والصراع بين الطبقات .

وحرم الإسلام الربا وارتسمت على بعض الوجوه دهشة ، وقال أناس :
— إنما البيع مثل الربا .

وفتح الله على رسوله ﷺ مكة فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّقِهَا فَلَهُ مَا سَلَفَ

وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم ﴿١﴾ .

وحاصر — ﷺ — الطائف ولم يفتحها ، ثم رفع الحصار عنها وعاد إلى مكة واستعمل عليها عتاب بن أسيد بن أبي العيص ورزقه كل يوم درهما ، فقام فحطب الناس فقال :

— أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ — درهما كل يوم ، فليست بي حاجة إلى أحد .

ووفد على رسول الله — ﷺ — في رمضان وفد ثقيف فأعلنوا إسلامهم ، ثم أسلمت ثقيف كلها وكان سادات ثقيف مسعود بن عبد ياليل وحبيب وعمرو ابن عمر الثقفي ، وكانوا يقرضون بني المغيرة أموالا بربا الجاهلية ، فلما أسلموا شدوا الرحال إلى مكة وطالبوا بني المغيرة بأصل الدين والربا ، فرفض بنو المغيرة السداد لأن الإسلام حرم الربا .

ونشب خلاف بين بني ثقيف وبين بني المغيرة فاحتصموا إلى عتاب بن أسيد ، وأبرز بنو ثقيف ما كان في حوزتهم من عقود فكتب عتاب بن أسيد بالراع إلى رسول الله — ﷺ — فراح رسول الله — ﷺ — يتدبر الأمر ، وفيما هو في تفكيره إذ أوحى إليه : « يا أيها الدين آمنوا اتقوا الله ودرؤا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رعوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ﴿٢﴾ .

وبنح بني ثقيف ما أنزل الله في الربا فقالوا لبني المغيرة :
— هاتوا رعوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم .

— نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن نلذك الثمرة .
ورفع الأمر مرة أخرى إلى رسول الله — ﷺ — لو كان ذلك في الجاهلية
لكان على بني المغيرة أن يدفعوا ضعف الدين إذا أمهلوا سنة ، ولكن ذلك كان في
الإسلام في دين الإنسانية دين الرحمة ، فأوحى الله إلى رسوله — ﷺ — : « وإن
كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون » (١) .

كان أهل الجاهلية يؤخرون الحج في كل عام أحد عشر يوما، فكان لا يعود إلى وقته إلا بعد ثلاث وثلاثين سنة، وجاءت سنة عشر من الهجرة وكان الزمان قد استدار فعاد الحج إلى وقته الصحيح، فلما دخل على رسول الله ﷺ — ذو القعدة، تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له.

إنه — ﷺ — كان يحج أيام أن كان في مكة، وكان قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة محالفا لقريش توفيقا له من الله، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم فإنهم قالوا غرورا:

— نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم وولاية البيت وعما كفرو مكة، فليس لأحد من العرب منزلتنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الخمس.

وطاف — ﷺ — ليلة خروجه للحج على نسائه، ثم اغتسل ثم صلى الصبح والظهر، ثم طيبته عائشة بطيب فيه مسك، ثم اعتسل لإحرامه وصلى ركعتين، ثم أحرم في رداء وإزار، واستعمل على المدينة أبا دجاجة الساعدي، ووضعت أمهات المؤمنين في هواجهن وركب — ﷺ — ناقته القصواء، وكان على راحلته رجل رث يساوي أربعة دراهم.

وأهل — ﷺ — بالحج وسار وسار معه تسعون ألفا من المسلمين لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج، حتى إذا كان بالعقيق وقد ساق رسول الله ﷺ —

الهدى أتاه آت من ربه فقال له :

— صل بهذا الوادى المبارك وقل لبيك بحجة وعمرة معا .

فصار قاربا بعد أن كان مفردا ، وراح يقول :

— لبيك عمرة وحججا .

وولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر الصديق ولدها محمد بن أبى بكر فى ذى الحليفة ، وأرسلت إليه — ﷺ — فأمرها أن تعتسل وأن تستنفر بحرقه عريضة بعد أن تحشو بنحو قطر وتربط طرفى تلك الحرقه فى شئ تشده فى وسطها لتضع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض ، وتحرم .

ودخل رسول الله — ﷺ — على عائشة وهى تبكى ، فقال :

— ما يبكيك يا عائشة ؟ لعلك نفست .

— نعم والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا .

— لا تقولن ، فإنك تقصين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين البيت .

وكان جمل أم المؤمنين عائشة سريع المشى مع خفة حمل عائشة ، وكان جمل أم المؤمنين صفية بطيء المشى مع ثقل حملها فصار يتأخر الركب بسبب ذلك . فأمر

— ﷺ — أن يجعل حمل صفية على حمل عائشة وأن يجعل حمل عائشة على حمل

صفية ، فجاء — ﷺ — لعائشة رضى الله عنها يستعطف خاطرها فقال لها :

— يا أم عبد الله حملك خفيف وجملك سريع المشى ، وحمل صفية ثقيل

وجملها بطيء فأبطأ ذلك بالركب ، فنقلنا حملك على جملها وحملها على جملك

ليسر الركب .

فكانت عائشة فى غيرة :

— إنك تزعم أنك رسول الله .

— أفى شك أنى رسول الله أنت يا أم عبد الله ؟

— فما بالك لا تعدل .

فكان أبو بكر فيه حدة فنطمها على وجهها . فلامه رسول الله ﷺ — فقال أبو بكر :

— أما سمعت ما قالت ؟

— دعها فإن المرأة العيراء لا تعرف أعلى الوادى من أسفله .

ونزلوا بمحل يقال له العرح ، فقد البعير الذى عليه زاملته (زاده) — وزاملة أى بكر ، وكان ذلك البعير مع غلام لائى بكر فقال أبو بكر للغلام : — أين بعيرك ؟

— ضلته البارحة .

فقال أبو بكر وقد اعترته حدة :

— بعير واحد تفضله !

وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله ﷺ — يقول :

— انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع .

ويبتسم ولا يزيد على ذلك ، فكف أبو بكر عن ضرب الغلام والعيظ يحتمل في صدره .

وبلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله ﷺ — ضلت ، فجاء بحبس ووضع بين يديه ، فقال — لائى بكر وهو يقتناظ على الغلام :

— هون عليك يا أبا بكر فإن الأمر ليس لك ولا إلينا ، وقد كان الغلام حريصا على ألا يضل بعيره وهذا غذاء طيب قد جاء الله به .

فأكل — وأبو بكر وأمّهات المؤمنين وأهل الصفة ومن كان يأكل مع النبى — وأبى بكر حتى شبعوا . فأقبل صفوان بن المعطل وكان على ساقاة القوم والبعير معه وعليه الزاد حتى أمانه على باب منزله — فقال رسول

الله ﷺ — لأنى بكر :

— انظر هل تفقد شيئا من متاعك ؟

— ما فقدت شيئا إلا قعبا كما شرب فيه .

فقال الغلام :

— هذا القعب معى .

ولما بلغ سعد بن عبادَةَ وابنه قيس أن زاملته — ﷺ — قد ضلت جاءا بزاملة

وقالا :

— يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت العدة وهذه زاملة مكانها .

— قد جاء الله بزاملتنا ، فارحعا بزاملتكما بارك الله لكما .

ثم نزل بدى طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح وحلعه تسعون ألفا

من الأبرار ثم سار ، فلما استقبل القبلة لى — ﷺ — فقال :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والمنة لك

والملك . لا شريك لك .

والتفت — ﷺ — إلى أصحابه وقال :

— أتانى جبريل عليه السلام فقال : مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية

فإنها من شعائر الحج .

ورجع الكون النداء فامتألت صدور المؤمنين نشوة ورجاء ، وترقرقت

الأعين بالدموع وأشرقت فى الأفقدة أنوار ، فإذا بالأسنة تلبى فى حماس خلف

رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— لبيك إله الخلق لبيك . لبيك حقا . تعبدا ورقا .

وسار المسلمون فى ملابس الإحرام لافرق بين غنى وفقير ولا سيد ومسود ،

كلهم فى الإزار مثلما يوم يبعثون . ونزل — ﷺ — بالمسلمين طاهر مكة ،

ودخل مكة نهارا والوقت ضحى من ثنية كداء وهى التى ينزل منها إلى المعلاة مقرة مكة حيث ترقد خديجة أم المؤمنين ، الطاهرة سيدة نساء قريش وحاضنة الإسلام . إنه ليذكرها بالحجر ، وما من امرأة من نساء استطاعت أن تنسيه أيام خديجة النابضة بالكفاح والأمل والحب .

ودخل — ﷺ — المسجد الحرام من باب عبد مناف باب السلام ، فلما أبصر البيت قال :

— اللهم أنت السلام ومنك السلام ، فحينئذ ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة وبراً ، وزد من شرفه وكرمه ممن حججه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً .

وتقدم — ﷺ — فى حشوع قبدأ بالحجر الأسود فاستلمه وفاضت عيابه بالبكاء ، ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، فلما فرغ — ﷺ — قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه .

ورأى — ﷺ — عمر بن الخطاب يزاحم لتقيل الحجر الأسود أسوة برسول الله — ﷺ — فقال له :

— إنك رجل قوى لا تزاحم على الحجر تؤذى الضعيف ، إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فاستقبله وهلل وكبر .

وراح عمر يفعل ما فعل رسول الله — ﷺ — قال عندما استلم الحجر الأسود :

— بسم الله والله أكبر .

وقال عندما كان بين الركن اليماني والحجر كما قال — ﷺ :

— ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار .

ولم يستلم الركنين المقابلين للحجر ، فرسول الله — ﷺ — لم يستلمهما

لأنهما ليسا على قواعد جده إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام .
 وصلى النبي — ﷺ — بعد الطواف ركعتين عند مقام إبراهيم وجعل المقام
 بينه وبين الكعبة ، قرأ فيهما مع أم القرآن : قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد .
 ودخل — ﷺ — زمزم فرع له دلو فشرب منه ، ثم رجع — ﷺ — إلى الحجر
 الأسود فاستلمه ، ثم اطلق إلى الصفا .

كان الأنصار في الحاحلية يهلون لمناة ، وكان من أحرم بمائة لا يطوف بين الصفا
 والمروة . وإسهم سألوا رسول الله — ﷺ — عن ذلك حين أسلموا فأنزل الله
 تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه
 أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ (١) .
 وارتقى — ﷺ — الصفا وقرأ :

— إن الصفا والمروة من شعائر الله . ابدعوا بما بدأ الله به .
 فسعى بين الصفا والمروة يمشى فكثر عليه الناس يقولون :
 — هذا محمد .. هذا محمد .

حتى خرجت النسوة من البيوت . وكان رسول الله — ﷺ — لا يضرب
 الناس بين يديه ، فلما كثر عليه الناس ركب وصار في السعى يخب ثلاثا ويمشي
 أربعاً ويرقى الصفا ويستقبل الكعبة ويوحى الله ويكبره ويقول :
 — لا إله إلا الله . الله أكبر . لا إله إلا الله وحده ، أنحر وعده ، ونصر عبده ،
 وهزم الأحزاب وحده .

ويرقى المروة ثم يفعل على المروة مثل ما فعل على الصفا ، فلما انتهى من السعى
 والخلق ، أمر — ﷺ — من لا هدى معه بالإحلال ؛ ولم يكن ساق الهدى معه من

أصحابه إلا طلحة بن عبد الله وأبو بكر وعمر والزبير ، وأمر من معه الهدى أن يبقى على إحرامه .

وصاق جمع من الصحابة هذا الأمر فقد أهلوا بالحج فكيف يجعلونها عمرة ، فدخل — ﷺ — على عائشة وهو غضبان ، فقالت : — من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار .

— أو ما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون .
كان يريد أن يخفف على أصحابه ، فالإحرام بالحج أشق عليهم لأن المتمتع بالعمرة يحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب ولبس المخيط ، ويبقى كذلك إلى يوم التروية الذي هو اليوم الثامن من ذي الحجة فيحرم بالحج ، وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه بالماء ويحملونه معهم في دهاهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها .

وخرج — ﷺ — إلى الناس فقام خطيبا فحمد الله تعالى فقال : — أما بعد ، فتعلمون أيها الناس لأنا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت هديا ولأحللت .

— كيف نجعلها عمرة وقد سمينا الحج ؟
— اقبلوا ما أمرتكم به واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة ، فلو لأني سقت الهدى لفعلت مثل الذي أمرتكم به .

وكان رسول الله — ﷺ — بعث عليا إلى نجران ، فلما بلغ عليا أن رسول الله — ﷺ — قد خرج للحج خرج إلى مكة ، فدخل على فاطمة الزهراء فوجدها قد حلت وتبأ فقال : —

— ما لك يا بنت رسول الله ؟
— أمرنا رسول الله — ﷺ — أن نحل بعمرة فحللنا .

ثم أتى رسول الله ﷺ — فلما فرغ من الخير عن سفره ، وقال له رسول الله ﷺ : —

— انطلق فطع بالبيت وحل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إني أهلت كما أهلت .

— ارجع فاحلل كما حل أصحابك .

— يا رسول الله إني قلت حين أحرمت : اللهم إني أهل بما أهل به نبيك وعبدك

ورسولك محمد — ﷺ :

— فهل معك من هدى ؟

— لا .

فأشركه رسول الله ﷺ — في هديه ، وثبت على إحرامه مع رسول الله

ﷺ . —

وقدم أبو موسى الأشعري من اليمن ، فقال له — ﷺ :

— بم أهلت ؟

— لبيت بإهلال كإهلال البني — ﷺ —

— هل معك من هدى ؟

— لا .

— فطف بالبيت وبالصفاء والمروة وأحل .

وجور لأبي موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من

الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدى معهم .

ولم يسق أمهات المؤمنين الهدى فأحلن إلا عائشة فإنها لم تحل لأنها

أدخلت الحج على العمرة ، وأحلت فاطمة الزهراء وأسماء بنت أبي بكر ، ووجد

علي أن فاطمة ليست صبيعا واكتحلت فأنكر عليها فقالت :

— أمرني أبي بذلك .

فذهب إلى النسي — عليه السلام — محرشاً له عليها ، فقال — عليه السلام :

— صدقت صدقت صدقت . أنا أمرتها بذلك يا علي .

وسأله سراقه بن مالك الرجل الذي خرج في أثره لما هاجر — عليه السلام —

من مكة إلى المدينة ، فقال :

— يا رسول الله متعتنا هذه لعاما هذا أم للأبد ؟

فشبك — عليه السلام — أصابعه فقال :

— دخلت العمرة في الحج هكذا إلى يوم القيامة .

تعجل علي بن أبي طالب إلى رسول الله — عليه السلام — واستخلف على جمده

الذين معه رجلا من أصحابه ، فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل من القوم حلة

من البز الذي كان مع علي رضي الله عنه ، فلما دنا جيشه حرح ليلقاهم فإذا عليهم

الحلل قال :

— ويلك ! ما هذا ؟

— كسوت القوم ليتجملوا به إذا ما قدموا في الناس .

إن البز كان للمسلمين جميعا ولم يكن للحيش وحدهم ، فقال علي في غضب

لصاحبه الذي خلقه على جنده :

— ويلك انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله — عليه السلام .

فانتزع الحلل من الناس فردها في البز ، وأظهر الحيش شكواه لما صنع بهم ،

فاشتكى الناس عليا ، فقام رسول الله — عليه السلام — في الناس خطيبا ، قال :

— أيها الناس ، لا تشكوا عليا ، فوالله إنه لأخشن في دات الله من أن يُشكى .

ثم نهض رسول الله — عليه السلام — ونهض معه الناس يوم التروية وقد تردوا

بالماء ، وكان اليوم الثامن من ذي الحجة . إلى منى وأحرم بالحج كل من كان

أحل ، فصلى رسول الله ﷺ — الظهر مجنى والعصر والمغرب والعشاء، وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح ، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة ، وأمر — ﷺ — أن تصرب له قبة من شعر بسمرة ، فأتى — ﷺ — عرفة ونزل في تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بإفاته القصواء فرحلت ، ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته ، وأمر ربيعة بن أمية بن خلف أخا صفوان بن أمية وكان صبيئاً أن ينادى بكل ما يقول ، فوقف ربيعة تحت صدر بافته يردد في صوت جهورى ما يقول — ﷺ — ليسمعه الناس الذين ملأوا وادى عرفة

حمد عليه السلام الله وأنسى عليه ، ثم راح يعلن حقوق الإنسان :

— أيها الناس اسمعوا قولى ، هاى لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمه يومكم هذا وكحرمه شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . وإن كل ربا موضوع . ولكن لكم رعو أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أصعب دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب — وكان مسترضعا فى بى ليث فقتلته هذيل — فهو أول من أبداً به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرصكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطمع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس ، إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الرمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب

مضر^(١) الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أحدنوهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بينا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أح للمسلم وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد . أيها الناس ، إن الله قد أدى إلى كل ذى حق حقه ، وإنه لا تجور وصية لو ارث . والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً . اللهم هل بلغت ؟

— اللهم نعم .

— اللهم اشهد .

(١) ورجب مضر : إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجافين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة وأنه الذى بين جمادى وشعبان .

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس لبا في قدح شر به أمام الناس ، فعلموا أنه — ﷺ — لم يكن صائما ذلك اليوم يوم عرفة . وأمر عليه السلام بلالا فأذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئا ، فصلاهما مجموعتين في وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين ، لأنه لم يقيم بمكة إقامة تقطع السفر ، لأنه دخلها في اليوم الرابع وخرج يوم الثامن فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات ، فالجمع للسفر . ثم ركب — ﷺ — راحلته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القلعة ، ولم يزل واقفا للدعاء من الزوال إلى الغروب :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم إلى أعوذ بـك من عذاب القبر ومن وسوسة الشيطان ومن وسوسة الصدر ومن شتات الأمر ومن شر ذي شر .

اللهم بك تسمع كلامي وترى مكاني ، وتعلم سري وعلايتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا النائم الفقير ، المستغيث المستجير ، والوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه . أسألك مسألة المسكين . وأبتهل إليك ابتهال المدنب الدليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريع ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن لي رعوفا رحاما ، يا حمر المستولين ، يا خير المعطين .

وجاءه — ﷺ — جماعة من يجد فسألوه :

— كيف الحج ؟

فأمر مناديا ينادي :

— الحج عرفة . من جاء ليلة جمع (أي المزدلفة) قبل طلوع الفجر فقد أدرك

الحج . أيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه .

وقال — ﷺ :

— وقفت ههنا وعرفة كلها موقف .

كان رسول الله — ﷺ — واقفا على جبل النور ، وخشى أن يتراحم الناس في الحرج على ذلك الحبل فأعلن أن عرفة كلها موقف . ونزل على رسول الله — ﷺ — وهو على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (١) .

فلما قرأها — ﷺ — على الناس بكى عمر ، فقال له النبي — ﷺ :

— ما يبكيك يا عمر ؟

— أبكاني أنا كنا في زيادة . أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص .

— صدقت .

وساد الناس وجوم ، ترى أنزلت هذه الآية لتنعى رسول الله — ﷺ — ؟ ثم أروى رسول الله — ﷺ — أسامة بن زيد خلفه ودفع إلى مزدلفة وهو يأمر الناس بالسكينة في السير ، فلما كان في الطريق عبد الشعب الأبر نزل فيه فتوصلاً وصوعاً حقيقاً ، ثم ركب حتى أتى المزدلفة .

وصل المغرب والعشاء مجموعتين في وقت العشاء بأذان واحد وإقامتين ، ثم اضطجع وأذن للنساء والصبيان أن يرموا ليلاً . فذهبوا من المزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا بحجارة العقبة قبل الزحمة ، فأماضت سودة وأم حبيبة في الصف الأخير من مزدلفة بأذن النبي — ﷺ — وقدم عليه السلام عبد الله بن عباس في ضعفة أهله فقد كان غلاماً ، ولم يأذن — ﷺ — للرجال في ذلك لا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم . وتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

فقام — ﷺ — وصلى بالناس الصبح مغلساً ، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به وهو راكب ناقته واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحده ، ولم يرل واقفا حتى أسفر جدا . ثم إنه — ﷺ — دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس وأردف خلفه الفصل بن العباس ، وجاءته امرأة تسأله فقالت له :

— يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج ، أدركت أبني شيحا كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الرحلة فأحج عنه ؟
— نعم .

فجعل الفضل يظفر إليها وتظفر إليه ، فجعل — ﷺ — يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر فقال العباس :

— يا رسول الله لويت عنق ابن عمك .

— رأيت شابا وشابة فلم آمن عليهما الشيطان .

فلما وصل — ﷺ — إلى وادي محسر وهو أول مبي قال :

— عليكم بحصى الخرف الذي يرمى به الحمرة .

وسلك — ﷺ — الطريق التي تسلك على جمرة العقبة ، فرمى بها من أسفل سبع حصيات وبلال وأسامة أحدهما أخذ بخطام ناقته والآخر يطله ثوبه . وقطع عليه السلام التلبية عند رمي كل حصاة وهو راكب ناقته .

وخطب — ﷺ — بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأعراس ، وذكر حرمة يوم النحر وحرمة مكة على جميع البلاد فقال :

— يا أيها الناس أي يوم هذا ؟

— يوم حرام .

— فأى بلد هذا ؟

— بلد حرام .

— فأى شهر هذا ؟

— شهر حرام .

— فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، في شهركم هذا .
ثم رفع رأسه وقال :

— اللهم هل بلغت ؟ اللهم فاشهد . فليبلغ الشاهد منكم العائب ، لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

ثم انصرف — ﷺ — إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثة وستين بدنة وهي التي قدم بها من المدينة ، لكل سنة بدنة . فقد كان عمره — ﷺ — في ذلك اليوم ثلاثا وستين سنة ، ثم أمر عليا فنحر ما بقي وهو تمام المائة وهو ما أتى به علي من اليمن ، جاء بعده مع جيشه الذي لحق به .
وقال — ﷺ — لعلي :

— اقسام لحومها وجلودها وجلالها بين الناس ولا تعط جزارا منها شيئا ،
وخذ لها من كل بعير جذبة من اللحم واجعلها في قدر واحدة حتى تأكل من لحمها ونحو من مرقها .

إن الزاهد الكريم الذي كان يمر هلال ثم هلال ولا يوقد في دار من دوره نار لطبخ قد نحر مائة بدنة ووزع لحومها على الناس ، إنه عني ولكنه يتعفف ليكون أسوة لأمته ، فليس بالخنز وحده يحيا الناس .

وأخبر — ﷺ — أن مبي كلها منحر ، وأن فجاج مكة كلها منحر . ثم راح معمر بن عبد الله يخلق رأسه عليه السلام ، فطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يده رجل .

ثم تطيب — ﷺ — طيبته عائشة بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف

الإفاضة، ثم نهض — ﷺ — راجعاً إلى مكة فطاف في يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر. ومر على راحلته وخلعه أسامة بن زيد فاستسقى فهرع إليه آل العباس بإباء من سقاية العباس وكانوا يضعون في السقاية التمر والربيب، فشرب — ﷺ — وسقى فضله لأسامة وقال :
— أحسنتم وأجملتم ، كذا فاصنعوا .

ثم شرب من ماء زمزم بالدلو وقد نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب ، فقد كانت له السقاية في الحاهلية والإسلام ، ثم رجع — ﷺ — إلى منى فصلى بها الظهر وبقي في منى وإن كان يزور البيت كل ليلة ، وكان أزواجه — ﷺ — يرمين بالليل ، ثم نهض — ﷺ — من منى في اليوم الثالث الذي هو يوم القر الآخر ، ونفر معه المسلمون بعد الروال . واستأذنه عمه العباس في عدم المبيت بمى في الليالي الثلاث من أحل السقاية فرخص له في ذلك ، وضرب له — ﷺ — أبو رافع قبة في الأنطح فجاء فنزل ، وكان عليه السلام قال لأسامة :
— غدا ننزل بالحصب .

وهو المحل الذي تحالف فيه قريش وكنانة على مابدة بنى هاشم وبنى المطلب حتى يسلموا إليهم السى — ﷺ — ليقتلوه ، وكان ذلك مسياً لكتابة صحيفة المقاطعة . ولما نزل — ﷺ — بالحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وورق رقدة ثم أن عائشة قالت :

— يا رسول الله ، أرجع بحجة ليس معها عمرة ؟

فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال :

— أخرج بأحتك من الحرم ثم افرغاً من طوافكما حتى تأتيا ههنا

بالحصب .

فاغتبرا من الشعم مكان عمرة عائشة التي فاتتها ، وفرغاً من طوافهما في

خوف الليل فأتياه — ﷺ — بالخصب فقال :

— فرغتما من طوافكما ؟

— نعم .

فأذن في الناس بالرحيل ، وأمر — ﷺ — الناس ألا يبصر فوا إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت ، وقالت له صفية أم المؤمنين :

— ما أراى إلا حابستكم لانتظار طهرى وطواف الوداع .

كانت قد حاضت بعد طواف الإقامة ليلة النفر من منى ، فقال لها — ﷺ :

— أو ما كنت طمعت طواف الإفاضة يوم النحر ؟

— بلى .

— يكفيك ذلك .

وحاء بريدة إلى رسول الله — ﷺ — وكان مع على بن أبى طالب فى اليمن وجعل يشكو عليها له — ﷺ — لأنه حصل له منه جفوة ، فجعل يتغير وجه رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا بريدة لا تقع على على ، فإن عليها مى وأنا مى . أأستأوى بالمؤمنين من أنفسهم ؟

— نعم يا رسول الله .

— من كنت مولاه فعلى مولاه .

ودخل — ﷺ — مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحرا قبل صلاة الصبح ، فوقف فى الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة ، فدعا الله وألرق جسده ووجهه بالملتزم وطاف سبعاً ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى ، فلما وصل — ﷺ — إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدیر خم يقرب رابغ جمع الصحابة فقال — ﷺ :

— أيها الناس إنما بشر مثلكم يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وإني
مستول وإنكم مسئولون فما أنتم قائلون ؟

— نشهد أنك قد بلغت وجهدت ونصحت فجزاك الله خيرا .

— أليس تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن حجه
حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن البعث حق بعد الموت ، وأن الساعة آتية
لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟
— بلى نشهد بذلك .

— اللهم اشهد .

— إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ولست تتفرقا حتى تردا
على الخوض . ألسنت أولى بكم من أنفسكم ؟
— نعم .

— ألسنت أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

— ألسنت أولى بكم من أنفسكم ؟

— نعم .

ورفع — ﷺ — يد على كرم الله وجهه وقال :

— من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب
من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، وأعن من أعانه ، واخذل من
خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ووصل — ﷺ — إلى ذى الحليفة فبات بها . لأنه — ﷺ — كره أن يدخل
المدينة ليلا . ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء

قدير . أيون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهاراً .
وكان أصاب الناس عند خروجه — صلى الله عليه وسلم — للحج جدري منعت كثيراً من الناس من الحج معه ، فلما قابل أم سنان الأنصارية بعد عودته قال لها :
— ما منعك أن تكوني حجاجت معنا ؟
— لما ناضحان ، حج أبو فلان (زوجها) وولدى على أحدهما ، وكان الآخر نسقى عليه أرضنا .

فقال تطيبوا لخواطركم من تخلف بمسب المرض أو لعدم وجود راحلة :
— عمرة في رمضان تعدل حجة معي .

التذيل

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

خلق الله آدم ليكون خليفته في الأرض ، وكان أمر هذه الخلافة مقررًا قبل خلق آدم ، ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . ثم خلق الله زوجه فكانا يأكلان من الجنة رغداً ، وهما ربهما عن شجرة الخلد فوسوس الشيطان لآدم ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴾ (٣) . ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (٤) .

وهبط آدم وحواء إلى الأرض ليكون آدم خليفة لله فيها ، فكانت الأسباب موصولة بيته وبين السماء وإن راح بهيم في وادي الدموع ، فكانا يأكلان من طبيبات ما رزقهما الله ويشكران الله ويلتمسان التوبة . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه .

وجعل الله لهما بنين وحفدة فكان الخير للجميع ، وما كان فيهم غنى أو فقر فقد كانت الحياة بسيطة والقلوب عامرة بالإيمان ، فكانت السعادة الحقة ترفرف عليهم . كانوا يمحسون بعض الوقت في السعي وراء القوت لإشباع جوع البطون ، وحل الوقت في الابتغال إلى الله والتمسك بمبادئ الخير لإشباع جوع النفس .

(٢) البقرة ٣٠

(٤) طه ١٢١

(١) الحجرات ١٢

(٣) طه ١٢٠

واستأنس الإنسان بعض الحيوان فكان بعض أفراد الأسرة يعملون في الرعي وبعضهم في الصيد وبعضهم في صنع السهام والحراب وأدوات القتل ، وأصبح لكل أب أسرة قبيلة ، وعرفت كل قبيلة نوعا من التخصص وتعددت حاجاتها في نفس الوقت فكان لا بد من وجود سوق لتبادل الطيبات ، فقد ظهرت حاجة كل فريق إلى ما عند الفريق الآخر ، فكان نشأة نظام المقايضة .

وقامت في وجه المقايضة صعوبات ، فتبادل الطيبات يتوقف على توافق الرغبات ، وإن توافقت الرغبات فقد تفاوتت القيمة بين الطيبات التي يرغب في تبادلها ، وقد يصعب تجرئة كثير منها . فكان لا بد من وجود وسيط ثابت تنسب إليه الطيبات ، وقد اختلف ذلك الوسيط باختلاف البلاد ، ففي بعض البلاد كانت المواشي هي الوسيط الذي ينسب إليه باقي الطيبات ، وفي بلاد أخرى كان التبغ أو القماش أو السكر أو الصوف .

ذلت هذه الطريقة بعض الصعوبات ولكنها كانت لا تتمتع بالدقة التي يستريح إليها الطرفان ، فاتحدت المعادن وسيطا تقوم به الطيبات . وقد استخدم الحديد في أول الأمر ولكن نظر الثقل وزنه وصعوبة حمله اتخذ بعض كبار التجار والصيارفة سبائك من الحاس والبرنز تحمل أسماءهم أو ما يدل عليهم ، فكانت تلك النقود بضمنا أصحابها .

وانتشرت التجارة واتسعت رقعة التبادل وتنوعت الطيبات واشتد الطلب عليها ، فاستعمل الذهب والفضة ، وكانت الفضة أكثر النقود استخداما ، ففي بابل استخدمت شواقل الفضة فيسرت حركة التبادل وانتشرت الأسواق بين نهري دجلة والفرات .

واستعمل الإغريق والرومان العملة الذهبية والفضية ، فكانت على شكل أقراص مستديرة ، وعرفت فارس النقود مد تاريخها البعيد ، ففي عهد الساسانيين ضربت نقود عليها صورة أردشير الأول محوطة بمتحف (حجة الوداع)

كوبنهاجن .

وكانت إيران تنتج الذهب والفضة والنحاس والبلور الصخري والجواهر النادرة والمواد الثمينة المختلفة ، وقد قامت فيها صناعة الحرير البرية تنسج طرق القوافل ، فمن المدائن العاصمة على شاطئ دجلة كان الطريق الكبير يؤدي إلى همدان عن طريق حلوان وكنجاور ، وقد تفرعت منه طرق عديدة : طريق ناحية الحبوب يخترق خورستان وفارس وينتهي عند الخليج الفارسي ، وطريق يذهب إلى الري قرب طهران الحالية يبلغ به السائر بحر قزوين مخترقا منحدرات جبال جيلان وسلسلة البرز ، أو يسير منه إلى حراسان ليستمر في رحلته حتى الهمدان عن طريق وادي كابل ، أو حتى الصين عن طريق تركستان وحوض طارم .

وكانت إيران على صلة بالدولة الرومانية ، فقد كانت مدينة نصيبين مركزا هاما ونقطة الاتصال بين الإمبراطورية الرومانية والدولة الإيرانية . ولم يقتصر الأمر على الطرق البرية فقد اهتم الأكاسرة والأباطرة بالتجارة البحرية ، فحينما أصبح أردشير الأول إمبراطورا على إيران وسع المرافق البحرية القديمة ، ولما ازدهرت الدولة الرومانية الشرقية كانت الأساطيل الحربية تخرج من القسطنطينية بالعطيات وتعود إليها بألوان الترف من الشرق ، فكانت القسطنطينية رمزا للثروة ، ومدينة لم يكن لكنوزها نهاية تنتهي إليها ولا معيار تقاس به .

وكانت العرب في الحاهلية يشتغلون بالتجارة ويتأدحون بكسب المال ، ولا سيما قریش . وكان لقریش في السنة رحل أربع ، فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهم هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلا فأُس به تجارته إلى الشام ، والثاني عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة ، والثالث المطلب وكان يرحل إلى اليمن ، والرابع نوفل وكان يرحل إلى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتحربين ، فيحتلف تجر قریش بخيل هؤلاء الإخوة

فلا يتعرض لهم أحد .

هذا ما كان من أمر قريش وسائر أهل الحجاز ، وأما أهل اليمن وعمان والبحرين ومصر فكانت تجارتهم كثيرة ومعاشهم وامرء لما في بلادهم من الخصب والرخاء والدخائر المتنوعة والمعادن الحيدة ، ونحو ذلك من أسباب الثروة والغنى .

وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم في الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال . فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب في رفاهية العيش ورواج التجارة .

وكان للعرب أسواق يقيمونها شهور السنة ويتنقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر ، منها « دومة الجندل » كانوا يرلونها أول يوم من ربيع الأول يجتمعون في أسواقها للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وكانت المبايعة فيه ببيع الحصاة وهو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام ، وفسر بأن يقول أحد المتبايعين للآخر : ارم هذه الحصاة فعلى أى ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، وفسر بأن يبيعه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من حصى ويقول : لى بعدد ما أخرج فى القبض من الشيء المبيع ، أو يبيعه سلعة ويقبض على كف من الحصى ويقول : لى بكل حصاة درهم ، وفسر بأن يمسك أحدهما حصاة فى يده ويقول : أى وقت سقطت الحصاة وحس البيع ، وفسر بأن يعترض القطيع من العجم فيأخذ حصاة ويقول : أى شاة أصابتها ههنا لك بكذا .

وهذه الصور كلها فاسدة لما تتضمن من أكل المال بالباطل ، ومن العرر والخطر الذى هو شبيه بالقمار ، ولذلك أبطلتها الشريعة ، وكان أكيدر صاحب دومة الجندل يرعى الناس ويقوم بأمرهم أول يوم فتقوم سوقهم إلى نصف

الشهر، وربما غلب على السوق بنو كلب فيمشوهم ويتولى أمرهم يومئذ بعض رؤساء بني كلب، فتقوم سوقهم إلى آخر الشهر.

ومنها «سوق هجر» اسم لجميع أرض البحرين، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر فتقوم سوقهم بها، وكان يعشوهم ويتولى أمرهم المدر بن ساوي أحد بني عبد الله بن دارم، وقد أرسل إليه رسول الله — ﷺ — كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد دخل في دين الله.

ومنها سوق عمان وكانوا يرتحلون من سوق هجر فتقوم بها سوقهم إلى أواخر جمادى الأولى.

ومنها «سوق المشقر» حصن بالبحرين كان فيه سوق للعرب تقوم من أول يوم من جمادى الآخرة، وكان يبيعهم بالملامسة والإيلاء والهمهمة خوف الخلف والكذب، وبيع الملامسة على أوجه، وهي أن يأتي بثوب مطوى أو في طلعة فيلمسه المشتري فيقول له صاحب الثوب: بعته بكذا، بشرط أن يقوم لمسك مقام بطرك ولا خيار لك إذا رأيته. الوجه الثاني أن يجعل نفس اللبس يباعا بعير صيغة زائدة، الوجه الثالث أن يجعل اللبس شرطاً في قطع خيار المجلس وعيره؛ وهو أيضاً من البوع التي أبطلها الإسلام.

ومنها «الشحر» ساحل البحرين عُمان وعدن، تقوم في النصف من شعبان، وكان يبيعهم في هذه السوق أيضاً برمي الحصاة وإلقاء الحجارة كما في سوق دومة الجندل.

ومنها «سوق عدن» كانوا يرتحلون من الشحر فيتزلون هذا الموضع، فتقوم سوقهم بها إلى أيام من رمضان، فتشترى التجارات وأنواع الطيب.

ومنها «سوق صعاء» كانوا إذا ارتحلوا من عدن والشحر تقوم سوقهم بصعاء في النصف من شهر رمضان إلى آخره. وصعاء من أطيب بلاد اليمن،

ومنها كان يجلب الأدم (الجلد المدبوغ) والروود، وكانت تجلب إليها من معافر وهو بلد كان في اليمن .

ومنها « سوق ذى الحمار » كانت باحاجة عرفة إلى جانبها .
ومنها « سوق مجنة » وهى التى عاها نلال مؤذن الرسول بقوله متشوقا إليها بعد المحرة :

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يدنون لى شامة وطفيل
وكانت تقوم سوقهم فيها قرب أيام موسم الحج ويحضرها كثير من قبائل العرب .

ومنها « سوق حُباشة » كانت في ديار بارق نحو قوما من مكة إلى جهة اليمن ، ولم تكن من مواسم الحج وإنما كانت تقام في شهر رجب .

ومنها « سوق عكاظ »، وهو موسم معروف للعرب ، بل كان من أعظم مواسمهم وأسواقهم ، وهو محل في وادي بين حلة والطائف وهو إلى الطائف أقرب بينهما عشرة أميال ، وهو وراء « قرن المنازل » بمرحلة من طريق صنعاء ، وكان المكان الذى يجمعون فيه مه يقال له الابتداء ، وكانت هناك صحور يطوفون حولها وكانوا يتبايعون فيها ويتماخرون ويتحاجون وتنشد الشعراء ما تجدد لهم .
وفىها كان يخطب كل خطيب مصقع ، وفىها علفت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق بلده إلا سوق عكاظ فإسهم كانوا يتوافدون بها من كل جهة ، فكان يأتيها قريش وهوازن وسليم والأحباش وعقيل والمصطلق وطوائف من العرب .

وكانت العوائد على القروض معترفا بها في بابل وفي الإمبراطورية الرومانية في أيام وثيتها وأيام اعتناقها للمسيحية ، وفي إيران وفي بلاد العرب في الجاهلية ..

وإن الأستاذ أنور إقبال قرشى فى كتابه الإسلام ونظرية الفائدة يقول : « لقد كان إقراض القود بفائدة عملا مموعا عند الإغريق ، فأرسطو الذى كانت لأحكامه الفعالة أثرها العظيم على الأجيال التالية ذم الفائدة بكلمات بالغة القوة ، فقد شبه المال بدحاجة عاقر لا تبيض ، والعرض الأوحى من استخدام المال عند أرسطو هو تسهيل التبادل وإشباع الاحتياجات الشرىة ، لقد كان هذا عمله هو الغرض الطبيعى الأسمى للمال . فالمال لا يمكن استخدامه مصدر للترىد ، أى الازدياد بالفائدة ، أى أن تزايد المالك بالفائدة كان أغرب وسائل اكتساب المال ، إن قطعة من القود لا يمكن أن تلد قطعة أخرى ، تلك كانت عقدة أرسطو ، والنتيجة الواضحة أن الفائدة حائرة ، وقد دم أفلاطون أيضا الفائدة » .

ويقول : « حرمت الإمبراطورية الرومانية فى عهودها الأولى تقاضى أية فائدة ، لكن الفائدة جعلت تظهر تدريجيا مع اتساع رقعة الإمبراطورية ونشوء فئات التجار ، غير أن قيودا شديدة فرضت على معدلات الفائدة وكان تنفيذها يراقب بدقة ، ولقد كان الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدنيين » (١) .

إن أرسطو قد انتقد الفائدة ، وكذلك فعل أفلاطون ، وليس معنى ذلك أنها كانت محرمة عند الإغريق ، هو كانت محرمة لما كان هناك من سبب لانتقادها . أما القول بأن الإمبراطورية الرومانية حرمت الفائدة فى عهودها الأولى فقول مردود ، فالفائدة كانت سائدة منذ نشأة الدولة الرومانية ؛ وكذلك القول بأن الرومان هم أول أمة شرعت قوانين لحماية المدنيين بحاق الحقيقة ، فالدولة البابلية هى أول دولة فى التاريخ نظمت الفائدة وعملت على حماية المدنيين قدر المستطاع

(١) الإسلام والربا — تأليف إقبال قرشى — دة حمة فاروق حلمى . (مكتبة مصر) .

من المراكبيين، وإن قانون حمورابى حدد سعر العائدة قبل أن تنشأ الدولة الرومانية. أما فى جزيرة العرب فى الجاهلية فقد كانت الفوائد مركبة، وكانت تتضاعف كل سنة، وإن الإسلام هو الدين الذى حرم الربا تحريماً قاطعاً، وساقش هذا الموضوع فى هذا البحث عندما نتحدث عن المال فى الإسلام.

لم يكن للعرب نفوذ خاصة بهم قبل الإسلام، ولا فى زمن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — والخلعاء الراشدين. فقد كانت العملة الرومانية والعملة الفارسية هى العملة السائدة فى مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب، وكان عبد الله بن الزبير أول من استعمل الدراهم المقوشة أيام منافسته لمعاوية بن أبى سفيان على الخلافة، فكتب على أحد وجهى الدرهم « محمد رسول الله » وعلى الوجه الآخر « أمر الله بالوفاء والعدل ».

وكان هم الأكاسرة والأباطرة ملء حزائهم بالذهب والفضة للإنفاق على الجيوش وأبهة الملك وعظمت، فكانت الضرائب الجائرة التى تنقض طهر الشعب، فوير المالية فى فارس يتولى رئاسة الضريبة العقارية، ويقع عبء هذه الضريبة على الزراعة، ولما كانت الضريبة تفرص حسب الخصوبة وجودة زراعة القرى وأوردائها، فقد أصبح عليه أن يسهر على زراعة الأرض وريها وغير ذلك. ولم يكن اختصاصه يشمل الضريبة العقارية وحدها، بل وسع الضريبة الشخصية أيضاً، فكان رئيس كل من يمتن حرفة يدوية — عبيداً أو حراثين أو تجاراً. وكانت المصادر الرئيسية للدخل فى الدولة تتكون من الضريبتين العقارية والشخصية، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة بمبلغ محدد، وعلى السلطات المختصة أن تورعه بقدر استطاعتها بين دافعى الضرائب. وكذلك كانت الضريبة العقارية تحبى بنفس الطريقة، فإن التقدير يتم حسب ما تنتجه الأرض من غلات، وعلى كل قرية أن تدفع من السدس إلى الثلث حسب خصوبة

الأرض .

وكان تحصيل الضرائب وتوزيعها سببا في الحور وسوء الحسيلة من ناحية الموظفين ، ولأنه تعدا لهذه الطريقة كانت مبالغ الدخل تتفاوت كثيرا من سنة لأخرى ، فإنه كان من غير الممكن عمل حساب تقريبي مقدما للحالة المالية واستخدام ما يحبى منها ، ومن ناحية أخرى كانت الرقابة على ذلك غاية في الصعوبة وكان ينتج عن ذلك غالبا أن تهاجى الحرب الدولة فيعوزها المال ، وفي هذه الحالة كان ينبغي فرض ضرائب استثنائية ، وكان عبئها المادح يقع عابا على الأقاليم العربية الغنية ، وخاصة العراق (بلاد بابل) .

ويصاف إلى الضرائب المنظمة الهبات العادية ، والتي بحسب منها التحف التي تقدم للملك — جراحى — في عيذى الورد والمهرجاء ، وكذلك كان دخل الجمارك موردا من موارد الدخل .

وكانت نفقات الدولة أول ما تنصب على الحرب ومصاريف البلاط ورواتب الموظفين ، فإذا قامت الدولة بمشروع عام فالجهة التي مستفيد منه تتحمل عبء التمويل ، فكانت تفرض ضرائب استثنائية حتى يتيسر التتميد . وكان الأمر في الإمبراطورية الرومانية لا يختلف في كثير أو قليل عن الأمر في إيران ، فالضرائب الباهظة تكاد تدفع بالولايات إلى هاوية الإفلاس ، وقيصر يحتكر صناعة الحرير ليملاً حزائنه بالذهب البضار ، والحرب المشبوبة بين إيران والرومان تلتهم ما في الخزائن ، فتقوم الكنيسة لتمويل الحملات بقروض مقابل فوائد يتمق عليها ، ولا يجد قيصر أمامه إلا الشعب في إمبراطوريته المترامية الأطراف ينتز منه عرق الخبين وما يدحر للأيام .

وحاء الإسلام ولم يطر إلى المال نظرة الأباطرة والأكاسرة ، فلم يجعله الإله المعبود الذي تعو له الجباه ، بل جعل له وظيفة اجتماعية هدفها إسعاد الناس .

والإسلام أول نظام في الوجود وضع المال في خدمة الجماهير وأنصف بحق الفقراء من الأعياء ، وأرهمف حسن الحياة فكانوا أمناء رحماء ، فقد بعث الله رسوله — ﷺ — هاديا ولم يبعثه جابيا .

وداع أمر الإسلام وعدله وسماحته في الولايات الرومانية والولايات العارسية ، فيسر ذلك لجيوش الإسلام فتح الشام ومصر والعراق وشمال أفريقية ، فأهالي تلك البلاد كانوا يرحدون بالفاتحين طلبا للعدل وإن كانوا على دين الرومان أو الفرس .

واستمر النظام المالى في الإسلام فريدا في بابه تسعديه الدول الإسلامية ، بينما سارت الدول الأخرى في طريقها ؛ الشعوب تتعارف ، وطرق المواصلات تعبد ، والتجارة تشبط ، ومعدلات الفوائد تتأرجح بين الزيادة والنقصان حسب الأحوال الاقتصادية في العالم ، والمدينون يفتنون تحت وطأة الطم الجائرة اتى تشريع لخدمة الأقوياء ، وعبادة المال تتأصل في النفوس ، وجهود تبدل لجمع المال وانتهاز الفرص واستغلالها استغلالا أنابيا ، فيشتد عود الرأسمالية ويتكون نظام رأسمالى يستغل الطبيعة والإنسانية ، ويرعرع الاستقرار الاجتماعى ، ثم تنطلق نزعاتها المحرقة من عقالها لتفتك بالمجتمع .

وقام بعض الاقتصاديين في القرن الثامن عشر يباركون الرأسمالية ويشرعون أقلامهم للدفاع عنها ، وفلسفوا النظام الرأسمالى الحرفقالوا بوجوب ترك الأفراد أحرارا لتحقيق مصالحهم الشخصية ؛ فهم يختارون حرفتهم أو نشاطهم ولهم حرية التملك وحرية العمل . ولا يحد من هذه الحرية إلا شرط واحد هو عدم تعارض سلوكهم مع تحقيق الأفراد الآخرين لمصالحهم الذاتية .

فالتدخل الحكومى يجب أن يكون في أضيق نظام ممكن سواء في ميدان الإنتاج أو في ميدان التوزيع ، فالإنتاج في نظريهم ينظم نفسه بنفسه ولا يجب أن

تتدخل الحكومة إلا إذا كان هذا التدخل في صالح المجموع .
والفردية هي أحد أركان هذا النظام الرأسمالي الحر ، فينبغي السعي إلى تحقيق أقصى سعادة ممكنة للفرد .

ونظريتهم في التوافق تقول : ليس هناك تعارض بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ؛ فالمجتمع في نظرهم أسرة كبيرة ذات هدف موحد ، وأنه ما دام الفرد يحقق سعادته فإن سعادة المجموع سوف تتحقق ، فالمنفعة الكلية للجميع تتمشى مع المنفعة القصوى للفرد ، فالمصلحة العامة يمكن تحقيقها بفحص دقيق للمصالح الفردية ، ويؤمن أصحاب هذه النظرية بأن هذا التوافق يحدث تلقائياً .

ويؤمنون بأن الثقة في المنافسة الحرة ، وجهاز الثمن قوة حقيقية موجهة للحياة الاقتصادية ، وأن الربح هو خير حافز على الإنتاج والتقدم الاقتصادي . والقوانين التي تحكم هذا النظام إنما تشتق في نظرهم من نظام طبيعي خير ، فالإنسان لو ترك وشأنه لن يحقق منفعة ومصلحته الشخصية فحسب ، بل سوف يعمل على تحقيق الصالح العام ، فحوافر الإنسان على التصرف لا تجعل مصلحة الفرد تتعارض مع مصلحة المجموع ، فسلوك الإنسان فيه نزعات طبيعية كحب النفس والأثرة والعطف على الغير والرغبة في العمل والشعور بالفضيلة والرغبة في أن يكون حراً . وهذه الدوافع من التوازن بحيث تجعل الفرد وهو بسبيل تحقيق مصلحة نفسه إنما يحقق مصلحة الغير ، فالأثرة وشهوة حب النفس يقابلها الشعور بالعطف . فالنظام الطبيعي بالرغم من بساطته إلا أنه يحقق مصلحة المجتمع ، فهو صادر عن الميول الطبيعية للإنسان ، وإن تدخل الأنظمة الوضعية مع النظام الطبيعي تعوق إيجاب هذا النظام لآثاره الحميدة ، وهذا النظام الطبيعي يفوق أى نظام آخر من عمل الإنسان .

ومن ثم نجد أن الحكومات تخدم المجتمعات على نطاق أكبر لو أنها لم تتدخل في

حرية الأفراد ، فهذه النظرية لا ترى خيرا في تدخل الدولة في ميادين الأعمال ، وهي لا توافق على القيود والتنظيمات الموضوعة للأجور ، وهي تنادى بالقضاء على جميع مظاهر الاحتكار في شئون العمال أو غيرها ، فالمفاسدة غير المنقيدة أو المشوبة بأى شائبة هي وحدها القوة الاجتماعية المنظمة للحياة الاقتصادية وتحقيق المنافسة الحرة ، وإعلاء شأنها هو الشرط الرئيسى للتقدم الاقتصادى . وجاءت الاشتراكية تحاول تضييد ما خلفته الرأسمالية من جراح ، فادى رسل الاشتراكية بتقويض النظام من الجدران ، وقالوا إن « الأمة » فكرة اخترعها الرأسماليون ، وإن « الوطن » مجرد وسيلة يستغلها البرجوازيون لاستغلال العمال ، أما القانون فهو سلاح يفرض على الطبقة العاملة أن تظل في بؤسها ، والدين مجرد محدر للمحماهير ، والمدارس حقول لتربية العبيد ؛ فألغت الاشتراكية المادية الملكية الفردية وجعلت العنف قانونها الثورى ! وقد قال مستر تشرشل عن الرأسمالية والاشتراكية : « الرأسمالية توزع الخير على الناس دون مساواة ، وأما الاشتراكية فتوزع البؤس على الناس بالتساوى ، فلحاول إذن أن نتحد نظاما يحقق أكبر خير لأكثر عدد من الناس » .

فهل المسيحية تستطيع أن تحقق هذا النظام المشود ؟ فلصغ إلى ما قال ماركس وأنجيز عن ذلك : « لقد كان أمام المبادئ المسيحية الاجتماعية فرصة ثمانية عشر قرنا للتطور ، ولن تحتاج إلى تطور آخر على يد القسس والمشرين . وقد أباحت هذه المبادئ الرق في العالم القديم ، وغطت عبودية الإنسان في الأرض في العصور الوسطى ، وهي على استعداد إذا لزم الأمر للدفاع عن ظلم الطبقات العاملة مهما أطرقت جباهها ، وتعاليم المسيحية الاجتماعية لا تعارض في وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ، وكل ما تقدمه للناس هو أمل الخائفين في أن يتحول الحاكمون إلى الخير . والمبادئ الاجتماعية المسيحية تنقل مشكلة علاج

أمر اص المجتمع إلى العالم الآخر وترر بذلك دوام هذه الأمراض على الأرض ،
والمادى الاجتماعية المسيحية تعبر أن شرور الظالمين التى تقع على المظلومين إنما
هى عقاب لهم عن ذنب أتوه أو متاعب احتارت حكمة الله التى لا يعرفها أن تقع
على المختارين من عباده ، والمادى الاجتماعية المسيحية تبشر بالחס والاحتياط
بالنفس وقبول الأمر الواقع والخصوع والذلة وبالاختصار كل الصفات الدنيا ،
وطبقة العمال لا ترضى أن تعامل هذه المعاملة .

إساحتاح إلى الشجاعة والثقة والكرباء والاستقلال أكثر مما محتاج إلى الحيز ،
والمبادئ الخلقية المسيحية ملتوية وغير صريحة ، ولكن طبقة العمال ثورية .
وحد ماركس وأنجلز وزعماء الشيوعية هذه المثالب فى المسيحية فكفروا
بها ، فهل يدافع الإسلام عن ظلم الطبقات العاملة ؟ وهل إذا وجد السلطان
الظالم يأمر الإسلام أتباعه أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يحلوا طاعته من
أعناقهم ؟ وهل يقبل الإسلام مشاكل علاج أمراض المجتمع إلى يوم الحساب ؟
هل يرى فى شرور الظالمين للمظلومين عقابا للمظلومين عن ذنب اقترفوه ؟ إن
الإسلام يعالج شئون الدنيا مثلما يعالج شئون الآخرة ، فهو دينا ودين ، يساوى
بين الخاضعين لأحكامه فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن
والكافر ، والبر والفاجر ، والمثلث والسوقة ، والعسى والفقير ، والقوى
والضعيف . الناس لآدم والمؤمنون إخوانة والناس سواسية أمام الشريعة العادلة ،
لصاحب العمل حقوق وعليه واجبات ، وللعمال حقوق وعليهم واجبات ، لا
تملق لطبقة على حساب طبقة ، بل العدل المطلق للجميع . لا فضل لأحد على أحد
إلا بالتقوى . لا المال يرفع صاحبه ولا الفقر يخفض شأن الفقير . إنه دين يلتقى
فيه المثالية بالواقعية ، وتمتزح فيه الروحانية بالمادية ، ويسعى فيه المرء لخير الدنيا
والآخرة ، ويحاول أن يصمم فى إهابه السماء والأرض . إنه دين العقل والحكمة

والفقه، دير الفطرة؛ ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ (١). هدم المفكرون المسيحيون الدين لأنه يقف في سبيل التقدم ويقف في سبيل التطوير ولا يحقق الخير العام للبشرية. فلماذا يصكر بعض المسلمين في الهجوم على الدين دون أن يحاولوا أن يفتحوا أعينهم على ما فيه من هداية وسياسة وسيادة ورعة وما يحقق الخير العام للجميع؟ إنه التقليد والاقتنان بكل ما يأتي من العرب وإن كان فيه الدمار والشقاء والضياح والفوضى.

ترك المفكرون المسيحيون الدين وبنوا الآلهة، ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا إله معبود فقد عبدوا الذهب وساقوا الناس بأفكارهم إلى عبادة المال وتقديسه، وجعلوا الجوع القوة المحركة للنشاط البشرى، والحاجة المادية للإنسان القلم الذي يسجل به التاريخ، فانطقت كفاءات هائلة تستغل الطبيعة دون أن تتطور التطور الخلقي والنفسي الذي يتلاءم مع الانطلاقة العظيمة، فمجرت النفس الإنسانية عن أن تلحق بالتقدم الحبار الذي حققه الاقتصاد والسياسة والعلم، فكان الصياح والشقاء والدموع والقلق والخوف الدائم من المستقبل المجهول.

وصل الإنسان إلى القمر ولم يكتشف بعد كيف يقاوم الزكام، وصنع قنابل درية كافية لدمار العالم ولم يحاول أن يريد في رقعة الأرض المنزرعة ليوفر القوات للذين يموتون جوعاً كل يوم في أرض البؤس والشقاء، وتعددت سبل الاتصال بين الشعوب وقربت المسافات ولم تتألف القلوب بل زادت نفورا، ولم يصحح البشر أمة واحدة، بنعمة الله إخوانا، بل شعوبا متعادية متصارعة على الحياة، وقد خلق الله الأرض وجعلها تكفي الناس جميعا أحياء وأمواتا، ولكن الناس أبوا

إلا الضياع فلا حرية ولا إخاء ولا مساواة .

إن الرأسمالية ظلم للعقراء وعدوان صارخ على الإنسانية واضطهاد لها وتهديد للسلام الاجتماعى ، وإن الاشتراكية العلمية قد جعلت السعادة المادية هدف الحياة الأوحـد فحولت هى والرأسمالية الناس جميعا إلى عبيد للمال . وقد قال بيتشه فى كتاب إرادة القوة : « إننا نحتاج لكى نحل عقدة المال إلى ثورة وتجديد كامل للمجتمع ، وقبل أن توضع الحياة الاقتصادية فى مكانها المتواضع الذى يناسبها يجب أن تخضع للحياة الخلقية والروحية فى الجماعة ، ويجب أن تكون العدالة لا الثروة مقياس المفعة ، العدالة ؟ إنها على النقيض من روح الرأسمالية السائدة ، والاشتراكية ليست سوى تقليد العمال لساداتهم تقليد القردة ، وإذا أردنا أن نعالج العمال من داء الاشتراكية فلا بد أن تعالج الطبقات الراقية نفسها من داء الرأسمالية » .

هذا ما قاله نيتشه ، وأنا أقول إن الأمر لا يحتاج إلى ثورة بل عودة إلى النظام المالى فى الإسلام ، ففيه محاسن الرأسمالية دون عيوبها ومحاسن الاشتراكية دون عيوبها ، والمال فى الإسلام ليس معبودا بل إنه فتنه ، ولا يقوم بوظيفة اقتصادية وحسب بل إن وظيفته فى المقام الأول وظيفة اجتماعية تستهدف الخير العام للجميع .

إداتر كما تعريف « المال » الاقتصادى أو القانونى يمكننا أن نقول إن المال هو ما يستحوذ عليه الإنسان من طيبات الله ، فالهواء وإن كان ذا قيمة لا تقدر لأنه بدونه تنوقف الحياة ، فقد قضت حكمة الله أن يكون مخلوقاته جميعا ، أن يكون للخير العام وأن يستحيل على الإنسان أن يستحوذ عليه ، فهو ليس مالا ، أما الأرض وما عليها من نباتات وحيوانات ، وما فى بطنها من زيوت ومعادن وأحجار كريمة ، وكل الطيبات ، فهى مال . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

واشكروا لله ﴿١﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ﴿٢﴾. فإِنَّ
قَدْ أَهْلَ لِمَا الطَّيِّبَاتِ وَحَرَمَ الْخَبَائِثَ ، نَكَسِبَ طَيِّبًا وَنَفَقَ طَيِّبًا تَطْلُبُ أَنْفُسَنَا
وَتَتَأَلَّفُ قُلُوبَنَا وَنَصْبَحُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا .

وَالْمَالُ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَ مَالُ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ وَلَكِنَّهُ مَالُ اللَّهِ وَالنَّاسِ مُسْتَخْلَفُونَ
فِيهِ ؛ فَلَا يَنْبَغِي كَسْبُ الْمَالِ إِلَّا مِنَ السَّبِيلِ الَّتِي يَحْدُدهَا صَاحِبُ الْمَالِ وَأَنْ يَفْقَ فِي
السَّيْلِ الَّتِي يَحْدُدهَا لِإِتِّفَاقٍ ، فَإِنَّ أَسَاءَ الْمُسْتَخْلَفِ فِي مَالِ اللَّهِ وَلَمْ يَوْفِهِ حَقَّهُ
فَلِلْحَاكِمِ أَنْ يَنْزِعَ ذَلِكَ الْمَالُ مِنْهُ وَأَنْ يُوْجِهَهُ لِلْخَيْرِ الْعَامِ . فَالْحُكُومَةُ هِيَ السَّاهِرَةُ
عَلَى تَنْفِيزِ أَوْامِرِ اللَّهِ وَنَوَاهِيهِ ، فَإِنْ لَمْ تَقُمْ بِوَاجِبِهَا فَعَلَى الشَّعْبِ أَنْ يَنْحِيَهَا عَنْ
الْحُكْمِ ، فَإِنَّ قَصْرَ الشَّعْبِ فَإِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُ الْجَمِيعَ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

﴿وَلِيَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ
يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتَبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ حَيْرًا وَآتَوْهُمْ مِنْ مَالِ
اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ
وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٤﴾ .

قَضَى الْإِسْلَامُ عَلَى عِبَادَةِ الْمَالِ وَحَدَّ مِنْ طَعْيَانِ الثَّرْوَةِ ، فَالْمَالُ قِتَّةٌ وَزِينَةٌ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاجْتِبَارٌ . ﴿الْمَالُ وَالسُّوْنُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ
عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿٥﴾ ، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعُ
لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . إِنْ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ
هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا

(٢) البقرة ٢٦٧

(١) البقرة ١٧٢

(٤) الحديد ٧

(٣) النور ٣٣

(٦) المؤمنون ٥٥ — ٦١

(٥) الكهف

وقلوبهم وحلة أنهم إلى ربهم راجعون. أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿١﴾. ﴿٢﴾ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴿٣﴾. ﴿٤﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا بل هي ﴿٥﴾ لتبطلوا في أموالكم وأنفسكم ﴿٦﴾. ﴿٧﴾ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴿٨﴾.

إن الإسلام لا يحرم الطيبات : ﴿٩﴾ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴿١٠﴾. ولكنه يحصد شوكة المال ويحاول أن يقضى على عرووره وأن يقاوم اتحاهه العام للصدع عن الحق والخير : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استعصى ﴿١١﴾ . ويل لكل همزة لمزة . الذي جمع مالا وعدده . يحسب أن ماله أخلده ﴿١٢﴾ . إن الذين كفروا يفتقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون حسرة عليهم ثم يغلبون ﴿١٣﴾ » .

كان الظلم الاقتصادي هو السم الذي قصى على جميع الحصارات مد حضارة بابل ومصر القديمة إلى اليوم ، وكان طغيان المال وغروره هو المعول الذي قوض الإمبراطوريات القديمة والحديثة على السواء ، فالدولة المصرية القديمة والإغريق والفرس والرومان قد وصلوا إلى قمة النظام الرأسمالي التي وصلنا إليها وإلى الديمقراطية التي نشهد بها ، وقد اندثرت تلك الحصارات كما ستندثر حضارات الإمبراطوريات الحديثة ، فاندشكلة قديما وحديثا واحدة . اعدام

(٢) الأنفال ٢٨

(٤) آل عمران ١٨٦

(٦) الأعراف ٣٢

(٨) همزة ١ — ٣

(١) المؤمنون ٥٥ — ٦١

(٣) سبأ ٣٧

(٥) آل عمران ١٤

(٧) العلق ٦ ، ٧

(٩) الأنفال ٣٦

الاستقرار الداخلى وطعيا نإله الذهب . إن الكارثة التى تنتظرنا لا مفر منها مادام الناس يشيخون بأوجههم عن الدين ، إنهم كالأطفال الذين يعرصون عن الدواء الذى فيه شفاء أسقامهم ، أو كالطمأن الذى ينطلق فى إثر سراب .

إن المادية قد تحدث المسيحية فلم تستطع المسيحية أن تقف فى سبيل ذلك التحدى ، فاهار الحاجز الدينى الذى كان يقف فى وجه الجشع والطمع والأثرة وقتل الإنسان لأحبه الإنسان لتحقيق منفعة موقوتة زائلة ، فهل فى الإسلام القوة التى تواحه ذلك التحدى وتلوى ذراع المادية لتعيدها إلى الصراط المستقيم ؟ إن الإسلام يمدح المال فهو من نعم الله ، ولكنه يدم طعيانه والبحل به والعطسة لامتلاكه والرياء فى إنفاقه ، فالله يقول فى مدح المال : ﴿ قفقت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (١) . ﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ (٢) .

فجزاء اتباع هداية الدين فى الإسلام الحفظ من شقاء الدنيا والعوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الصلح فيها : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ﴾ (٣) . ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء عذقا ، لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ (٤) . ﴿ وإن حفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء الله ﴾ (٥) .

(٢) طه ١٢٣ ، ١٢٤

(١) نوح ١٠ — ١٢

(٥) التوبة ١٢٨

(٤) الحن ١٦ ، ١٧

(٣) الحن ١٣

والإسلام يعرف جيداً ضرورة دوران المال وأنه كالدّم لا بد أن يدور دورته الكاملة في الجسم ليظل معافى يؤدي كل عضو فيه وظيفته على خير وجه ، لذلك ذم البخل وحرم الكنز وحض على الإنفاق : ﴿ ولا تحسبن الذين يبعثون بما آتاهم الله من فضله هـواً حيراً لهم بل هـو شر لهم يبطونون ما يخلوا به يوم القيامة ﴾ (١) . ﴿ والذين يكتزون الذهب والعصاة ولا ينفقوها في سبيل الله مبشرينهم بعداب إليهم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى به جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فندوقوا ما كنتم تكزون . ﴾ (٢) . ﴿ ها أنتم هؤلاء تـُدْعُونَ لـتـُنْفِقُوا في سبيل الله فمـمـكم من يـبـحـل ومن يـبـحـل فإـنـما يـبـحـل عـن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (٣) . ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع مسابيل في كل سلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أدى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أدى والله غنى حلیم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بر بوة أصابها وابل فانت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل مغل والله بما تعملون بصير . أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها

(٢) التوبة ٣٤ ، ٣٥

(١) آل عمران ١٨٠

(٣) محمد ٣٨

الأشجار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتذكرون . يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون . ولستم بأحذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد . الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴿١﴾ .

ولا يقبل الإسلام أن يكون المال في أيدي قلة من الناس لا ينفقونه في الخير العام : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ﴿٢﴾ . ولا يشر طبقة على طبقة ولا يرضى عن حمامات الدم ، فالمؤمنون إحوة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ﴿٣﴾ . وهم إخوان في الدين قد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً ، يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، لا يشترى الحياة الدنيا بالآخرة ولا يفسكون دماءهم ودماء الناس بغير حق في سبيل ثورة عارمة قد تكون ظالمة ، ثورة تخرجها شهوات الانتقام ونزوات أحقاد قلوب مريضة أعماها الغرض .

والإسلام لا يرضى عن الطغيان فسواء عنده طغيان الرأسماليين أو طغيان العمال ، فهو يقدر العدل ويعطي كل ذي حق حقه ، ويضرب على أيدي العابثين بلا تفريق ، فيقدم للناس حياة أكثر خصاً وغنى ، ويشبع كل نهم الإنسان إلى العدل المطلق والحياة الحرة الكريمة للناس ، كل الناس : ﴿ اعدلوا هو أقرب

(١) البقرة ٢٦١ — ٢٦٨ (٢) الحشر

(٣) الحجرات ١٠

للتقوى ﴿١﴾. ﴿ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ (٢). ﴿ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا﴾ (٣). ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ (٤). ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ (٥).

والمال في الإسلام عقيم لا يلد وحده ، بل لا بد من أن يتروح العمل ليأتي بشجرة ، وله أن يشترك في هذه الثمرة سواء أكانت حلوة أم مرة . فإذا كانت الثمرة كسبا شارك في الكسب ، وإذا كانت خسارة تحمل نصيبه منها ، وحكمة ذلك أننا لو وضعنا القساطير المقطرة من الذهب والفضة فوق سطح قطعة أرض بور مثلا ، فستظل الأرض بورا مادامت يد البشر لم تتعهدا بالإصلاح . وكذلك الحال إذا وضعناها في مصبع أو متحر فالمال وحده عاجز عن أن يؤدي وظيفة منتجة ، بينما العمل وحده يستطيع أن يثمر فيستحق مكافأة ، يستحق أجرا . أما المال فهو لا يستحق ربا ، بل يستحق نصيبه من المكسب أو الخسارة إذا ما اشترك مع العمل في الإنتاج .

والربا لعة الريادة ، وشرعا عقد على عوض محصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد ، أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما وهو ثلاثة أنواع : النوع الأول ربا الفصل ، وهو البيع مع زيادة أحد العوضين المتفقى الجنس على الآخر ، كمثال قصة مثلا بمثل قال وربيع منها .

والثاني ربا اليد ، وهو البيع مع تأخير قبضها أو قبض أحدهما عند التفرق من المجلس ، أو عند تحاير لزوم العقد فيه ولكن بشرط اتحاد العوضين علة بأن يكون

(١) المائدة ٨ (٢) النساء ١٣٥

(٣) المائدة ٨ (٤) النساء ٥٨

(٥) النحل ٩٠

كل مهما مطعوماً أو نقداً ، وإن اختلف جنسا كذهب بفضة وبر بشعر .
والثالث ربا النساء ، وهو البيع للمطعومين أو للنقدين المتفقين الجنس أو
المختلفين لأجل كشهر أو لحظة ، وإن استويا وتقابضا في المجلس كبيع صاع بر
بصاع بر أو درهم فصة بدرهم فصة ، لكن مع تأجيل أحد العوصين ولو إلى لحظة
وإن تساويا وتقابضا في المجلس .

وحرم الفلاسفة الأقدمون الربا ولكن ذلك لم يمنع تغلغله في الحياة الاقتصادية
لكل الشعوب . وكان اليهود فرسان الحيلة على الرغم من أن التوراة قد حرمت
الربا ، وكما هي عادتهم فقد لعبوا بالألفاظ فأطلقوا على الربا اسم الفائدة وحسبوا
أهم بذلك قد فروا من العقاب في الدنيا ، فما كانت الآخرة تعنيهم في قليل أو
كثير .

لا تؤدي الفائدة أى منفعة عامة ولا تحقق رخاء في الدنيا ، بل إنها تنهش بمحالبها
القاتلة أفئدة المدينين ، ومع ذلك وجدت من يدافع عنها ، فقد قال آدم سميث
وريكاردو وهما من أبرر من وضعوا علم الاقتصاد : « الفائدة هي التعويض الذى
يدفعه المقرض عن الربح الذى كان يمكن أن يحققه باستثماره ماله » . وهذان
الكاتبان لا يفصلان بوضوح بين الفائدة والربح الفاحش لرأس المال . ولنتظر ما
يعنون برأس المال :

لقد استخدم آدم سميث عبارة (رأس المال العامل) وهو يعنى بها ذلك الجزء
من ثروة الفرد الذى يستخدم لا للاستهلاك وإنما لمزيد من الإنتاج ليعود عليه
بالمال كمكافأة أو كربح . وهو يشمل الآلات والمواد الخام والمباني والطعام
والكساء . ويمكن تفسيره بأنه بالرغم من الطعام والكساء ، وليس برأس مال من
وجهة نظر المجتمع إلا أنهما رأس مال من وجهة نظر الفرد . ما دام في وسعه
إعطائه سلعا للعاملين في الإنتاج وتحقيق ربح من ذلك .

وآراء ريكاردو أيضا هي عين هذه الآراء من الوجهة العلمية .
إن تزايد المال العامل أو رأس المال كان نتيجة للسحل . وما كان البخل ليعارس
لولا توقع مكافأة عن التضحية . لذلك كانت الفائدة حسب رأى هدين الكاتبين
هي المكافأة أو الإعراء الذي يُدفع عن المدخرات . وأصل الأرباح عند سميت هو
أن تشغيل رأس المال في الإنتاج يؤدي إلى قيمة رائدة للمنتج علاوة على قيمة
العمل ، ولذلك ليس هناك استعمال للعمل . وقد اعتبر ريكاردو كل رأس المال
عملا مختزبا ونسب كل قيمة إلى العمل . ولقد كان هذا هو الأساس الذي بنى
عليه كارل ماركس نظرية استعمال العمل في الاقتصاد الرأسمالي . ويفسر آدم
سميث وريكاردو معدل الفائدة ببساطة في تعليقهما بأنه : وقتا يمكن عمل الكثير
باستخدام المال يمكن إعطاء الكثير من أجل استخدامه ^(١) .

وحرم الإسلام الربا ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا
يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ
الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِدَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتْتَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ
عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . يَحِقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَبِزِيِّ الصَّدَقَاتِ
وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كِهَافٍ أَتَمٍّ ^(١) . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ
الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبِمَ فَلَكُمْ
رِعُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي
أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ^(٢) . ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ

(١) الإسلام والربا — تأليف أ. إقبال قرشي — ترجمة فاروق حلمي . (مكتبة مصر) .

(٢) البقرة ٢٧٥ ، ٢٧٦ (٣) البقرة ٢٧٨

(٤) آل عمران ١٣٠ ، ١٣١ .

وما آتيتكم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴿١﴾ .
وقال النسي — عليه السلام — : « الربا سبعون حربا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » .
وقال — عليه الصلاة والسلام — : « إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحموا بأنفسهم
عذاب الله » ، « وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أحموا بالرب » .

وخطب رسول الله — عليه السلام — أصحابه قال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من
الربا أعظم عند الله من ست وثلاثين زنية يربئها الرجل ، وإن أرى الربا يعرض
الرجل المسلم . ومن نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » . وقال رسول الله
— عليه السلام — : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ما هن ؟ قال : الشرك
بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال
اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات العافلات المؤمنات » . وقال —
صلوات الله وسلامه عليه : « رأيت الليلة رجلين أتياني فأخرجاني إلى أرض
مقدسة ، فاطلقا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين
يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد الرجل أن يجرح رمى الرجل
بمحجر في فيه فردّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليجرح رمى في فيه محجر فيرجع
كما كان . فقلت ما هذا ؟ فقال الذي رأيت في النهر أكل الربا » .

وقال — عليه السلام — : « درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم ، أشد من ست وثلاثين
رية » . ولعن رسول الله — عليه السلام — أكل الربا وموكله وكتابه وشاهده وقال : هم
سواء .

إن الإسلام حرم الربا لأنه ابتزاز لأموال المديين ، ولأنه لا يتفق مع فسيحة
الإسلام التي تنادى بالحق والعدل وتحريم الظلم ، ولأن الربا يشجع على إيجاد

طليقة من العاطلين الذين يعيشون على إقراض الناس فائض أموالهم أو ما ورثوه عن آباؤهم ، فيما الإسلام يقدس العمل ويحترم العاملين ولا يرضى عن أن يكون في مجتمعهم مصاصو دماء ، إلى أن الذين هم بالليل ومذلة بالنهار ، وما جاء الإسلام إلا ليحافظ على كرامة الإنسان ، والربا يشجع الناس على الإقراض والاقتراض ولا يرحب الإسلام بأن يزداد عدد المدينين من المسلمين لأن الدين يقضى على شرف الإنسان ويهدر كرامته ويريق ماء وجهه ، والإسلام يريد لأتباعه العزة والكرامة والشرف .

ولا صلة بين تحريم الربا ودم المال ، فالله تعالى قد سمى المال حراماً ، وقد قال — عليه السلام : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . وقال — عليه السلام : « كاد الفقر أن يكون كفراً » . والمال في الإسلام حادى ولا خادم له ، فهو ضرورة بقاء البدن الذى هو ضرورة كمال النفس ؛ فالمال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح ، أما الربا فهو مفسدة ، فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر . ولما كان الربا هو أيسر سبيل لكسب المال فهو غالباً ما يصرف في الشهوات وتحصيل اللذات ، ومن كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ، ومن احتاج إلى الناس فلا بد أن ينافقهم ويعصى الله في طلب رضاهم فينطلق في طريق الهلاك .

وأحد الربا يملأ قلوب المدينين بالعداوة للمرايين والحقود والخسد ، مما يفسد العلائق الطيبة بين أفراد المجتمع الواحد ، بينما أسمى أهداف الإسلام سلامة المجتمع من الحقود والكراهية والعضاء وسريان الحب والود بين الناس : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

والربا لا يعكر الاسجام الاجتماعى وحسب ، وهو ليس بدخلى غير مكتسب فقط ، بل إنه يفضى إلى العدوان الاقتصادى بريادة ثروة المرايين على

حساب المدين ، لذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز : « يحق الله الربا ويرى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » (١) . ولم يقتصر ضرر الربا على سيطرة أفراد على أفراد بل تجاوز ذلك إلى سيطرة دول دائنة على دول مدينة مما يؤدي إلى شعور بالمرارة بين المدينين ، الأمر الذي قد يقضى إلى عداوة مستترة سرعان ما تكشف عن وجهها .

والإقراض في الإسلام معونة وليس عملية تجارية لأن الإسلام دين الأخلاق قبل كل شيء ، ولأن رسول الإسلام عليه السلام قد بعث ليتمم مكارم الأخلاق . وإنه من مكارم الأخلاق مد يد العون إلى أخ في البشرية و ضيق مالى ، وإنه ليس من الأخلاق في شيء استغلال ضيقه لتحقيق كسب دون مجهود .

ويقول ميرزا محمد حسين في كتابه « الإسلام والاشتراكية » : « وقل الحداد الرأسمالية وما وصلت إليه من تدهور ، كان يعتقد أن الربا هو مفتاح الرخاء الاقتصادى ، ولذا قال الحاهلون : إن الإسلام بتحريم الربا بدائى ومتخلف يجمع تابعيه من سلوك الطريق إلى الرخاء ، وسسوا تخلف الدول الإسلامية في ميادين الصناعة إلى هذه الثغرة في النظرية الاجتماعية الإسلامية ، ولكن مطلق الإنسان المتهافت لم يصل إلى مستوى القوانين القرآنية في علاج المشاكل الاجتماعية الاقتصادية ، والعارفين تعاليم القرآن الكريم حقيقة لم يحدعوا بالثروات الطائلة والسيطرة الاقتصادية التي للغرب لأن هذا لم يحصى عن الأنظار الفقر والعور الذي تعانيه الجماهير الضخمة هاك .

والاستعمار وتشبيد الإمبراطوريات بدور هامطهر آخر للمساد والعراة في

الحصارة الأوروبية، والإسلام الذى لا يستأنس غريزة الجشع لن يقبل بأى شئ مثل هذا الأمر الذى يسعد قلة من الناس على حساب الملايين . وقد حاول بعض الناس أن يفرق بين « الريح » و « الربا » وقالوا بأن الريح كسب مباح نظير استعمال المال وحرمان الشخص لنفسه من ذلك أمر لا مبرر له . وهذا نوع من اللجاجة . سمه كما شئت — ربحاً أو ربا — فهو عمل ضار بالجماعة تحت أى اسم كان . وكلمة « ربا » العربية تعنى الزيادة التى تعطى عن المال المقترض ؛ وسواء كان « الريح » يعطى نظير خطر ضياع المال المقترض أو نظير حرمان صاحبه منه إلى أن يرد فهو حرام . ولن يغير هذا الاسم المقبول من طبيعة هذا العمل الذى لعنه الإسلام . ويروى فضالة عن النبى — ﷺ — أنه قال بأن كل دين يعطى ربحاً فهو ربا (البيهقى الجزء الخامس) ، وفى هذا ما يقطع الجدل ويهدم كل حجة للإبقاء على « الربا » تحت اسم أو آخر (١) .

وأحاديث النبى — ﷺ — توضح أنواع الربا ، فقد قال — صلوات الله وسلامه عليه — ينهى عن بيع صاعين من أنواع متفرقة من التمر بصاع من تمر جيد فى حديث عن أنس سعيد الخدرى : « كما يبرق تمر الجمع وهو الخلط من التمر ، وكنا نبيع صاعين بصاع فقال النبى — ﷺ — لا صاعين بصاع ولا درهمين بدرهم » .

وقال عليه الصلاة والسلام فى بيع التمر بالتمر والشعير بالشعير والبر بالبر : « البر بالبر ربا إلا هاء وهاء (٢) ، والشعير بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء » . وقد نهى — عليه السلام — عن بيع الرطب بالتمر وبيع الكرم بالبريب ،

(١) الإسلام والاشتراكية — تأليف مبرر محمد حسين — ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب .

(٢) هاء وهاء معناها حد وهاه يعنى مألوفة

ويسمى هذا البيع مرابحة، والمزادة أن يبيع التمر بكيل إن زاد فلي وإن نقص فعلى .
 واتمس مالك بن أوس صرفاً مائة دينار فدعاه طلحة ابن عبيد الله فتراو صا
 حتى اضطرف منه ، فأخذ الذهب يقلبها في يده ثم قال حتى يأتي حازي من الغابة .
 وعمر يسمع ذلك فقال : « والله لا تفارقه حتى تأخذ منه . قال رسول الله —
 ﷺ : الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء ، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء ، والشعير
 بالشعير ربا إلا هاء وهاء ، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء . »

وسب اعتبار الذهب والبر والشعير ربا إذا أجل التسليم أن لهذه الطيات
 أسعاراً وقت الأخذ قد تتعرض للارتفاع أو الانخفاض وقت العطاء مما يعود
 بالضرر على أحد طرفي الصفقة ، وهذا يتعارض مع المبدأ الإسلامي القائل : لا
 ضرر ولا ضرار ، فالإسلام يحافظ على مصالح الناس ويأبى أن يفرط فيها .

وقال — ﷺ — في بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة : « لا تبيعوا
 الذهب بالذهب إلا سواء بسواء ، والفضة بالفضة إلا سواء بسواء ، وبيعوا الذهب
 بالفضة كيف شئتم . » ونهى — ﷺ — أن تباع بصاعة حاضرة ببصاعة مؤجلة ،
 فللبصاعة الحاضرة سعر معلوم بينما البصاعة المؤجلة لا يعلم سعرها ، فقد ترتفع
 الأسعار أو تنخفض فيضر أحد طرفي الصفقة : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا
 مثلاً بمثل وتشقوا (تفصلوا) بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق (الفضة)
 بالورق إلا مثلاً بمثل ولا تشقوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائباً بناجر . »
 وقال — ﷺ — إن بيع الورق بالذهب ديناً نسيئة ، وأنه لا بد من بيع الذهب
 بالورق بدا بيد . ونهى عن بيع الثمر حتى يلدو صلاحه : « لا تبيعوا الثمر حتى
 يلدو صلاحه . »

كان الناس في عهد رسول الله — ﷺ — يتابعون الثمار ، فإذا جدَّ الناس
 (قطعوا الثمار) وحضر تقاضيهن قال المبتاع : إنه أصاب الثمر الدُّمَاء (فساد

الطلع) ، أصابه مراض ، أصابه قشام (انتفاض ثمر النحل) ، عاهات يمتحنون بها ، فقال رسول الله ﷺ — لما كثرت عنده الخصومة في ذلك : فإما لا ، فلا تباعوا حتى يبدو صلاح الثمر . وقال جابر بن عبد الله : « هبى السى — ﷺ — أن تاع الثمرة حتى تُشقق . فقيل : وما تشقق ؟ قال : تحمارٌ ونصفارٌ ويؤكل منها . واستعمل رسول الله ﷺ — رجلاً على خير فحماه بثمر حبیب (طيب) ، فقال رسول الله ﷺ — :

— أكل تمر خير هكذا ؟

— لا والله يا رسول الله ، إنا لأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة .

كان الرجل يقصد أنه يأخذ صاعاً من تمر جيد مقابل صاعين أو ثلاثة من تمر الجمع ، فقال رسول الله ﷺ :

— لا تفعل ، بع الجمع بالدرهم ، ثم ابتع بالدرهم جنباً .

وروى أنس أن النسي — ﷺ — سبى عن بيع ثمر التمر حتى تزهو ، فقالوا لأنس :

— ما زهوها ؟

— تحمر وتصفّر ، أرأيت إن منع الله الثمرة بم تستحل مال أخيك ؟!

أحل الله البيع وحرم الربا ، فلا غنى لمجتمع عن البيع والتجارة ، وقد نظم الإسلام التجارة فلم يترك للتجار الحيل على العارب ، بل وصع من الأصول وحص على حس المعاماة وحس الية مما جعل المجتمع الإسلامى فى العهود التى ساد فيها الإسلام المثل الأعلى للعلاقات الطيبة فى المعاملات التجارية ؛ فقد كانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام حتى قال بعضهم : « من أنفق الحرام فى الطاعة فهو كمن طهر الثوب بالبول » . وقال : « لأن أردّ درهما من شبهة

أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف ومائة ألف . وقال ﷺ : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهة ، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك ، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان ، والمعاصي حمى الله من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقع » .

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهيمة ، له مكيالان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأمر الله تعالى : « ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » (١) .

كان أهل المدينة أبخس الناس كيلا ، فلما نزلت حرمة التطفيف أحسنوه وأصبحوا إذا كالوا الناس أو وزنوهم يستوفون .

وأقبل رسول الله ﷺ — على المهاجرين فقال :

— يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم من وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعسوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا . ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وحرور السلطان عليهم . ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلبوا عليهم عدوهم فآخذوا بعض ما في أيديهم ، ولم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم .

وقد أمر القرآن الكريم بتأدية الأمانة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » (٢) . وقال ﷺ :

— الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والورن أمانة، والكيل أمانة، وأشد ذلك الودائع .

وكان ابن عمر يمر بالبائع يقول :

— اتق الله وأوف الكيل والوزن ، فإن المظميين يوقعون حتى إن العرق ليلجُمهم إلى أنصاف آذانهم .

وسمى الإسلام عن العش وحرمة ، فقد قال — ﷺ : « من حمل السلاح علينا فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » .

ومر عليه السلام على كومة طعام فأدحل يده فيها فنالت أصابعه بلالا ، فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

وسمى عن خلط اللبن بالماء : « لا تشوبوا اللبس للبيع » . وزين إظهار ما في البصاعة من عيب : « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم إذا باع من أخيه يبعاه عيب أن لا يبينه » . وقال : « المؤمنون بعضهم لبعض بصحة ، وأثون وإن بعدت منازلهم وأبدانهم ، والفرجة بعضهم لبعض غششة ، متخانون وإن اقتربت منازلهم وأبدانهم » .

أحل الله التجارة لتعارف القبائل والشعوب ولقضاء حاجات الناس لتستمر الحياة ، ولكن الله سبحانه وتعالى قال إن ما عده حرام من اللغو والتجارة حتى لا يغمس الناس في طلب الماديات ، فليس بالخيز وحده يحيا الإنسان : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رآوا تجارة أو هوا انفسوا إليها وتركوا قائما قائل ما عند الله خير من

اللهو ومن التحارة والله خير الرازقين» (١).

كان القوم يتابعون ويتجرون ولكمهم إذا ما هم حق من حقوق الله لم تلههم تحارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله. إسمهم كانوا يعيشون للدنيا والآخرة وما كانت الدنيا تطعمي على الآخرة وما كانت الآخرة تطغي على الدنيا، وإن كان العقلاء يدحرون الطيبات في الدنيا للآخرة. وقد جعل الإسلام طلب الحلال فريضة فقال سبي الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه : « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة ». وقد مر رسول الله — ﷺ — بابته الأثيرة عبده فاطمة الرهراء وهي مضطحمة متصححة ، فحركها برجله ثم قال :

— يا سبية قومي فاشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين ، فإن الله يقسم أوراق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

إن طلب كسب الرزق الحلال في الإسلام فريضة بعد الفريضة ، فالإسلام يعمل على إيجاد المجتمع المتوارن ، المجتمع الذي يسلم وجهه لله في الأرض بحثا عن رزقه امتثالا لأوامر الله . إنه الدين والمذهب الاقتصادي الذي يحقق الاستجماع بين أطماع الفرد وسلامة الجماعة : « يأبى الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تنعوا أخطاء الشيطان إنه لكم عدو مبين » (٢) . « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » (٣) .

والإسلام يبارك العمل ، فرسول الله — ﷺ — يقول : ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده . ويفصل العمل عن سؤال الناس مهما كان نوع العمل : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه » . ويحض على السهولة والسماحة في الشراء والبيع : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا

اقتضى» ، ولم يكتف بأن يعلم الناس طلب الحق في عفاف بل إنه يأمر بأن يسر على المومر ويتجاوز عن المعسر . قال — ﷺ — : « كان تاجر يدين الناس ، فلما رأى معسرا قال لفتيانہ تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عا » .

والإسلام لا يحل لامرئ يبيع سلعة يعلم أن لها داء إلا أحبره ، فقد كتب رسول الله ﷺ — للعداء بن خالد : « هذا ما اشترى محمد رسول الله — ﷺ — من العداء بن خالد يبيع المسلم المسلم لا داء ولا حبة ولا عالة » . أى أن المسلم لا يبيع من طيبات الله إلا الطيب الذى لا عيب فيه ولا سرقة ولا زنا .

وقال — ﷺ — : « السبعان بالخيار حتى يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

إن الإسلام ينشد الطهارة في البدن والنفس وطهارة المعاملات ، فلا غش ولا تدليس ولا تطفيف في اميزان ، ولا إخفاء ما في المضاعة من عيوب ، وقد حص على طلب الحلال وترك الحياث فأصبح المسلمون يترهون من الشبهات حتى إن رسول الله — ﷺ — مر بثمره مسقطه فقال : « لولا أن تكون صدقة لأكتنها » . وكانت صفة المؤمنين البارزة التحرر والخوف من المحرمات ، وقد قال رسول الله — ﷺ — : « ليأتين على الناس زمان لا ينال المرء بما أخذ المال أمن حرام أم من حلال » .

ويكره الإسلام الحلف في البيع ، فقد رُوِّح رجل سلعة وهو في السوق فحلف بالله لقد أعطى بما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين فنزلت : « إن الدين يشترى بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم » (١) .

والإسلام يكره أن يخرج المشترون للقاء قوافل التجارة قبل أن تصل الطيبات إلى الأسواق ، لأن ذلك لا يتيح للجميع تكافؤ الفرص ، فالأقوياء قد يحصلون على حاجاتهم بينما الضعفاء ينتظرون في الأسواق ورود الطيبات . وقد كان الناس على عهد رسول الله ﷺ — يشترون الطعام من الركيان فكان — عليه السلام — يبعث عليهم من يجمعهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام ، فتاح للناس جميعا فرصة الشراء .

والإسلام يحرم الاحتكار ويعدّه من الكبائر ، وقد قال — ﷺ : « من احتكر طعاما فهو خاطئ لله » ، وقال — عليه السلام : « من احتكر طعاما أربعين ليلة فقد برىء من الله وبرىء الله منه . وأما أهل عريضة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تارك وتعالى » .

وقال — ﷺ : « الحالب مرزوق والمحتكر ملعون » . وقال — ﷺ : « بشس العبد المحتكر ، إن أرحص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح » .

التطقيف حرام ، والغش في البيع والشراء ، والاحتكار ، وإن التاجر الأمين مع النبيين . قال — ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » . وقال : « إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا ائتموا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا كان عليهم لم يظلموا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

وقال — ﷺ — لأبي ذر :

— ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم .

— خابوا وحسروا ! من هم يا رسول الله ؟

— المُسبِل إزاره ، والممان عطاءه ، والمفق سلعته بالخلف الكاذب .

أرهب الإسلام حس المسلمين فكانوا يتبعون أوامر الله ويتجنبون نواهيه ،

(حجة الوداع)

وكانوا ينفذون ما عهدوا عليه رسول الله — ﷺ . أتى جرير بن عبد الله البجلي رسول الله — ﷺ — فقال :

— أبا يعك على الإسلام .

فشرط — ﷺ — عليه :

— والنصح لكل مسلم .

فبايعه على ذلك . وحدث أن أمر جرير مولاه أن يشتري له فرسا فاشترى له فرسا بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس :

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بخمسمائة درهم ؟

— ذلك إليك يا أبا عبد الله .

— فرسك خير من ذلك ، أتبيعه بستائة درهم ؟

ثم لم يزل يريد مائة مائة وصاحبه يرضى وجرير يقول : « فرسك خير » إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقبل له في ذلك فقال :

— إني بايعت رسول الله — ﷺ — على النصح لكل مسلم .

ونهى الإسلام أن يبيع الرجل على بيع أخيه ، أو أن يزيد في الثمن بلا رغبة في الشراء بل ليغريره ، أو أن يبيع حاصر الباد ، فقد هي — ﷺ — أن يبيع حاضرا لئلا وقال : لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا تاجشوا (١) .

ولا بأس في الإسلام ببيع المزايدة فقد كان الناس لا يرون بأسا ببيع المغام فيمن يزيد .

ولا يقبل في الإسلام اشتراط شروط لا تحل : جاءت بريرة إلى عائشة

(١) التاجشة ، من التجش ، وهو أن يريد في الثمن بلا رغبة بل يعر غيره .

أم المؤمنين فقالت :

— كاتبت أهلى على تسع أواق فى كل عام أوقية فأعينى .

— إن أحب أهلك أعدها لهم ، ويكون ولاؤك لى فعلت .

فدهبت بريرة إلى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله ﷺ — جالس عند عائشة فقالت :

— إنى قد عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم .

فسمع النبى — ﷺ — فأخبرت عائشة النبى — عليه السلام — فقال :

— حديها واشترطى لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق .

ففعلت عائشة ، ثم قام رسول الله — ﷺ — فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال :

— أما بعد . ما بال رجال يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله ؟ ما كان من

شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط . قضاء الله أحق وشروط

الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق .

وقضى النبى — ﷺ — بالشفعة فى كل مال لم يُقسم . فإذا وقعت الحدود

وصُرِّفت الطرق فلا شفعة ، والشفعة فى بيع الأرض والدور والعروض . وصرح

بالشراء والبيع مع المشركين ، وبحلود الميتة قبل أن تدبغ ، فقد مر رسول الله

— ﷺ — بشاة ميتة فقال :

— هلا استمتعتم بهاها ؟

— إنها ميتة .

— إنما حُرِّم أكلها .

وحرم الإسلام بيع الحر وجعله إنما كبيرا ، قال رسول الله — ﷺ — :

— قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل

باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً ، فاستوفى منه ولم يعطه أجره .
 يأمر الإسلام أن يعطى أجر الأجير قبل أن يحف عرقه ، ليسعد بالأجر
 ويستشعر أنه مكافأة عن العمل والجهد والعرق . وكان صحابة رسول الله
 — ﷺ — تحاروا زرعاً وصاعاً ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف
 وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب كانوا يشتغلون بالتحارة ، وكان الزبير
 ابن العوام وسلمان الفارسي وكثير من الأنصار يشتغلون بالزراعة ، وكان حباب
 ابن الأرت حدادا ، وكان كثير من الرجال والنساء يشتغلون بالنجارة ، فقد بعث
 رسول الله — ﷺ — إلى امرأة من الأنصار أن مرى غلامك النجار يعمل لي
 أعواداً أجلس عليهن إذا كلمت الناس ، فعمل له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد
 السى — ﷺ — على المنبر الذى صنع .

ولا ينظر الإسلام كالأشتركية بعين الرضا إلى جمع الثروات دون مراعاة
 لصالح المجتمع لما لذلك من نتائج مريعة تلحق بالجماعة ، ولكنه يتخذ لنفسه
 أسلوباً آخر ، ونظامه هو التدرج الاقتصادى الاجتماعى الذى لا يتجاهل خير
 المجموع .

قال تعالى : ﴿ والله ييسر الرزق لمن يشاء ﴾ (١) .

وهو يبيح للإنسان كسب المال وتملكه ، ولا يعتبر المشاريع الاقتصادية
 الفردية حراماً ببغى أن يتحسه الناس ولكنها إذا ما اتخذت دوراً عدوانياً يلحق
 الضرر بالجماعة أو يحرم أباءها من وسيلة كسب العيش فإنه لا يوافق عليها ، وقد
 سد الإسلام الطريق في وجه كل ما قد تنحى إليه التجارات والأعمال من
 تطورات ضارة .

وقد سمح الإسلام بالملكية الفردية من أجل تشجيع الابتكار الفردى وإنقاذ الفرد من أن يصبح مجرد آلة مسيرة، كما أعطاه الحق فى أن يتسع نشاطه المالى كما يشاء ما دام غير متجاوز الحدود التى تحل بالتوازن الاجتماعى . ومن أجل ضمان نمو التجارة والصناعة نموا صحيحا سليما وضع الإسلام قيودا لحرية النشاط الشخصى ، ذلك لما بين الملكية الخاصة والمصلحة العامة من علاقة حيوية تحتم ضرورة الاحتفاظ بالانسجام فيما بينهما ^(١) .

« لن تستطيع الدولة المسلمة تحقيق الرسالة الإلهية التى أقيمت على عاتقها إلا إذا جرد أفرادها أنفسهم من الطمع والبخل وخلصوا عقولهم من الرغبة فى العدوان على بعضهم البعض . والآيات القرآنية تسد الطريق على هؤلاء الذين يكتزون المال ويستعلون الظروف لتحقيق الكسب وتضخم الثروات بحيث يصبح خطرا على الجماعة ، كما ترى أمام أعيننا فى ظل الرأسمالية الفاسدة ، هذا النظام الذى أفسد نشاط الدولة لتحقيق مصالح الناس بشعاره المزيف « حرية العمل وحرية الانتقال » ، والذى يغرى الفرد بالتنافس لتحقيق الربح ولو أصبح جوارحه شحاذين .

ولقد لعن الإسلام كل نظام يقوم على المبدأ الهدام القاتل « كل فرد لنفسه وليذهب الآخرون إلى الجحيم » . وحرّم أساليب التنافس الخسيس الذى يشبه تنافس الكلاب على أكل بعضها البعض ، والإسلام لا يسمح بمثل هذا التنافس الاجتماعى الهدام لأن وجود فرد مفرط الغنى يعنى عبودية اقتصادية للكثيرين ، والكسب المفرط الزائد على حاجة الأفراد مزرعة خصبة ينمو فيها الصدام الطبقي . ولن تتحقق أحوة اجتماعية دائمة إذا فصلت بين الطبقات هوات

(١) الاشتراكية والإسلام — ميرزا محمد حسين .

اقتصادية عميقة ، بل سيكون هناك طائفة من السادة في ناحية وطائفة من المستعبدين في ناحية أخرى ، وحرصا من الإسلام على القضاء على هذه التفرقة التي تفضي إلى تحكم طبقة في أخرى ، نهى عن الربح الحشع والتهوس في طلب الثروة ، والآية الكريمة : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ۝ سورة البقرة — مليئة بالدلالة فهي تؤيد أن ما خلقه الله من خير ملك للجماعة الإنسانية في عمومها ، وليس لإنسان كائنا من كان أن يحتفظ لنفسه بصيب الأسد من هذا الخير المشترك ۝ (١) .

إن الثروة الزائدة أو « العفو » لا يصح أن تبقى في يد مالكها بل عليه أن يتحلل عنها بطريقة تحقق الخير العام : ﴿ ويسألوك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ۝ (٢) . ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ۝ (٣) .

والإسلام يعمل على إعادة توزيع الثروة تحقيقا للخير العام وذلك بغرض الزكاة على القادرين ، ثم حص الأغنياء على إنفاق فضول أموالهم لما فيه مصلحة الجميع : ﴿ وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ۝ (٤) .

ويروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « من كان عنده فضل ظهر فليعده على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعده على من لا زاد له » . قال : فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل .

وقال د. د. سانتيلاني في كتابه تراث الإسلام : « لكل إنسان الحق في ملكية أي

(١) المصدر السابق . (٢) البقرة ٢١٩

(٣) الأعراف ١٩٩ (٤) البينة ٥

شيء لأن خيرات الدنيا قد خلقت من أجل نفع الناس، ولكن الله سبحانه وتعالى بإباحة الملكية قد وضع حدوداً تبين لكل فرد نصيبه الذي محله إياه من هذه الثروة المشتركة، فوضع بذلك أساساً لتأمين النظام الاجتماعي. ومن الخطأ أن يظن الفرد أنه لا حدود لحق الملكية، لأن تقرير هذا الحق والغاية التي من أجلها تقرر أن يكون له حدود يقف عندها. وقد منح الله خيرات الأرض للإنسان ليتمكن من الحياة، أي ليستعملها استعمالاً نافعاً لا ليعثرها هنا وهناك دون هدف خضوعاً لروايات تافهة، ويعتبر القرآن والحديث الشريف استهلاك المال في غير حاجة حقيقية استعمالاً سيئاً غير مباح. والتبذير نوع من الهوس في نظر الإسلام الذي يصر على التوسط في إنفاق المال لأن التوسط أمر يتفق مع طبيعة الأشياء، ومع الغرض الذي من أجله أسبغ الله على الإنسان نعمه.

والزكاة تقيض الربا، فالربا جشع وطمع واستغلال وضرر بالخير العام، بينما الزكاة سماحة وجود وإنفاق في سبيل الخير العام استجابة لأمر الله صاحب المال: «يحق الله الربا ويرى الصدقات»^(١).

جعل الله الزكاة أساساً للدين وإحدى مبادئ الإسلام وقرنها بالصلاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢). ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسْبُنَا اللَّهُ وَآتُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٣) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدُمُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ خَيْرٍ تُجَدِّدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤) ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٥)، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٦).

(١) البقرة ٢٧٦	(٢) البقرة ٤٣
(٣) البقرة ٨٣	(٤) البقرة ١١٠
(٥) البقرة ٢٧٧	(٦) النساء ١٦٢

وقال — ﷺ : « بنى الإسلام على خمس » : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وشدد الله الوعيد على المقصرين فيها فقال : ﴿ والذين يكتزون الذهب والمضة ولا ينفقونها في سبيل الله مبشرينهم بعذاب أليم ﴾ . ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة .

وقال أبو ذر : « انتهيت إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس في ظل الكعبة ، فلما رآني قال : هم الأخسرون ورب الكعبة . فقلت : ومن هم ؟ قال : الأكثرون أموالا إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم . ما من صاحب إبل ولا بقرة ولا غنم لا يؤدي ركاتنا إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمته تنطحه بقرونها وتطؤه بأطرافها كلما نفدت أخرها عادت إليه أولها حتى يقضى بين الناس .

ولا تجب ^(١) الزكاة وغيرها إلا على حر مسمم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون . هذا شرط من عليه ، وأما المال فشرطه خمسة :

١ — أن يكون نعماء فلا زكاة إلا في الإبل والبقرة والعنم أما الخيل والبغال والحمير والمتوالد من بين الطبء والعنم فلا زكاة فيها ، وقد وضعت الزكاة عن الخيل لأنها عدة القتال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ^(٢) .

٢ — سائمة ، فلا زكاة في معلوفة ، وإذا أسيت ^(٣) في وقت وعلفت في وقت تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها .

٣ — حال عليها الحول ، قال — ﷺ : « لا زكاة في مال حتى يحول عليه

(١) كتاب أسرار الزكاة ، إحياء علوم الدين للغزالي .

(٢) الأنفال ٦٠

(٣) السوم : الرعى بالهمس . أسيت . رعت ببعضها .

الحول ، ويستثنى من هذا نتاج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لأول الأصول ، ومهما باع المال في أثناء الحول أو وبه انقطع الحول .
 ٤ — كمال الملك والتصرف : فتجب في الماشية الموهونة لأن صاحبها هو الذى حجر على نفسه في ملكيته ، ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع ثمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ، ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنيا به ، إدا الغنى ما يفصل عن الحاجة .

٥ — كمال النصاب : أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ خمسا ففيها جذعة من الضأن — والجذعة هي التى تكون في السنة الثانية — أو ثنية من المعز — وهى التى تكون في السنة الثانية — وفي عشر شاتان ، وفي خمس عشرة ثلاث شياه ، وفي عشرين أربع شياه ، وفي خمس وعشرين بست محاص — وهى التى في السنة الثانية ، فإن لم يكن في ماله بست محاص فإن لبون ذكر — وهو الذى في السنة الثانية — يؤخذ وإن كان قادرا على شراؤها . وفي ست وثلاثين : إبه لون ، ثم إذا بلغت ستا وأربعين ففيها حقة — وهى التى في السنة الرابعة ، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة — وهى التى في السنة الخامسة ، فإذا صارت ستا وستين ففيها بنتا لبون — فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان ، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون ، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففى كل خمسين حقة وفي كل أربعين بنت لبون .

أما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع — وهو الذى في السنة الثانية ، ثم في أربعين مسنة — وهى التى في السنة الثالثة ، ثم في ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ففى كل أربعين مسنة وفي كل ثلاثين تبيع .

وأما العسم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز ، ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان ، إلى مائتي شاة

وواحدة ففيها ثلاث شياه، إلى أربع مائة ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب في كل مائة شاة .

وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصاب، فإذا كان بين رجلين أربعون من العنم ففيها شاة، وإن كان بين ثلاثة نمر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة على جميعهم، وخلطة الجوار كخلطة الشيوخ ولكن يشترط أن يربحها معا ويسقى معا ويحلبها معا ويسرحها معا ويكون المرعى معا ويكون إنزاء الفحل معا وأن يكونا جميعا من أهل الزكاة، ولا حكم للخلطة مع الدمى والمكاتب .

ويجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من، ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب، ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمر أو ربيبا لا رطبا وعنبا، ويخرج ذلك بعد التجفيف .

ويكمل مال أحد الخليطين بمال الآخر في خلطة الشيوخ، كالستان المشترك بين ورثة لجميعهم ثمانمائة من من زبيب، فيجب على جميعهم ثمانون منا من ربيب بقدر حصصهم. ولا يعتبر خلطة الجوار فيه، ولا يكمل نصاب الخلطة بالشعير، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه .

هذا قدر الواجب إن كان يسقى بيسح أو قاة، فإن كان يسقى بنضج (حمل السقيا) أو دالية (دلو) فيجب نصف العشر، ذلك لأن الإسلام لا يحرم العمل من نصيبه، فإن اجتمع السقاية بالمطر أو القنات والسقاية بالدلاء أو جمال السقيا فالأغلب يعتبر .

أما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عسب ولا رطب إلا إذا حلت بالأشجار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب، ووقت الأداء بعد الجفاف .

وفرضت الزكاة على التقدين ، فإذا تم الحول على وزن مائتى درهم بقرة خالصة ففيها خمسة دراهم وهو ربع العشر ، ولو زاد فبحسابه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالا خالصا ففيها ربع العشر ، وما زاد فبحسابه وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة . وتحب على من معه دراهم مفضوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . وتحب الزكاة في التبر وفي الحلى المخطور كأواني الذهب والفضة ومراكب الذهب للرجال ولا تحب في الحلى المباح ، وتحب في الدين الذى هو على ملىء ولكن تحب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلا فلا تحب إلا عند حلول الأجل .

وفرضت الزكاة على التجارة ، وهى كزكاة التقدين وإنما يعقد الحول من وقت ملك التقدين الذى بها اشترى البضاعة إن كان النقد نصابا ، فإن كان ناقصا أو اشترى بعرض على نية التجارة فالحول من وقت الشراء ، وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم ، فإن كان ما به الشراء نقدا وكان نصابا كاملا كان التقديم به أولى من نقد البلد . ومن بوى التجارة من مال قبية فلا يعقد الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئا ، ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة ، والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح فى السلعة فى آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كما فى التاج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمداغة الجارية بينهم كسائر التجارات .

وتحب الزكاة فى الركاز والمعادن ، والركاز مال دفن فى الجاهلية ووجد فى أرض لم يجر عليها الإسلام ملك . فعلى واجده فى الذهب والفضة منه الخمس والحول غير معتبر ، والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضا ، لأن إيجاب الخمس يؤكد شبهه بالغبية ، واعتباره أيضا ليس ببعيد لأن مصرفه مصرف الزكاة ، لذلك يخصص على الصحيح بالتقدين .

وأما المعادن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ففيها بعد الطحن والتحليص ربع العشر على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب ، وفي الحول قولان ، وفي قول يجب الخمس ، فعلى هذا لا يعتبر ، وفي النصاب قولان ، والأشبه والعلم عند الله تعالى أن يحق في قدر الواجب زكاة التجارة فإنه نوع اكتساب ، وفي الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرفق ، ويعتبر النصاب بالمعشرات . والاحتياط أن يخرج الخمس من القليل والكثير ومن عين النقيدين أيضا حروجا عن شبهة هذه الاختلافات ، فإنها ظنون قريبة من التعارض ، وجزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

وصدقة الفطر واجبة على لسان رسول الله ﷺ : « على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليته صاع مما يقتات » ، بصاع رسول الله ﷺ — وهو منوال وثلاثون من يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه . فإن اقتات بالحنطة لم يجز الشعير ، وإن اقتات حبوبا مختلفة اختار خيرها ومن أيها أخرج أجزأه . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ، ولا يجوز إحراح الدقيق والسويق .

ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده وكل قريب هو في نفقته ، أعنى من تحب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد ، قال — ﷺ : « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون » . وتحب صدقة العبد المشترك على الشريكين ولا تحب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجرأها ، وللزوج الإحراح عنها دون إذنها ، وإن فصل عنه ما يؤدي عن بعضهم أدى عن بعضهم .

ولأداء الزكاة شروط باطلة وطاهرة ، فيجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

١ — البية، وهو أن ينوى بقلبه زكاة الغرض، ويسن عليه تعيين الأموال. فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالي العائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة جاز، لأنه إن لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه. ونية الولي تقوم مقام نية المحنون والصبي، ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع عن الزكاة، ولكن في ظاهر حكم الدنيا أعنى قطع المطالبة عنه، أما في الآخرة فلا، بل تبقى دمنه مشعولة إلى أن يستأنف الزكاة.

وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عبد التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه، لأن توكيله بالنية.

٢ — البدار عقيب الحول، وفي زكاة الفطر لا يؤثرها عن يوم الفطر، ويدخل يوم وحوها بعروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان، ووقت تعجيلها وقت رمضان كله. ومن أخر زكاة ماله مع التمسك عصي ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمككه بمصادفة المستحق، وإن أحر لعدم المستحق فتلف ماله سقطت الزكاة عنه.

وتعجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب واعتقاد الحول، ويجوز تعجيل زكاة حولين ومهما عجل فمات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنياً بعير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات فالدفع ليس بزكاة واسترجاعه غير ممكن، إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع، فليكن المعجل مراقباً آخر الأمور وسلامة العافية.

٣ — ألا يخرج بدلاً باعتبار القيمة، بل يخرج المصوص عليه، فلا يجزئ ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة. ولعل بعض من لا يدرك عرص الشافعي رضي الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبعدته عن التحصيل، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود، بل

واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبد محض لا مدخل للحفظ والأغراض فيه ، وذلك كرمى الجمرات مثلا إذ لا حط للجمرة في وصول الحصى إليها ، فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط للمعنى آخر ، وأكثر أعمال الحج كذلك ، ولذلك قال — ﷺ — في إحرامه : لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورفا . تنبيها على أن ذلك إظهار للعبودية بالانقياد بجرد الأمر وامتناله ، كما أمر من غير استئناس العقل بما يميل إليه ويحث عليه .

القسم الثاني : من واجبات الشرع ما المقصود منه حفظ معقول وليس يقصد منه التعبد ، كقضاء دين الآدميين ورد المغصوب ، فلا جرم لا يعتبر فيه فعله ونيته ، ومهما وصل الحق إلى مستحقه يأخذ المستحق أو يبدل عنه عند رضاه تأدى للوجوب وسقط خطاب الشرع ، فهذان قسمان لا تتركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس .

والقسم الثالث : هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعا ، وهو حفظ العباد والامتحان المكلف بالاستعباد . فيجتمع فيه تعبد رمى الجمار وحظ رد الحقوق ، فهذا قسم في نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب الجمع بين المعنيين ، ولا ينبغي أن ينسى أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلاهما ، ولعل الأدق هو الأهم ، والزكاة من هذا القبيل . ولم ينتبه له غير الشافعي رضي الله عنه ، فحط الفقير مقصود في سد الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام ، وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مبادئ الإسلام . ولا شك في أن على المكلف تعبنا في تمييز أجناس ماله وإخراج حصة كل مال من نوعه وجنسه وصفته ، ثم

توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي ، والتساهل فيه غير قادح في حط الفقير ولكه قادح في التعبد ، ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعُدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النقيدين والتقويم ، وإن قدر أن ذلك لقلة النقد في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الشاتين ، فلم لم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر بعشرين درهما وشاتين ، وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها ؟ وهذا وأمثاله من التخصيصات تدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ، ولكن جمع بين المعنيين ، والأدهان الصعيقة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط فيه .

الرابع : ألا ينقل الصدقة إلى بلد آخر ، فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أمواها وفي النقل تخيب للظنون ، فإن فعل ذلك أجزأه في قول ، ولكن الخروج عن شبه الخلاف أولى ؛ فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة ، ثم لا بأس أن يصرف على الغرباء في تلك البلدة .

الخامس : أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب ، وعليه يدل ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهِمَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(١) . فإنه يشبه قول المريض إنما تلت للفقراء والمساكين وذلك يقتضي التشريك في التملك ، والعبادات ينبغي أن يتوقى عن المحجوم فيها على الظواهر ، وقد عدم من الثمانية صنفان في أغلب البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ، ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف :

الفقراء والمساكين والعاميون والمسافرون — أعنى أبناء السبيل ، وصنعتان يوجدان في بعض البلاد دون البعض وهم العزاة والمكاتبون ، فإن وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقسام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم ، ثم قسم كل قسم ثلاثة أسهم فما فوقه إما متساوية أو متقاربة ، وليس عليه التسوية بين أحاد الصنف فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فيقص نصيب كل واحد ، وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والقصص ، فلا يسفى أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن حدث ثم لم يجب إلا صاع للفطرة ، ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً ، ولو نقص منهم واحد مع الإمكان عزم نصيب ذلك الواحد ، فإن عسر عليه ذلك لقله الواجب فليشارك جماعة ممن عليهم الزكاة وليخلط مال نفسه بمالههم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتساوهوا فيه ، فإن ذلك لا بد منه .

وليان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة اعدم أن على مريد طريق الآخرة بركاته وظائف :

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها وجه الامتحان فيها وأنها لم جعلت من مبادئ الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاثة معان : الأول أن التلقظ بكلمتى الشهادة الترام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به ألا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد العرء ، فإن المحبة لا تقبل الشراكة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون هذا العالم ويمرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصدق دعواهم في المحبوب واسترلوا عن المال الذى هو مرموقهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنِ اللّٰهُ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿١﴾ وذلك بالجهد وهو مساعمة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل ، والمساعمة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدحروا ديناراً ولا درهما فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيحب علينا الذر ، وهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله ، فقال — ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال : مثله ، وقال لأبي بكر رضي الله عنه : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : الله ورسوله . فقال — ﷺ : بيكما ما بين كلمتيكما ، فالصديق ومي بنام الصديق فم يمسك سوى المحبوب عنده ، وهو الله ورسوله .

القسم الثاني : درحتهم دون درجة هذا ، وهم المسكون أموالهم المراقبون لما بقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإيفاق على قدر الحاجة دون التمتع وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر ، مهما ظهر وجودها .

وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة ، وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالحمى والشعبي وعطاء ومحاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ وَأَقِمْ وَآفِ الْمَالِ عَلَى حَبِ دَوَى الْقُرَى ﴾ (٢) . واستدلوا بقوله عز وجل : ﴿ وَمَا رَرَقَاهُمْ يَنْفَقُونَ ﴾ (٣) . ويقول تعالى : ﴿ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَاكُمْ ﴾ (٤) . وزعموا أن

(٢) البقرة ١٧٧

(١) التوبة ١١١

المافقون ١٠

(٣) البقرة ٣

ذلك غير مسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يحب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فصلاً عن مال الزكاة ، والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرفقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية ، إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا بتسليم ما يزيل الحاجة قرضاً ، ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض ، أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف . والاقتراض برول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث : الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه ليخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للأخرة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنْ يَسْأَلُكُمْ هَا فَيَحْفَظْكُمْ تَحْلُوا ﴾ (١) . يحفظكم أى يستقصى عنكم ، فكم بين عبد اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة ، وبين عبد لا يستقصى عليه لبحله ، فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال .

المعنى الثانى : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات ، قال — ﷺ :
 « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَوْقِ شَحْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وإنما ترول صفة البخل بأن تتعود بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً ، فالركاه بهذا المعنى طهرة ، أى تظهر صاحبها عن حب البخل المهلك ، وإعطاء طهارته بقدر بدله وبقدر فرجه بإحراجها واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى .

المعى الثالث : شكر النعمة فإن لله عز وجل على عده نعمة فى نفسه وفى ماله ، فالعادات الدينية شكر لعمة البدن ، والمالية شكر لعمة المال ، وما أحسن من ينظر إلى الفقير وقد صبق عليه الررق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواح غيره إليه ، بربع العشر أو العشر من ماله .

الوظيفة الثانية : فى وقت الأداء ، ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهار الرغبة فى الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الرمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلمنا بأن فى التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أحر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فيسعى أن يعتصم ، وليعين لذكائها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنماء قربه وتضاعف ركاته ، وذلك كشهر المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان — عليه السلام — أحود الخلق وكان فى رمضان كالريح المرسدة لا يمسك فيه شيئا ، ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن ، وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهى العشر الأول ، والأيام المعدودات وهى أيام التشريق . وأفضل أيام رمضان العشر الأخير ، وأفضل أيام دى الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ، قال — عليه السلام : أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير معسر . وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ، وقد روى أيضا مسندا .

وقال — عليه السلام : « إن العبد يعمل عملا فى السر فيكتبه الله له سرا ، فإن أظهره

نقل من السر وكتب في العلانية ، فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياءاً ، وفي الحديث المشهور : « سبعة يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله : أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه ، وفي الخير : « صدقة السر تطفئ غضب الرب » . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَخَفَوْهَا وَتَوْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ حَيْرَ لَكُمْ ﴾ ^(١) . وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، فقد قال — ﷺ . « لا يقبل الله من مسمع ولا مرأى ولا ممان » . والمتحدث بصدقته يطلب السمعة ، والمعطى في ملأ من الناس يغني الرياء ، والإخفاء والسكوت هو المخلص منه ، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطى ، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى ، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطى ، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم ، وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطى وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه . كل ذلك توصلاً إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازاً من الرياء والسمعة ، ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ في معرفة المسكين الرياء والممة جميعاً وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله ، لأن الزكاة إرالة للحل وتضعيف لحب المال ، وحب الحياه أشد استيلاء على النفس من حب المال ، وكل واحد منهما مهلك في الآخرة .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ، ويحرس سره من داعية الرياء . فقد قال الله عز وجل : « إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَعَمَا

هي،^(١) . وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس، فلا ينبغي أن يترك التصديق خيفة من الرياء في الإظهار، بل يسعى أن يتصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان . وهذا لأن في الإظهار محدوداً ثالثاً سوى المص والرياء وهو هتك ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاح . فمما أظهر السؤال وهو الذى هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره، وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور، والتحسس فيه والاعتقاد بذكره مبهى عنه، فأما من أظهره بإقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها، ومثل هذا المعنى قال — ﷺ : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له »، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾^(٢) . بدب إلى العالانية أيضاً لما فيها من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه العائدة بالمحذور الذى فيه، فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفصل، ومن عرف العوائد والغوائل ولم يطر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : ألا يمسد صدقته بالمن والأذى . قال الله تعالى : ﴿ لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾^(٣) . واختفوا في حقيقة المن والأذى فقليل : المن أن يذكرها، والأذى أن يظهرها، وقال سفيان : من من فسدت صدقته، فقليل له : كيف المن ؟ قال : أن يذكره ويتحدث به . وقيل المن أن يستخدمه بالعطاء، والأذى أن يعيره بالفقر، وقيل : المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن يشهره أو يوتخه بالمسألة، وقد قال — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة من » .

وعندى أن المَنَّ له أصل ومعرس وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح، فأصله أن يرى نفسه محسناً إليه ومنعماً عليه. وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقول حق الله عز وجل منه الذى هو طهرته وعبادته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقى مرتباً به؛ فحقه أن يتقصد منه الفقير إذا جعل كفه نائباً عن الله عز وجل في قبض حق الله عز وجل. قال رسول الله ﷺ: «إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل». فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله عز وجل. ولو كان عليه دين لإنسان فأحال به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفهاً وجهلاً، فإن المحسن إليه متكمل برزقه، أما هو فإما يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه، فهو ساع في حق نفسه، فلم يمن به على غيره؟! ومهما عرف المعانى الثلاثة التى ذكرناها في فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم يرى نفسه محسناً إلا في نفسه، إما ببذل ماله لإظهار الحب لله تعالى، أو تطهير النفس عن رذيلة البخل، أو شكر أعلى نعمة المال طلباً للمزيد، وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسناً إليه، مهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسناً إليه تفرغ منه على ظاهره ما ذكر في معنى المن، وهو النحدث به وإظهاره، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور، فهذه كلها ثمرات المنة، ومعنى المنة في الباطن ما ذكرناه.

أما الأذى فظاهرة التوبيخ والتعير وتخشيش الكلام وتقطيب الوجه وهتك السر بالإظهار وفنون الاستحفاف، وباطنه وهو منبعه أمران: أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه، فإن ذلك يضيق الخلق لا بحالة، والثاني رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشأ

الجهل . أما كراهيته تسليم المال فهو حق ، لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحق ، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب في الدار الآخرة وذلك أشرف مما بدله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكر الطلب المزيد ، وكيفما فرض فالكرامية لا وجه لها . وأما الثاني فهو أيضا جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحققر الفقير بل تبرك به وتمنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بمئسمائة عام ، ولذلك قال — ﷺ : هم الأخسرون ورب الكعبة . فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا . ثم كيف يستحققر الفقير وقد جعله الله تعالى متحرة له ، إذ يكتسب المال بمجده ويستكثر منه ويحتهد في حفظه بمقدار الحاجة . وقد أئزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم إليه . فالغنى مستخدم للسعى في رزق الفقير ويتميز عليه بتقيد المطالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذن مهما انتقلت الكرامة وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له في أداء الواجب وتقييضه الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه انتفى الأذى والتوبيخ وتقطيب الوجه ، وتبدل بالاستبشار والثناء والقبول والممة .

فهذا منشأ المن والأذى ، فإن قلت فرويته نفسه في درجة المحسن أمر غامض ، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟ فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة ، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جنابة أو مالا عدوا له عليه مثلا ، هل كان يزيد استكاره واستيعاده له على استنكاره قبل التصديق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة الممة ، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

فإن قلت فهذا أمر غامض ولا يفك قلب أحد عنه فما دواؤه ؟ فاعلم أن له دواء باطا ودواء ظاهرا . أما الباطن فالمعرفة بالحقائق التي ذكرناها في فهم

الوجوب وأن الفقير هو المحس إليه في تطهيره بالقبول ، وأما الظاهر فالأعمال التي يتعاطاها متقلد المنة ، فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق .

ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير ويتمثل قائما بين يديه يسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية رده ، وكان بعضهم يسط كمه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هي العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول : احفظ ما يدعوه به . ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان : هذا بذاك حتى تلخص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمشيه . وهذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يدأون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة . ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم ، ولا يعالج القلب إلا بمحجج العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة . وثبت ذلك بقوله — ﷺ : « ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل بها » . وهذا كقوله — ﷺ : « لا يقبل الله صدقة منان » . وكقوله عز وجل : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (١) .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية ، فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى : ﴿ ويوم حين إذا أعجبتكم كثير تكلم فلم تغن عنكم شيئا ﴾ (٢) . ويقال إن الطاعة كلما استصغرت

عظمت عند الله عز وجل ، والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره ، وتعجيله ، وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى ، بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير ، وأنه قد قنع لنفسه بأخس درجات البذل كما ذكرنا في فهم الوجوب ، فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنّة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله ، فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه ، وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ ! وأما العمل فهو أن يعطيه عطاء الحجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيته الانكسار والحياء كهيته من يطالب برده ودية فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل ، وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال عز وجل . فيحفكم تبخلوا .

الوظيفة السابعة : أن ينتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإذا كان المخرج من شبهة قريبا لا يكون ملكا له مطلقا فلا يقع الموقع ، وفي حديث إبان عن أنس بن مالك : « طوبى لعبدا أنفق من مال اكتسبه من غير معصية » . وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد أثر على الله عز وجل غيره . ولو فعل هذا بضيغه وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل . وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من

يؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفسي ، والذى يأكله قضاء وطرفي الحال ، فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (١) ، أى لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض ، فلا تؤثروا به ربكم .

وفي الخبر : « سق درهم مائة ألف درهم » . وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أحل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبدل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيبدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه ، وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا الله ما يكرهون ، فقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ اللَّهُ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى لَا حَرَمَ أَنْ لَهُمُ الْبَارِ » (٢) .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب بصدقته من تركوه الصدقة ، ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات ، فليراجع خصوص تلك الصفات وهي ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتحريين لتجارة الآخرة ، قال — ﷺ : « لَا تَأْكُلْ إِلَّا طَعَامَ تَقَى وَلَا يَأْكُلْ طَعَامُكَ إِلَّا تَقَى » . وهذا لأن التقى يستعين به على التقوى فتكون شريكا له في طاعته بإعانتك إياه . وقال — ﷺ : « أَطْعَمُوا طَعَامَكُمْ الْأَتْقِيَاءَ وَأُولُوا مَعْرُوفِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وفي لفظ آخر : « أَضِفْ إِلَى طَعَامِكَ مِنْ تَحِبِّهِ فِي اللَّهِ تَعَالَى » . وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقليل له : « لو عممت معروفك جميع الفقراء

فقال : « لا ، هؤلاء قوم همهم الله سبحانه فإذا طرقتهم فاقه تشتت هم أحدهم ، فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إليّ من أن أعطى ألفا من همة الدنيا » . فذكر هذا الكلام للجنيّد فاستحسنه وقال : « هذا أولى من أولياء الله تعالى » وقال : « ما سمعت منذر مان كلاماً أحسن من هذا » . ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيّد مالا وقال : « اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت ، فإن التجارة لا تضر مثلك » . وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يتاعون منه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة ، فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية ، وكان ابن المبارك يخصص معروفه أهل العلم فقيل له : « لو عممت » ، فقال : « إني لا أعرف بعد مقام السوة أفضل من مقام العلماء ، فإذا اشتعل قلب أحدهم حاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم ، فتعريضهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد ، وتوحيده أنه إذا أحد العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطته ، فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه ، وفي وصية لقمان لابنه : ﴿ لا تحمل بيلك وبين الله منعما ، واعدد نعمة غيره عليك مغرما ، ومن شكر غير الله سبحانه فكأنه لم يعرف المنعم ، ولم يتيقن أن الوسطة مقهور مسخر بتسخير الله عز وجل ، إذا سلط الله تعالى عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودينه في فعله ، فمهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة وانتهاض القدرة ، ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه ، والله عز وجل خالق للواعث ومهيحها ومزيل للمصعب والتردد عنها

ومسحر القدر للانتهاص عقتصى البواعث ، فمن تيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب .

وتيقن مثل هذا العد أنفع للمعطي من ثناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه ، وإعانة مثل هذا العد الموحد لا تضيق ، وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فسيديم بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفاوتة . وقد روى أنه — ﷺ — بعث معروفا إلى بعض الفقراء وقال للرسول : « احفظ ما يقول » . فلما أحد قال : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ، ولا يصيب من شكره » ، ثم قال : « اللهم إنك لم تسس فلانا — يعنى نفسه — فاجعل فلانا لا يساك » . يعنى بفلان نفسه ، فأحبر رسول الله — ﷺ — بذلك فسر ، وقال — ﷺ — : « علمت أنه يقول ذلك » . فانظر كيف قصر التفاته على الله وحده .

وقال — ﷺ — لرجل : « تب » . فقال : « أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد » . فقال — ﷺ — : « عرف الحق لأهله » ، ولما نزلت براءة عائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه : « قومي فقبل رأس رسول الله — ﷺ — » . فقالت : « لا والله لا أفعل ولا أحمده إلا الله » . فقال — ﷺ — : « دعها يا أبا بكر » ، وفي لفظ آخر أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه : « محمد الله لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » . فلم يكر رسول الله — ﷺ — عليها ذلك ، مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله — ﷺ — .

ورؤية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين ، قال الله تعالى : « وإدا ذكر الله وحده اشعزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإدا ذكر الذين من دونه

إذا هم يستبشرون» (١). ومن لم يصف باطنه عن رؤية الوسائط إلا من حيث أهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشر الحفى سره ، فليثق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستقرا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى ، أو أن يكون من أهل المروءة ممن ذهب نعمته وبقيت عادته ، فهو يتعيش في حجاب التجل . قال الله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ (٢) أى لا يلحون في السؤال لأهم أغنياء بيقينهم ، أعرة بصرهم ، وهذا يسعى أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محله ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجل ، فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المحاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا بمرض أو سبب من الأسباب ، فيوحد فيه معنى قوله عز وجل : « الفقراء الذين أحصروا إلى سبيل الله » (٣) ، أى حبسوا في طريق الآخرة بعلّة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب : « لا يستطيعون صر با في الأرض » (٤) لأهم مقصود الجناح مقيدو الأطراف ، بهذه الأسباب كان عمر رضى الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من العنم العشرة فما فوقها ، وكان — عليه السلام — يعطى العطاء على مقدار العيلة . وسئل عمر رضى الله عنه عن جهد البلاء فقال : « كثرة العيال وقلة المال » .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوى الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم ، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى . قال على رضى الله عنه :

(١) الزمر ٤٥ (٢) البقرة ٢٧٣

(٣) البقرة ٢٧٣ (٤) البقرة ٢٧٣

« لأن أصل أخا من إخواني بدرهم أحب إليّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إليّ من أن أعتق رقبة » .

والأصدقاء وإخوان الخير أيضا يتقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ، فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فيسبغى أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع حملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى ، ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، فإن أخذ أجره في الحال تطهيره نفسه عن صفة البخل ، وتأكد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه فتشوقه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الآحد و همته ، فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال والمآل ، فإن أصاب حصل الأجران ، وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني ، فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

وقال الغزالي في القايص وأسباب استحقاقه ووظائف قبضته : اعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس هاشمي ولا مطلبى ، اتصف صفة الأصناف الثمانية^(١) المذكورين في كتاب الله عز وجل ، ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشمي ولا إلى مطلبى . أما الصبي والنحو فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما ، فلتذكر صفات الأصناف الثمانية :

الصنف الأول : الفقراء . والمفقر هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة حاله فليس بفقر ولكنه مسكين ،

(١) « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والعالمين وفي سبيل الله وابن السبيل » .

وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير، وإن كان معه قميص وليس معه مذيل ولا حف ولا سروال ولم تكن قيمة القميص بحيث تفي بجميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير، لأنه في المال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجر عنه، فلا يسفى أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سوى ساتر العورة فإن هذا علو، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج عن الفقر كونه معتادا للسؤال، فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرج عن الفقر، فإن قدر على الكسب بآلة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة، وإن قدر على كسب لا يليق بمروءته وبحال مثله فهو فقير، وإن كان متعقها ويمعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تعتبر قدرته، وإن كان متعبدا بمعه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب، لأن الكسب أولى من ذلك. قال عليه السلام: «طلب الحلال مريضة بعد الفريضة». وأراد به السعي في الاكتساب. وقال عمر رضى الله عنه: «كسب في شبهة خير من مسألة». وإن كان مكتفيا بنفقة أبيه أو تحب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب، فليس بفقير.

الصفة الثاني: المساكين. والمسكين هو الذي لا يفي دخله بخرجه، فقد يملك ألف درهم وهو مسكين، وقد لا يملك إلا فأسا وحبالا وهو غنى. والدويرة التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين، وكذا أثاث البيت أعنى ما يحتاج إليه وذلك ما يليق به، وكذا كتب الفقه لا تخرج عن المسكنة، وإذا لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه بالكتاب، فالكتاب محتاج إليه لثلاثة أغراض، التعليم والاستفادة والتفرح بالمطالعة. أما حاجة التفرح فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجزى إلا مجرى التفرح والاستئناس، فهذا يباع في الكفاية وزكاة الفطر وتمع اسم المسكنة، وأما حاجة التعليم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم

والمدرس بأجرة فهذه آتية فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر المحترفين . وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا تباع ولا يسلمه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة مهمة . وأما حاجة الاستفادة والتعلم من الكتاب كادحار كتب طب ليعالج بها نفسه ، أو كتاب وعظ ليطالع فيه ويتعظ به ، فإن كان في البلد طبيب وواعظ فهذا مستغنى عنه ، وإن لم يكن فهو محتاج إليه ، ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة ، فيسقى أن يضبط مدة الحاجة ، والأقرب أن يقال ما لا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه ، فإن من فصل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة ، فإذا قدر ما القوت باليوم فحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدر بالسنة ، فلا تباع ثياب الصيف في الشتاء ، والكتب بالثياب والأثاث أشبه ، وقد يكون له من كتاب نسختان فلا حاجة إلى إحداها ، فإن قال : إحداها أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما . فبنا : اكتف بالأصح وبيع الأحسن ودع التفرج والترفع ، وإن كان نسختان من علم واحد إحداها بسيطة والأخرى وجيزة ، فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيط ، وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة فائدة ليست في الأخرى ، وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له في فن الفقه ، وإنما أوردناه لعموم البلوى والنتيجة بحسن هذا النظر على غيره ، فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن ، إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها ، وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وصيقتها ، وليس لهذه الأمور حدود محدودة ، ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم به فيه خطر الشبهات ، والمتورع يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يريه إلى ما لا يريه ، والدرجات المتوسطة المشككة بين الأطراف المتقاربة الجلية كثيرة ولا يحصى منها إلا الاحتياط والله أعلم .

الصنف الثالث : العاملون . وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى

الخليفة والقاضي ، ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوفى والحافظ والنقال . ولا يزداد واحد منهم على أحرة المثل ، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف ، وإن نقص كمل من مال المصالح .

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم على الإسلام . وهم الأشراف الدين أسلموا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترغيب نظائرهم وأتباعهم .

الصنف الخامس . المكاتبون . فيدفع إلى السيد سهم المكاتب ، وإن دفع إلى المكاتب حار ؛ ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .

الصنف السادس : العارمون . والعارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير ، فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان عنيا لم يقض دية إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء فتنه .

الصنف السابع : العراة . الدين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء ، إعانة لهم على العرو .

الصنف الثامن : اس السبيل . وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها ، فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال بلد آخر أعطى بقدر بلعته . فإن قلت فيم تعرف هذه الصفات ؟ قلنا أما الفقر والمسكنة فيقول الآحد ولا يطالب بيينة ولا بخلف ، بل يجوز اعتياد قوله إذا لم يعلم كذبه ، وأما العرو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إنى غاز ، فإن لم يف به استرد ، أما بقية الأصناف فلا بد فيها من البينة ، فهذه شروط الاستحقاق وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فسيأتى .

وتكتم الغزالي عن وظائف القايص وهي خمس :

١ — أن يعلم أن الله عز وجل أو جب صرف الزكاة إليه ليكفى همه ويجعل

مومنه هما واحداً ، فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون مهمهم واحداً وهو الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر ، وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) .

٢ — أن يشكر المعطى ويدعوله ويثنى عليه ، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة ولكه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من جعله الله طريقاً واسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه وتعالى ، فقد قال — ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

٣ — أن ينظر فيما يأخذه ، فإن لم يكن من حل تورع عنه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال .

٤ — أن يتوق مواقع الريب والاشتباه في مقدار ما يأخذه ، فلا يأخذ إلا المقدار المباح ، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يزيد على مقدار الدين ، وإن كان يأخذ بالعمل فلا يزيد على أجره المثل ، وإن أعطى زيادة أبى وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يترع به ، وإن كان مساهراً لم يزد على الراد وكراء الدابة إلى مقصده ، وإن كان عارياً لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للجزو وخاصة من حيل وسلاح ونفقة وتقدير ذلك بالاجتهاد وليس له حد ، وكذا زاد السمر ، والورع ترك ما يريه إلى ما لا يريه . وإن أخذ بالمسكة فليظن أولاً إلى أثاث بيته وثيابه وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسته فيمكنه أن يبدله بما يكفي ويمضل بعض قيمته وكل ذلك إلى اجتهاده ، وفيه طرف ظاهر يتحقق معه أنه مستحق ، وطرف آخر مقابل

يتحقق معه أنه غير مستحق ، وبينهما أوساط مشتبهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والاعتماد في هذا على قول الآخذ طاهرا ، وللمحتاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه . وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو محقوت في الشرع ، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذ مالا كثيرا بل ما يتم كفايته من وقت أحذه إلى سنة ، فهذا أقصى ما يرحص فيه من حيث إن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخل ، ومن حيث إن رسول الله — ﷺ — ادحر لعياله قوت سنة ، فهذا أقرب ما يجد به حد الفقير والمسكين ، ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو أقرب للتقوى ، ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الركة والصدقة مختلفة ، فمن مبالغ في التقليل إلى حد أوجب الاقتصاد على قدر قوت يومه وليلته ، ونمسكوا بما روى سهل بن الحظلية أنه — ﷺ — سئى عن السؤال مع الغنى ، فسئل من غناه فقال — ﷺ : « عداؤه وعشاؤه » . وقال آخرون يأخذ إلى حد العنى وحد العنى نصاب الزكاة ، إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا : له أن يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الغنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب ، لما روى ابن مسعود من أنه — ﷺ — قال : من سأل وله مال يعنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش . فسئل : وما غناه ؟ قال : خمسون درهما أو قيمتها من الذهب . وقيل رواية ليس بقوى . وقال قوم : أربعون . ولما رواه عطاء بن يسار منقطعاً أنه — ﷺ — قال : « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » . وبالع آخرون في التوسيع فقالوا : له أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره ، أو بهي بضاعة ليبتحر بها ويستعنى بها طول عمره ، لأن هذا هو الغنى . وقد قال عمر رضي الله عنه : « إذا أعطيتهم فأغنوا » . حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ

بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم ، إلا إذا خرج عن حد الاعتدال . ولما شغل أبو طلحة بيستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة . قال — عليه السلام : « اجعله في قرابتك فهو خير لك » . فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فحائظ من نخل لرجلين كثير مغن . وأعطى عمر رضى الله عنه أعرابيا ناقة معها ظئر لها . وهذا ما حكى فيه .

فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستكر وله حكم آخر ، بل التجويز إلى أن يشتري صيغة فيستغنى بها أقرب إلى الاحتمال وهو أيضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كماية سنة ، وما وراءه فيه خطر ، وفيما دونه فيه تصيق ، وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير حزم بالتوقيف فليس للمجتهد إلا الحكم بما يقع له ، ثم يقال للورع : استمت قلبك وإن أفنوك وأفنوك ، كما قاله — عليه السلام — إذ الإثم حزاز القلوب ، فإذا وجد القابض في نفسه شيئا مما يأخذ فليتركه فيه ولا يترخص بعمله بالعتوى من علماء الظاهر ، فإذا الفتواهم قيود ومطلقات من الضرورات ، وفيها تحمينات واقتحام شبهات ، والتوقى من الشبهات من شيم قوى الدين وعادات سالكي طريق الآخرة .

الخامسة : أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه ، فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذه منه ، فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن ، فليقتص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صفة . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق ، فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما للجهل وإما للتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلب على الظن احتمال التحريم .

وقال الغزالي في بيان فضيلة صدقة التطوع وآداب أخذها وإعطائها : (من الأحبار) قوله — عليه السلام : « تصدقوا ولو بثمره ، فإنها تسد من الخائف وتطمس الخطيئة

كما يطعم الماء البار . وقال — ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجدوا فكنمة طيبة . » وقال — ﷺ : « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقل الله إلا طيبا إلا كان الله يأخذها يمينه فيريها كما يرى أحدكم فسيولة حتى تبلغ التمرة مثل أحد . » وقال — ﷺ : « لأني الدرداء : » إذا طمخت مرقعة فأكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه معروف . » وقال — ﷺ : « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته . » وقال — ﷺ : « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس . » وقال — ﷺ : « الصدقة تسد سبعين بابا من الشر . » وقال — ﷺ : « صدقة السر تطمئئ غصب الرب عز وجل » وقال — ﷺ : « ما الذي أعطى من سعة بأفضل أجرا من الذي يقبل من حاجة » ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين ، فيكون مساويا للمعطي الذي يقصد بإعطائه عمارة ديه .

ومثل رسول الله — ﷺ : « أى الصدقة أفضل ؟ » قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتحشى الفاقة ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان . » وقد قال — ﷺ : « يوما لأصحابه : « تصدقوا . » فقال رجل : « إن عندي دينار . » قال : « أنفقه على نفسك . » فقال : « إن عندي آخر . » قال : « أنفق على زوجتك . » قال : « إن عندي آخر . » قال : « أنفق على خادمتك . » قال : « إن عندي آخر . » قال : « أنت أبصر به . »

وقال — ﷺ : « لا تحمل الصدقة لآل محمد ، إنما هي أو ساخ الناس . » وقال : « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام . » وقال — ﷺ : « لو صدق السائل ما أفلح من رده . » وقال عيسى عليه السلام : « من رد سائلا حائبا من بيته لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام . » وكان نبينا — ﷺ — لا يكل

حصلتين إلى غيره : كان يصنع ظهوره بالليل ويحمره ، وكان يباول المسكين بيده ، وقال — ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمران واللقمة واللقمتان ، إنما المسكين المتعفف . اقرعوا إن شئتم : « لا يسألون الناس إلحافا » . وقال — ﷺ : « ما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله عز وجل ما دامت عليه مه رقعة » .

(الإيثار) : قال عروة بن الزبير : « لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بمحسبين ألفا وإن درعها لم رقع » . وقال مجاهد : قوله عز وجل : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » ^(١) . فقال : وهم يشتهونه . وكان عمر يقول : « اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون به على دوى الحاجات ما » . وقال عمر ابن عبد العزيز : « الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلعك باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه » . وقال ابن مسعود : « إن رجلا عبد الله سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط أعماله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف فعمر الله له دبه ورد عليه عمل السبعين سنة » . وقال لقمان لابنه : « إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة . وقال يحيى بن معاذ : « ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة » . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : « كان يقال ثلاثة من كسور الحنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصائب » . وقال عمر بن الخطاب : « إن الأعمال تناهت فقالت الصدقة : أنا أفضلكن » .

وكان عبد الله بن عمر ينصدق بالسكر ويقول : « سمعت الله يقول : لمن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . والله يعلم أى أحب السكر » . وقال النخعي : « إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب » . وقال عبيد الله ابن عمير :

« يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قاط وأعطش ما كانوا قاط وأعزى ما كانوا قاط ، فمن أطلعهم الله عز وجل أشبعه الله ، ومن سقى الله عز وجل سقاه الله ، ومن كساه الله عز وجل كساه الله . » وقال الحسن : « لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقراء فيكم ، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض . » وقال الشعبي : « من لم يمر نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه » وقال مالك : « لا نرى بأسا بشرب الموسر من الماء الذي يتصدق به ويسقى في المسجد ، لأنه إنما جعل للعطشان من كان ، لم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص . » ويقال إن الحسن مر به نخاس ومعه جارية فقال النخاس : « أترضى ثمنها الدرهم والدرهمين . قال : لا . قال : فاذهب فإن الله رضى في الخور العين بالفلس والمنقمة . »

وقال العزالي في بيان إخفاء الصدقة وإظهارها : قد احتلف طريق طلاب الإخلاص في ذلك ، فمال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ، ونحن نشير إلى ما في كل واحد من المعاني والآفات ، ثم يكشف العطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان :
الأول : أنه أبقي للستر على الآخذ ، فإن أخذه ظاهرا هتك لستر المروءة ، وكشف عن الحاجة ، وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف .

الثاني : أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم ، فإنهم ربما يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ، ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء ، أو يسوونه إلى أخذ زيادة . والحسد وسوء الظن والغيبة من الذنوب الكبائر وصياتهم عن هذه الحرام أولى . وقال أبو أيوب السخيتاني : « إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني

حسداً . وقال بعض الرهاد : « ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون : من أين له هذا ؟ » وعن إبراهيم التيمي أنه رأى عليه قميص حديد فقال بعض إخوانه : « من أين لك هذا ؟ فقال : كسانيه أحي حيثمة ، ولو علمت أن أهله علموا به ما قبلته . »

الثالث : إعانة المعطى على أسرار العمل ، فإنه فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر ، والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتان لا يتم إلا باتنين فمهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى ، ودفع رجل إلى بعض العمداء شيئاً طاهره أفرده إليه ، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله ، فقيل له في ذلك فقال : إن هذا عمل بالأدب في حياء معروفه فقبلته ، وذاك أساء أدبه في عمله فرددته عليه . وأعطى رجل لبعض الصوفية شيئاً في الملاء ففردته ، فقال له : « لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : « إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ، ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك . » وقبل بعض العارفين في السر شيئاً كان رده في العلانية فقيل له في ذلك فقال : « عصيت الله بالجهر فلم أك عوناً لك على المعصية ، وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك . » وقال الثوري : « لو علمت أن أحدهم لا يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقبلت صدقته . »

الرابع : أن في إظهار الأخذ ذلاً وامتناناً ، وليس للمؤمن أن يدل بنفسه . كان بعض العلماء يأخذ في السر ولا يأخذ في العلانية ويقول : « إن في إظهاره إذلالاً للعلم وامتناناً لأهله ، فما كنت بالذي أرفع شيئاً من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله . »

الخامس : الاحترار عن شبهة الشراكة . قال — عليه السلام : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يأن يكون ورقاً أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية . وقال — عليه السلام : « أفضل ما أهدى الرجل إلى أخيه ورقاً أو يطعمه خبزاً . فجعل الورق

(الفضة) هدية بامراده ، فما يعطى في المأ مكروه إلا برصا جميعهم ولا يحلو عن شبهة ، فإذا انفرد سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث فيه معان أربعة :

الأول : الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس المال والمراعاة .

الثاني : إسقاط الجاه والمنزلة وإظهار العبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : « أظهر الأحد على كل حال إن كنت أحدا ، فإبك لا تخلو عن أحد رحلين : رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك ، فذلك هو المراد لأنه أسلم لديتك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق ، فذلك الذي يريده أخوك لأنه يزداد ثوابا بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتؤخر أمت إذ كنت سبب مزيد ثوابه .

الثالث : هو أن العارف لا ينظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلانية في حقه واحدة ، فاختلاف الحال شرك في التوحيد ، قال بعضهم : « كما لا يعابدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية ، والالتفات للخلق حضروا أم عابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصورا على الواحد الفرد » .

حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين ، فشق على الآخرين ، فأراد أن يظهرهم فضيلة ذلك المريد فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : « ليفرد كل واحد منكم بها وليذبحها حيث لا يراه أحد » ، فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد ، فإنه رد الدجاجة فسأله فقالوا : « فعلنا ما أمرنا به الشيخ » . فقال الشيخ للمريد : « مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ » . فقال ذلك المريد : « لم أقدر على مكان لا يراى فيه أحد ، فإن الله يراى في كل موضع » . فقال الشيخ : « لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل » .

الرابع : أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى : « وأما بنعمة ربك

فحدث^(١)، والكتان كفران النعمة. وقد دم الله عروجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالحل. فقال تعالى: ﴿الذين يحلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾^(٢). وقال — ﷺ: «إذا أعم الله على عبد نعمة أحب أن يرى نعمته عليه». وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرفع به يده وقال: «هذا من الدنيا والعلائية فيها أفضل والنسر في أمور الآخرة أفضل»، ولذلك قال بعضهم: «إذا أعطيت في الملاء فخذ ثم اردد في السر». والشكر فيه مثنو عليه. قال — ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل». والشكر قائم مقام المكافأة، حتى قال — ﷺ: «من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطعوا فاثموا عليه به خيراً وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه». ولما قال المهاجرون في الشكر: «يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم فاسمونا الأموال حتى خفنا أن يذهبوا بالأحر كله». فقال — ﷺ: «كل ما شكرتم لهم وأثبتم عليهم به فهو مكافأة».

فالآن إذا عرفت هذه المعاني، فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسألة، بل هو اختلاف حال، فكشف الغطاء في هذا أما لا يحكم حكماً باتاً بأن الإحفاء أفضل في كل حال أو الإظهار أفضل، بل يختلف ذلك باختلاف البات، وتختلف البات باختلاف الأحوال والأشخاص. فيبغى أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتبدل بحبل الغرور، ولا يستخدع بتليس الطمع ومكر الشيطان. والمكر والخداع أغلب في معاني الإحفاء منه في الإظهار، مع أن له دخلاً في كل واحد منهما، فأما مدخل الخداع في الإسرار فمن ميل الطمع إليه لما فيه من حفظ الحياء والمنزلة وسقوط القدر عن أعين الناس، ونظر الخلق إليه بعين

الازدراء وإلى المعطى بعين المعتم المحسن . فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس ، والشيطان بواسطته يظهر معاني الخير حتى يتعلل بالمعاني الخمسة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكمه أمر واحد وهو أن يكون تألمه بانكشاف أخذه الصدقة كتألمه بانكشاف صدقة أخذها بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه إن كان يبقى صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن ، أو يتقى انتهاك السر ، أو إعانة المعطى على الأسرار ، أو صيانة العلم عن الابتذال ، فكل ذلك يحصل بانكشاف صدقة أحبه ، فإن كان انكشاف أمره أثقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الخسر من هذه المعاني أغاليط وأباطيل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم محذور من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو ، والغيبة محذورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لا من حيث إنها تعرض لزيد على الخصوص ، ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يعجز الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ .

وأما جانب الإظهار فميل الطبع إليه من حيث إنه تطيب لقلب المعطى واستحاث له على مثله ، وإظهاره عند غيره أنه من المبالعين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتعقده ، وهذا داء دفين في الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السعة ويقول له : الشكر من السنة ، والإحفاء من الرياء . ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ، ومعيار ذلك ومحكمه أن يطر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا ينتهي الخير إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه ، وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويغيبون إخفاؤها ، وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر ، والتحدث بالنعمة ، وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السعة في

الشكر فلا ينبغي أن يغفل عن قضاء حق المعطى ، فينظر فإن كان هو ممن يحب
الشكر والنشر فينبغي أن يخفى ولا يشكر ، لأن قضاء حقه أن لا ينصره على
الظلم ، وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يحب الشكر ولا يقصده
فعند ذلك يشكره ويظهر صدقته ، ولذلك قال — ﷺ — للرجل الذى مدح
بين يديه : « صرتم عقه لو سمعها ما أفلح » . مع أنه — ﷺ — كان يشى على قوم فى
جوههم ثقتته وعلمه بأن ذلك لا يصرفهم بل يزيد فى رغبتهم للخير ، فقال
لواحد : « إنه سيد أهل الوبر » . وقال — ﷺ — فى آخر : « إذا جاءكم كريم قوم
فأكرموه » . وسمع كلام رجل فأعجبه فقال — ﷺ — : « إن من البيان لسحرا » .
وقال — ﷺ — : « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يراد رعة فى الخير » ،
وقال — ﷺ — : « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان فى قلبه » . وقال الثورى : « من
عرف نفسه لم يصرفه مدح الناس » . وقال أيضا ليوسف بن أسباط : « إذا
أوليتك معروفا كنت أنا أسر به ملك ، ورأيت فى ذلك نعمة من الله عز وجل
على . واشكر وإلا فلا تشكر » .

ودقائق هذه المعاني يسفى أن يلحظها من يراعى قلبه فإن إعمال الحوارح مع
إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشماتة له لكثرة التعب وقلة النفع . ومثل
هذا العلم هو الذى يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة ، إذ
بهذا العلم تحيا عبادة العمر ، وبالحهل به تموت عبادة العمر كله وتتعطل . وعلى
الحملة فالأحدى الملاء والردى السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا يبعى أن يدفع
بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو
الكبريت الأحمر الذى يتحدث به ولا يرى ، نسأل الله الكريم حسن العون
والتوفيق .

وقال الإمام العزالى فى بيان الأفضل ، من أخذ الصدقة أو الركاة : كان إبراهيم

الخواص والجنيد وجماعة يرون أن الأخذ من الصدقة أفضل ، فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتضييقا عليهم ، ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز . وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون بأخذ الزكاة دون الصدقة لأنها إعانة على الواجب ، ولو ترك المساكين كلهم أحد الزكاة لأثموا ، ولأن الزكاة لا مة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه وتعالى رزقا لعباده المحتاجين ، ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً ، وأخذ الصدقة أخذ بالدين ، فإن العالب أن المتصدق يعطي من يعتقد فيه خيراً ، ولأن مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكر ، إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تتميز عنه ، وهذا تنصيص على دل الآخذ وحاجته . والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية . فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة ، فإذا علم أنه مستحق قطعاً كما إذا حصل عليه دين صرفه إلى خير وليس له وجه في قصائه ، فهو مستحق قطعاً ، فإذا حير هذا بين الزكاة وبين الصدقة ، فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ، فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ، ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أحد الزكاة تضييق على المساكين فهو مخير ، والأمر فيها يتفاوت ، وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإدلالها في أغلب الأحوال والله أعلم ^(١) .

* * *

كانت الدولة قبل الإسلام وبعده مجرد رجل شرطة سلبى كما يقول هيربرت سبسر ، والدولة الإيرانية كانت تفرض ضرائب عقارية وضرائب شخصية ، وكانت الضريبة الشخصية تحدد مرة واحدة في السنة . والإمبراطورية الرومانية كانت تعيش على الضرائب ، وقد اتبعت نظاما عجيبا يربط بين المقاطعات الغنية والفقيرة ، فكانت الأولى تسد بعض ما على الثانية من ضرائب ، فكانت الضرائب في حقيقة الأمر « أجرا ملكيا » ليقوم الملك بحماية الشعب من المحرمين في الداخل والغايبين القادمين من الخارج ؛ فلم تكن الضرائب سوى نظام سياسى تدخل في الدراسات السياسية أكثر مما تدخل في دراسات الاقتصاد .

وجاء الإسلام بنظام مالى فريد في بابه ، فلم يجعل هم الحاكم تكديس الأموال في بيت المال بل شرع له ما يحقق الخير العام للجميع . فوظيفة المال فيه اجتماعية للناس جميعا حق فيه ، فلم تعد الدولة مجرد رجل شرطة سلبى ، ولم تعد الضرائب أجرا ملكيا ، بل سار الحاكم والمحكوم في مال الله سواء ، يأكل الحاكم بالمعروف ، ويشكر العنى الله على أن جعله مستخلفا في ماله ، ويعطى للدولة والفقراء والمساكين ما أمر الله به ، فأرهدف حس المؤمنين ، فكان حروح المال من خزائهم أحب إليهم من كسب المال ؛ فكسب المال فريضة ، وإتفاق المال في وجوهه التى تحقق المصلحة العامة فريضة ، وكثر المال محرم ، فكان العدل والمساواة والحب النابع من قلوب طهرها الإسلام من الأنانية والأثرة والكبرياء .

نجح الإسلام في أن يجعل أتباعه رقباء على أنفسهم فلم يتهربوا من دفع الزكاة كما يتهرب الممولون من دفع ضرائب الدولة ، فأنمحي من نفوسهم الظلم ، وقضى على عدم المساواة ، وخفقت الأفتدة بمشاعر الأخوة بين الفقراء والأغنياء ، وأزيلت الفوارق الاجتماعية بنعمة الله ، فلا صراع بين الطبقات ، ولا حمامات دم ، ولا ظلم طبقة لطبقة ، بل محبة منبثقة من قلوب راضية ، فدافع الزكاة إتما

يدفع من مال الله الذي آتاه ، وأخذ الزكاة إنما يأخذ حقه من مال الله ، والمعطى والقابض مبتليان ، فعلى المعطى أن يكون عطاؤه لوجه الله ، وعلى القابض أن يكون مستحقا لمال الله .

كانت الزكاة محور نظام المالية العامة في الإسلام ، وهي تختلف عن الضرائب فهي تسمو بالروح وتعمر دافعها بسعادة نفسية لاستجابته لأوامر الله وتطهيرها لأمواله . إنها تقيم صرح البناء الروحي الشايع للمجتمع الإسلامي ، ذلك الصرح الذي يحال الفقر والعوز من المجتمع ، حتى إنه في أيام عمر بن عبد العزيز لم تجد الدولة مستحقا للزكاة فكانت تنفق ما تجمع من مال الأغنياء في تحرير الرقاب .

فرضت الزكاة للتحكم في النفس والهوى وحماية المجتمع من آفات الفقر والعوز ؛ فالنفس يورث الشح والأنانية ويشيع الكراهية بين الناس ، بل ويمزل بالمستوى الخلقي لأصحابه ، وخير علاج لذلك أن يتفق الإنسان من مال الله الذي آتاه في الخير ، فيقطع بذور البخل من نفسه ، ويدرك كراهية الناس له ، فيصبح الأغنياء والفقراء بنعمة الله إخوانا ، فلا انقسام ولا حقد ولا ثورات هدامة ولا أزمات اقتصادية ، فالزكاة خير منظم لدورة المال .

وإن عجزت الزكاة عن أن تنهض بالتزامات الدولة ومحو الفقر والعوز من المجتمع ، فللدولة الحق في فرض ضرائب أخرى على الأغنياء تحقيقا للخير العام ، وليس للأغنياء الحق في أن يتبرموا بما هم إلا مستخلفون في مال الله ، وأخذ فضول أموالهم إنما هو استحابة لأوامر الله : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»^(١) . «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو»^(٢) . والعفو هو فضل المال ، وواجب الأغنياء أن يردوا وقت الحاجة فضول أموالهم على الفقراء : «لن تنالوا

البر حتى تنفقوا مما تحبون»^(١). وكان عبد الله بن عمر يقول: «في مالك حق سوى الزكاة»، وكان على بن أبي طالب كرم الله وجهه يرى أن الله فرض على مال الأغنياء ما يكفي لسد حاجة كل محتاج، ولو وجد في المجتمع جائع أو عار فذلك راجع إلى أن الأغنياء لم ينهضوا بما وجب عليهم.

ويقول ميرزا محمد حسين في كتابه: «الإسلام والاشتراكية»: «... فتجاح الزكاة مرتبط بتهيئة الجو النفسي لحب الخير، والتنفير من الطمع والبخل، ولعل المساواة في درجة إلحاح الإسلام على الصلاة والزكاة تدل على قوة الرابطة النفسية بينهما، هذه الرابطة التي تشبه رابطة الحدور بالثمر.

والزكاة أمر لا روح فيه إن لم تبع من نفس تهتز بالصلاة وتخلص من كل آثار الأنانية، والصلاة بدورها لا فائدة منها إن لم تهب نفس المؤمن للاستجابة عن طواعية لما تفرضه المصلحة الحقيقية للمجتمع على الفرد. وإن هذا التفاعل الشبيط بين نظام روحي ونظام مادي مرعطم المجتمع الإسلامي هو خير مثال على العلاقة العميقة بين الاقتصاد والدين. والدين بدون الاقتصاد كالطميليات ترتفع على سنادة طويلة من غيرها، والاقتصاد بعير الدين بربرية عارية. والرأسمالية هي القمة في النشاط الاقتصادي الذي لا يحصع للمقاييس الخلقية التي تفرضها الأديان. ولما كان الحافظ الخنقي من وراء الزكاة مستمدا من مصدر روحي دائم هو الصلاة، فإن آثارها الاجتماعية والاقتصادية لا بد أن تكون سليمة، كما أنه لا بد أن يكون النظام الاجتماعي الناتج منها بقيا من مساوئ الرأسمالية من ناحية، وغير متورط في روح القسر وفرض أمودج عام معين على الفرد كما يحدث في المجتمع الشيوعي. وقد كان هذا الاستجمام الشامل سببا فيما لاحظه هـ. ح. ويلر

من أن : « الإسلام قد خلق مجتمعا أكثر تحمرا من القسوة والظلم الاجتماعي في روسيا أسوأ ما فيه أنه مفروض من الدولة بقوة القانون . ومن هنا فإن إحساس الفرد وملكانه العقلية والخلقية تهبط حتى تصبح مجرد آلات اجتماعية . وليس للفرد حرية الحكم والتصرف باعتباره عنصرا مفكرا يستجيب لتزعات الخير في نفسه .

ويدعى الشيوعيون أن هذا ليس إخضاع « الفردية العظيمة » لخلق الظروف التي تكفل نمو الشخصية الجماعية بمعانيها الكبيرة ، ومن المفهوم أن يفرض على الفرد أن يتنازل عن بعض حريته من أجل مصلحة المجتمع الكبرى ، ولكن هذا التنازل لا يدل أن يكون عن طوع واختيار إذا أردنا به أن يحقق ما نرجوه من خير . ويتحقق عنصر الاختيار إذا ما كان الفرد قادرا على تقدير ظروف غيره من الناس ، متأثرا بحب العدالة والرحمة والرفق . وهذه النظرة الإنسانية الشاملة تتأق بالتجديد الروحي لا بإجراء جراحة اجتماعية هي سلاح السوفييت الوحيد لتحقيق الضمان الاجتماعي .

والإسلام — في كل برامحه للارتقاء بالمجتمع — يفترض أن كل فرد يمثل مركزا فكريا وثقافيا له قيمته ، وله كذلك كرامته الذاتية . ومن ثم فليس من المقبول أن يحرم من الفرص المختلفة لتنمية شخصيته . ووجهة النظر هذه تفترض في بادئ الأمر أن يكون نشاط الكفايات والطاقات الطبيعية للإنسان مشاطا حرا متاسقا مع نشاط سواه ، ويلقى الإسلام على عاتق الدولة تبعه التخطيط الاجتماعي ، ولكن هذا لا يعني أنه يؤيد فكرة فرض الانسجام فرسا . والإسلام يفرس في نفس المرء حب جاره ويتخذ من هذا الحب رابطة اجتماعية قوية . وقد قال — عليه السلام : « إن لجارك عليك حقا .. وحب الحار وما يلقي على المرء من التزام نحوه نواة كل تخطيط اجتماعي في المجتمع الإسلامي .

النظام الشيوعي للتأمين الاجتماعي نظام طيب من بعض النواحي فحسب ، وقد يكون نظاما ممتازا إذا ما قورن بالفوضى المتمشية في الجماعات الرأسمالية ، ولكنه أمر تافه إذا ما قورن بالركاة التي هي نظام يحقق الضمان الاجتماعي دون أن يتجاهل داتية الناس . والتخطيط الاجتماعي في الإسلام يلغى الامتيازات التي تتعارض مع خير الجماعة ، ولكنه لا يلغى حرية الفرد بمختلف مظاهرها إذا لم تتعارض مع الخير العام ، وقد قصي في روسيا وفي الدول الدكتاتورية على الذاتية الفردية قضاء تاما بعد أن ضغطت ذاتيات الأفراد جميعا لتكون كلا اجتماعيا جامدا لا يتقدم .

جاء في القرآن العظيم : ﴿ حذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (١) . فلما مات رسول الله ﷺ — وتولى أبو بكر الخلافة من بعده رأى بعض المسلمين ألا يؤدوا إليه الزكاة التي كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ — بحجة أن صلاة رسول الله ﷺ — عليهم كانت سكاهم . فقال أبو بكر رضي الله عنه : — الزكاة حق المال . والله لو منعوني عافا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ — لقلنتهم على معها .

وكانت حروب الردة ولم تكن من أجل استرداد الخليفة مكانته ، بل من أجل حق من حقوق الله وركن من أركان الإسلام قرن بالصلاة ، ركن تقوم عليه السياسة المالية في الدولة الإسلامية ، وترسى عليه أساسات روحية لنظام مادي تحقيقا للخير العام .

كان الناس في عهد الرسول ﷺ — يسارعون في الخيرات ويدعون الله رغابا ورهبا وكانوا لله خاشعين ، فكان أناس لا يكتفون بإخراج الزكاة بل كانوا يخرجون عن كل أموالهم أو نصفها ، فلما لحق رسول الله ﷺ — بالرفيق

الأعلى كانت حروب الزكاة بين أنى بكر الصديق والمرتين، ثم جمع الحياة الزكاة وقسمت في وجوهها وتولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخلافة بعد أنى بكر فكانت الفتوحات وتدققت الأموال على المدينة، فدون عمر الدواوين ولم يقسم بالسوية بين المسلمين كما كان الحال في عهد الرسول — ﷺ — وخليفته الصديق . فعمر وضع الناس على حسب مشارهم في الإسلام ، فالسابقون في الإسلام ميرهم عن الذين تأخر إسلامهم ، ولم يساو بين الذين حاربوا مع الإسلام والذين حاربوا الإسلام . فلما ولي على بن أنى طالب أمر المسلمين سوى بين الجميع . وانتقلت الخلافة في زمن بنى أمية إلى ملك ، فكان الخلفاء يحاولون أن يتبعوا في المال ما جاء في القرآن والسنة واجتهادات الخلفاء الراشدين ، وانقضت الخلافة الأموية وجاء العباسيون ، فلما أصبح هارون الرشيد أمير المؤمنين سأل قاضى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أنى حيفة أن يضع له كتابا جامعا يعمل به في حاية الخراج والعشور والصدقات ، فوضع أبو يوسف كتاب الخراج وهو أول كتاب يبين موارد الدولة في التاريخ وسيل إنفاقها ، وأول كتاب يهتم بالمالية والاقتصاد قبل أن يهتم آدم سميث بالاقتصاد بأكثر من ألف عام . ولو أنصف الاقتصاديون لقالوا إن أبا يوسف أبو الاقتصاد وأبو المالية العامة . وإن أروع ما كتب للحكام والملوك تلك المقدمة التى قدم بها أبو يوسف كتابه لهارون الرشيد : « ... يا أمير المؤمنين إن الله وله الحمد قد قللك أمرا عظيما ، ثوابه أعظم الثواب وعقابه أشد العقاب . قللك أمر هذه الأمة فأصبحت وأمسيت وأنت تبني لخلق كثير قد استرعاكهم واتممتك عليهم وابتلاك بهم وولاك أمرهم . وليس يثبت البنيان — إذا أسس على غير التقوى — أن يأتيه الله من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه . فلا تضيع ما قللك الله من أمر هذه الأمة والرعية ، فإن القوة في العمل بإذن الله ... وإن الله بجمه ورحمته جعل ولادة الأمر

خلفاء في أرضه ، وجعل لهم نور ابيض للرعية ما أظلم من الأمور فيما بينهم وبين ما اشتبه من الحقوق عليهم . وإضاءة نور ولاية الأمر إقامة الحدود ، ورد الحقوق إلى أهلها بالثبوت والأمر البين ، وإحياء السنن التي سنّها القوم الصالحون أعظم موقعا ؛ فإن إحياء السنن من الخير الذي يحيا ولا يموت . وجور الراعي هلاك للرعية ، واستعانة بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ، فاستتم ما آتاك الله يا أمير المؤمنين من النعم بحسن محاورتها ، والتمس الريادة فيها بالشكر عليها ، فإن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » ^(١) . وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ، ولا أبغض إليه من الفساد . والعمل بالمعاصي كفر النعم ، وقُلْ من كفر من قوم قط النعمة ثم لم يفرعوا إلى التوبة إلا سلّبوها عنهم ، وسلط الله عليهم عدوهم . وإنّي أسأل الله يا أمير المؤمنين الذي منّ عليك بمعرفته فيما ولاك ، ألا يكلّك في شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولى ملك ما تولى من أوليائه وأحبابه ، فإنه ولي ذلك والمرعوب إليه فيه . واستمر أبو يوسف في كتابة موعظته يسوق أحاديث ترعيب وترهيب ، ثم بدأ كتاب الخراج بباب في قسمة الغنائم قال فيه :

« أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم ذلك ، فإن الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك في كتابه ، فقال فيما أنزله على رسوله ﷺ : ﴿ واعلموا أنّما غنمتم من شيء فإنّ الله خمسُه وللرسول ولدى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إنّ كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ ^(١) . فهذا والله

أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ، وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع ، فإن ذلك الخمس لمن سمي الله عز وجل في كتابه العزيز ، وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك من أهل الديوان وغيرهم ، يضرب للفراس منهم ثلاثة أسهم ، سهمان لفرسه وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء في الأحاديث والآثار ، ولا يفضل الخيل بعضها على بعض لقوله تعالى في كتابه : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ ولقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (١) . والعرب تقول : هذه الخيل وفعلت الخيل . لا يعنون بذلك الفرس دون البرذون ، ولعمامة البرادين أقوى من كثير من الخيل وأوفق للفرسان ، ولا يخص منها شيء دون شيء ، ولا يفضل الفرس القوى على الفرس الضعيف ، ولا يفصل الرجل الشجاع التام السلاح على الرجل الجبان الذي لا سلاح معه إلا سيفه .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ — قسم غنائم بدر : للفراس سهمان وللراجل سهم . وقال أبو در الغفاري : « شهدت أنا وأخي مع رسول الله ﷺ — حنيناً ومعافرساً لنا ، فضرب لنا رسول الله ﷺ — ستة أسهم أربعة لفرسينا وسهمين لنا ، فبعضنا الستة أسهم بحرين بكرين .

وكان الفقيه المقدم أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول : للراجل سهم وللفرس سهم . وقال : لا أفضل بهيمة على رجل مسلم ، ويحتج بأن عاملاً لعمر بن الخطاب قسم في بعض الشام للفرس سهم وللراجل سهم فرفع ذلك إلى عمر فسلمه وأجاره . فكان أبو حنيفة يأخذ بهذا الحديث ويجعل للفرس سهماً وللراجل سهماً . وما جاء من الأحاديث والآثار أن للفرس سهمين وللراجل سهماً أكثر

من ذلك وأوثق والعامة عليه . ليس هذا على وجه التفضيل ولو كان على وجه التفضيل ما كان ينبغي أن يكون للفرس سهم وللرجل سهم ، لأنه قد سوى بهيمة برجل مسلم ، إما هذا على أن يكون عدة الرجل أكثر من عدة الآخر وليرغب الناس في ارتباط الخيل في سبيل الله . ألا ترى أن سهم الفرس إنما يرد على صاحب الفرس فلا يكون للفرس دونه ؟ والمنطوع وصاحب الديوان في القسمة سواء . فخذ يا أمير المؤمنين أى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين ، فإن ذلك موسع عليك إن شاء الله تعالى ، ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين . عن الحسن في الرجل يكون في الغزو ومعه الأفراس قال : « لا يقسم له من الغنيمة لأكثر من فرسين » .

كان الخمس في عهد رسول الله ﷺ — على خمسة أسهم : للرسول سهم ، ولدى القرى سهم ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم . ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القرى وقسم على الثلاثة الباقي . ثم قسمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان . وقد روى لنا عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال :

— عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوح من الخمس أيما ، ونقصى منه عن مفرنا . فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

وكتب الزهرى إلى ابن عباس يسأله عن سهم ذوى القرى لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس : « كتبت إلى تسألنى عن سهم ذوى القرى لمن هو ؟ وهو لنا وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعا بنا إلى أن ننكح منه أيما ، ونقصى منه عن مفرنا ، ونخدم منه عائلنا ، فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى ذلك علينا .

فما كان رأى على كرم الله وجهه في الخمس ؟ كان رأيه فيه رأى أهل بيته ؟

ولكنه لما أصبح أمير المؤمنين كره أن يخالف أبا بكر وعمر . وقد قال على رضى الله عنه : « قلت يا رسول الله إن رأيت أن توليني حقنا في الخمس فأقسمه في حياتك كى لا يهازعنا أحد بعدك فافعل . ففعل فولانيه رسول الله ﷺ — فقسمته في حياته ، ثم ولانيه أبو بكر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، ثم ولانيه عمر رضى الله عنه فقسمته في حياته ، حتى إذا كان آخر سنة من سى عمر فأتاه مال كثير فعزل حقنا ، ثم أرسل إلى فقال : خذه فأقسمه . فقلت : يا أمير المؤمنين بنا عنه العام غنى وبالمسلمين إليه حاجة ، فرده عليهم تلك السنة ، ثم لم يدعنا إليه أحد بعد عمر حتى قمت مقامى هذا ، فلقى العباس بن عبد المطلب بعد خروجه من عند عمر رضى الله عنه فقال : يا على لقد حرمتا العداة شيئا لا يرد علينا أبدا إلى يوم القيامة .

وقيل : اختلف الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ — في هذين السهمين : سهم الرسول عليه السلام وسهم ذوى القرى ، فقال قوم : سهم الرسول للخليفة من بعده . وقالت طائفة : سهم ذوى القرى لقرابة الرسول عليه السلام . فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح .

وكان أبو حيفة رحمه الله وأكثر فقهاء يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه عليه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم .

قال أبو يوسف : فعلى هذا تقسم الغنيمة . فلما أصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أحلبوا به من المتاع والسلاح والكراع وغير ذلك ، وكذلك كل ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فإن في ذلك الخمس — في أرض العرب كان أو في أرض العجم — وخمسه الذى يوضع فيه مواضع الصدقات .

وفيما يستخرج من البحر من حلية وعبر ، فالخمس يوضع في مواضع الغنائم

على ما قال الله عز وجل في كتابه : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذی القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل » .

فی کل ما أصیب من المعادن فی قلیل أو کثیر الخمس . ولو أن رجلاً أصاب فی معدن أقل من وزن مائتی درهم فضة أو أقل من وزن عشرين مثقالاً ذهباً ، فإن فیہ الخمس ؛ لیس هذا علی موضع الرکاة إما هو علی موضع العنائم ، ولیس فی تراب ذلك شيء ، إما الخمس من الذهب الخالص وفي الفضة الخالصة والحديد والحاس والرصاص ، ولا یحسب لمن استخرج ذلك من نفقته علیہ شيء . وقد تكون الفقة تستغرق ذلك کنه فلا یجب إذن فیہ خمس علیہ ، وفيه الخمس حين یفرع من تصفیته قلیلاً کان أو کثیراً ، ولا یحسب له من نفقته شيء .

وما استخرج من المعادن سوى ذلك من الحجاره مثل الیاقوت والفیروزج والکحل والزئبق والکبریت والمفرة فلا خمس فی شيء من ذلك ، فإما ذلك کله بمنزلة الطین والتراب .

ولو أن الذی أصاب شيئاً من الذهب أو الفضة أو الحديد أو الرصاص أو الحاس کان علیہ دین فادح لم یبطل ذلك الخمس عنه . ألا ترى لو أن حنذاً من الأجناد أصابوا غنیمه من أهل الحرب خمس ولم یظروا علیهم دین أم لا ، ولو کان علیهم دین لم یمنع ذلك من الخمس .

وأما الرکاز فهو الذهب والفضة الذی خلقه الله عز وجل فی الأرض يوم خلقت ، فیہ أيضاً الخمس . فمن أصاب کثراً عادیا فی غیر ملک أحد — فیہ ذهب أو فضة أو ثياب — فإن فی ذلك الخمس ، وأربعة أخماس للذی أصابه وهو بمنزلة الغنیمه یغنمها القوم فتحمس وما بقى فلهم .

ولو أن حربياً وجد فی دار الإسلام رکازاً أو کان قد دخل بأمان ، نزع ذلك کله منه ولا یکون له منه شيء ، وإن کان ذمیاً أخذ منه الخمس كما یؤخذ من المسلم

وسلم له أربعة أخماس . وكذلك المكاتب يجدر كرا في دار الإسلام فهو له بعد الخمس ، وكذلك العبد وأم الولد والمدير .

وإذا وجد المسلم ركازا في دار الحرب ، فإن كان دخل بعير أمان فهو له ولا خمس في ذلك حيثما وجد ، كان في ملك إنسان من أهل الحرب أو لم يكن في ملك إنسان فلا خمس فيه ، لأن المسلمين لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب . وإن كان إنما دخل بأمان فوجده في ملك إنسان منهم فهو لصاحب الملك ، وإن وحده في غير ملك إنسان منهم فهو للذي وجده .

وقال أبو يوسف في الفئء والخراج : فأما الفئء : يا أمير المؤمنين فهو الخراج عدنا ، خراج الأرض والله أعلم ، لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : ﴿ وما أماء الله على رسوله من أهل القرى قلله وللرسول ولذی القربی والیتامی والمساکین وابن السبیل کئی لا یکون دولة بین الأعتیاء منکم ﴾ (١) . حتى فرع من هؤلاء ، ثم قال عروجل : « للمقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتبعون فصلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » (٢) . ثم قال تعالى : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحسون » هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان هم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٣) . ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (٤) . فهذا والله أعلم لمن جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة .

(١) الحشر ٨

(١) الحشر ٧

(٤) الحشر ١٠

(٣) الحشر ٩

وقد سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام وقالوا :

— قسم الأرضين بين الدين اقتحوها كما تقسم غنيمة العسكر .

فأبى عمر ذلك عليهم وتلا عليهم هذه الآيات وقال :

— قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفىء ، فلو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلغن الراعى بصعاء نصيبه من هذا الفىء ودمه في وجهه .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق : وأما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم معانهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فاططر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حصر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فإليك إن قسمتها بين من حصر لم يكن لمن بعدهم شيء . وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال ، فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما هم وعليه ما عليهم وله سهم في الإسلام ، ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام ، لأنهم أحرروه قبل إسلامه ، فهذا عهدى إليك .

قال أبو يوسف : وحدثنى غير واحد من علماء أهل المدينة قالوا : لما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، شاور أصحاب محمد صلوات الله عليه في تدوين الدواوين . وقد كان اتبع رأى أبى بكر في التسوية بين الناس ، فلما فتح العراق شاور الناس في التفضيل ورأى أنه الرأى ، فأشار عليه بذلك من رآه . وشاورهم في قسمة الأرضين التى أفاء الله على المسلمين من أرض العراق والشام فتكلم قوم فيها وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم

وما فتحوا ، فقال عمر رضى الله عنه :

— فكيف تم يأتى من المسلمين فيجدون الأرض بعلوجها قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيرت . ما هذا برأى .

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه :

— فما الرأى ؟ ما الأرض والعلوح إلا مما أفاء الله عليهم .

فقال عمر :

— ما هو إلا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يمتنع بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلاً على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الشعور وما يكون للذرية والأرامل هذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟

فأكثروا على عمر رضى الله عنه وقالوا :

— أتقف ما أفاء الله علينا بأسيا فنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

فكان عمر رضى الله عنه لا يريد على أن يقول :

— هذا رأى .

— فاستشر .

فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا ، فأما عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر . فأرسل إلى عشرة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبارهم وأشرفهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

— إني لم أرفعكم إلا لأن تشتروا فى أمانتى فيما حملت من أموركم ، فإني

واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هوأى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .
— قل نسمع يا أمير المؤمنين .

— سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ، ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضيهم وعلو جهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الحراح وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فينا للمسلمين : المقاتلة والدرية ولم يأتني من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزموها . أرأيتم هذه المدن العظام — كالشام والحريرة والكوفة والبصرة ومصر — لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدراار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوح ؟ فقالوا جميعا :

— الرأي رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت ، إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال ونجى عليهم ما يتقوون به رجوع أهل الكفر إلى مدتهم .
— قد بان لي الأمر ، فمن رجل له جرأة عقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟

فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا :

— تعنه إلى أهم ذلك ، فإن له بصرا وعقلا وتجربة .

فأسرع إليه عمر فولاه مساحة أرض العراق ، فأدت حباية سواد الكوفة قبل

أن يموت عمر رضى الله تعالى عنه بعام مائة ألف ألف درهم ، والدراهم يومئذ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال .

وقال أبو يوسف في كيفية فرض عمر لأصحاب رسول الله — ﷺ : قدم على أبى بكر رضى الله عنه مال فقال :

— من كان له عبد النبي — ﷺ — عدة فليأت .

فجاءه جابر بن عبد الله فقال :

— قال لى رسول الله — ﷺ : لو جاء مال الحرين أعطيتك هكذا وهكذا .

يشير بكفيه : فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

— خذ .

فأخذ بكفيه ثم عدده فوجده خمسمائة ، فقال :

— خذ إليها ألفا .

فأخذ ألفا ثم أعطى كل إنسان كان رسول الله — ﷺ — وعده شيئا ، وبقيت بقية من المال فقسمها بين الناس بالتسوية على الصغير والكبير والحر والمملوك والذكر والأنثى ، فخرج على سبعة دراهم وثلاث لكل إنسان . فلما كان العام المقبل جاء مال كثير هو أكثر من ذلك ، فقسمه بين الناس فأصاب كل إنسان عشرين درهما . فجاء ناس من المسلمين فقالوا :

— يا خليفة رسول الله إنك قسمت هذا المال فسويت بين الناس ، ومن الناس أباؤهم فضل وسوابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم .

— أما ما ذكرت من السوابق والقدم والفضل فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثأؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

فلما جاءت عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الفتوح وجاءت الأموال

قال :

— إن أبابكر رضى الله تعالى عنه رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر . لا
أجعل من قاتل رسول الله — ﷺ — كمن قاتل معه .
ففرص للمهاجرين والأنصار ممن شهد بدرا خمسة آلاف خمسة آلاف ،
وفرض لمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر ولم يشهد بدرا أربعة آلاف أربعة
آلاف ، وفرض لأرواح النبى — ﷺ — اثنى عشر ألفا اثنى عشر ألفا ، لإصطفية
وجويرية فإنه فرض لهما ستة آلاف ستة آلاف ، فأبنا أن تقبلا فقال لهما :
— إنما فرضت لمن للهجرة .

فقلنا :

— لا . إنما فرضت لمن لمكانهم من رسول الله — ﷺ — وكان لنا مثله .
وعرف ذلك عمر ففرص لهما اثنى عشر ألفا ، وفرض للعباس عم رسول الله
— ﷺ — اثنى عشر ألفا ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله
ابن عمر — ابنه — ثلاثة آلاف ، فقال :
— يا أبت لم ردت على ألفا ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبى ، وما كان له
ما لم يكن لى ؟

— إن أبنا أسامة كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من أبىك ، وكان أسامة
أحب إلى رسول الله منك .
وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف خمسة آلاف ، ألحقهما بأبيهما
لمكانتهما من رسول الله — ﷺ . وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين ،
فمر عمر بابين أبى سلمة فقال :
— زيدوه ألفا .

فقال له عمر بن عبد الله بن جعش :

— ما كان لأبيه ما لم يكن لأبائنا ، وما كان له ما لم يكن لنا .

— إني عرضت له بأبيه أنى سلمة ألفين ، وزدته بأمه أم سلمة ألفا ، فإن كان لك أم مثل أم سلمة زدتك ألفا .

وفرض لأهل مكة والناس ثمانمائة ثمانمائة ، فجاء طلحة بن عبيد الله بأبيه عثمان وفرض له ثمانمائة ، فمر به النضر بن أنس فقال عمر :

— افرضوا له ألفين .

فقال له طلحة :

— جئتكم بمثله ففرضت له ثمانمائة ، وعرضت لهذا ألفين .

— إن أبا هذا القيني يوم أحد فقال : ما فعل رسول الله ؟ فقلت : ما أراه إلا قد قتل ، فسل سيفه وكسر غمده وقال : إن كان رسول الله — ﷺ — قد قتل فإن الله حي لا يموت ، فقاتل حتى قتل ، وأبو هذا يرعى الشاة في مكان كذا وكذا . فعمل عمر بهذا خلافته .

لما فتح الله على عمر وفتح فارس والروم جمع أناسا من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— ماترون ؟ فإني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة وأجمع المال فإنه أعظم للبركة .

— اصنع ما رأيت ، فإنك إن شاء الله موفق .

ففرض الأعطيات فدعا باللوح فقال :

— بمن أبدا ؟

فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— ابدا بنفسك .

— لا والله ولكن أبدا بى هاشم رهط السى — ﷺ .

فبدأ بالأقرب من رسول الله ﷺ — فمرض للعباس ثم لعلى رضى الله
عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بسى عدى بن كعب (رهطه) .
وقال أبو يوسف عن أبى هريرة : قدمت من البحرين بخمسمائة ألف درهم ،
فأتيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممسياً فقلت :
— يا أمير المؤمنين اقبض هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— وتدرى كم خمسمائة ألف ؟

— نعم مائة ألف ومائة ألف خمس مرات .

— أنت ناعس ، اذهب فست الليلة حتى تصبح .

فلما أصبحت أتيت فقلت :

— اقبض منى هذا المال .

— وكم هو ؟

— خمسمائة ألف درهم .

— أمن طيب هو ؟

— لا أعلم إلا ذاك .

فقال عمر رضى الله عنه :

— أيها الناس إنه قد جاء مال كثير ، فإن شئتم أن نكيل لكم كلنا ، وإن شئتم أن

نعد لكم عددنا ، وإن شئتم أن نوزل لكم وزناً لكم .

فقال رجل من القوم :

— يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها .

فاشتهى عمر ذلك مرض للمهاجرين وللأنصار ولأزواج النبی ، فلما أتى

ريّيب بنت جحش ما لها قالت :

— عمر الله لأمرير المؤمنين ، لقد كان في صويحباني من هو أقوى على قسمة هذا

المال مبي .

فقبل لها :

— إن هذا كله لك .

فأمرت به فصّب وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها :

— أدخل يدك لآل فلان وآل فلان .

فلم ترل تعطى لآل فلان وآل فلان حتى قالت لها التي تدخل يدها :

— لا أراك تذكّرني ولي عليك حق .

— لك ما تحت الثوب .

فكشفت الثوب فإذا ثم حمسة وثمانون درهما . ثم رفعت يدها فقالت :

— اللهم لا يدركني عطاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد عامي هذا أبدا .

فكانت رضى الله عنها أول أزواج النبي لحوقا به عليه السلام .

وذكر لنا أنها كانت أسخى أزواج النبي — ﷺ — وأعطاها .

وجعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى ريد بن ثابت عطاء الأنصار ، فبدأ

بأهل العوالي ، فبدأ ببني عبد الأشهل ثم الأوس لعدد ما رهم ، ثم الخرج حتى

كان هو آخر الناس وهم بنو مالك بن النجار وهم حول المسجد .

وحمل أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ألف ألف ، فقال

عمر :

— بكم قدمت ؟

— بألف ألف .

فأعظم ذلك عمر وقال :

— هل تدري ما تقول ؟

— نعم . قدمت مائة ألف ومائة ألف حتى عد عشر مرات .

— إن كنت صادقاً ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه في وجهه .

وقال عمر :

— والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسما من رسول الله ﷺ — فالرجل وتلاده في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وعماؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته في الإسلام . والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجمل صنعاء حفظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه (يعنى في طلبه) .

قال عمر : الرجل وحاجته ، قبل أن يقولها مار كس بأكثر من ألف عام ! . وأسهب أبو يوسف في خراج الأرض وقال إن القطائع ما كان منها مسيحا على العشر ، أى ما كانت تسقى بالمطر أو الترع أو الأنهار ، وما سقى منها بالدلو والغرب والساقية فعلى نصف العشر لمؤنة الدالية والعرب والساقية ، فالإسلام يعطى ثمن الجهد ، وليس على الخضر التى لا بقاء لها ولا على الأعلاف ولا على الحطب عشر ، والذى لا يبقى في أيدي الناس هو مثل البطيخ والقثاء والخيار والقرع والياذنجان والجزر والفول والرياحين وأشياء هذا فليس في هذا عشر . وأما ما يبقى في أيدي الناس مما يكال بالقفير ويوزن بالأرطال مثل الحنطة والشعير والدرّة والأرز والحبوب والسمسم واللوز والبدق والجوز والفسق والزعفران والريتون والقرطم والكزبرة والكراويا والكمون والبصل والثوم وما أشبه ذلك ، فإذا أخرجت الأرض من ذلك خمسة أو سق أو أكثر ففيه العشر إذا كان في

أرض تسقى سبحا أو سقتها السماء، وإذا كانت في أرض تسقى بغرب أو دالية أو ساقية ففيه نصف العشر، وإذا نقص عن خمسة أو سق لم يكن فيه شيء. وإذا أخرجت الأرض نصف خمسة أو سق حطة ونصف خمسة أو سق شعير كان فيها العشر، وكذلك لو أخرجت قدر وسق من حنطة وقدر وسق من شعير وقدر وسق من أرز وقدر وسق من تمر وقدر وسق من ربيب، وتم ذلك خمسة أو سق كان في ذلك العشر، وإن نقص عن خمسة أو سق وسق أو أقل أو أكثر لم يكن فيه العشر ما خلا الزعفران، فإنه إذا كان في أرض العشر وأخرج الله منه ما يكون قيمته قيمة خمسة أو سق من أدنى ما تخرج الأرض من الحبوب مما عليه العشر ففيه العشر إذا كان يسقى سبحا أو تسقى السماء، وإذا سقى بغرب أو دالية فنصف العشر، وإذا كان في أرض الخراج ففيه الخراج على هذه الصفة، وإذا لم تبلغ قيمة ذلك قيمة خمسة أو سق فلا شيء فيه.

وكان أبو حيفة يقول: إذا كان الزعفران في أرض العشر ففيه العشر وإن لم تخرج الأرض منه إلا رطلا واحدا، وإن كان في أرض الخراج ففيه الخراج. والوسق ستون صاعا بصاع البسي — صلوات الله عليه — فالخمس أو سق ثلاثمائة صاع، والصاع خمسة أرتال وثلاث.

وقال أبو يوسف في موات الأرض في الصلح والعوة وغيرهما: وما سألت يا أمير المؤمنين عن الأرضين التي افتتحت عنوة أو صولح عليها أهلها، وفي بعض قراها أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد، ما الصلاح فيها؟ فإذا لم يكن في هذين الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فيها لأهل القرية ولا مسر حاولا موضع مقبرة ولا موضع مخطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأعامهم وليست مملك لأحد ولا في يد أحد، فهي موات فمن أحيها أو أحيها منها شيئا فهي له. ولك أن تقطع ذلك من أحست ورأيت وتؤاخره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح.

وكل من أحيا أرضا مواتا فهي له .

وقد كان أبو حنيفة رحمه الله يقول : من أحيا أرضا مواتا فهي له إذا أجارها الإمام ، ومن أحيا أرضا مواتا بغير إذن الإمام فليست له وللإمام أن يجرها من يده ويصنع فيها ما رأى من الإحارة والإقطاع وغير ذلك .

وقيل لأبي يوسف : ما ينبغي لأبي حنيفة أن يكون قد قال هذا إلا من شيء . لأن الحديث قد جاء عن النبي — ﷺ : « من أحيا أرضا مواتا فهي له » . فبين لنا ذلك الشيء فإنما نرجو أن تكون قد سمعت منه في هذا شيئا يحتاج به .

قال أبو يوسف : حجته في ذلك أن يقول : الإحياء لا يكون إلا بإذن الإمام ، أرأيت رجلين أراد كل واحد منهما أن يختار موضعا واحدا وكل واحد منهما مع صاحبه ، أيهما أحق به ؟ أرأيت إن أراد رجل أن يحيا أرضا ميتة بفناء رجل وهو مقر أن لا حق له فيها فقال : لا تحبها فإنها بفسائي وذلك يضرني . فإعما جعل أبو حنيفة إذن الإمام في ذلك هاهنا فصلا بين الناس ، فإذا أذن الإمام في ذلك لإنسان كان له أن يحبها وكان ذلك الإذن جائرا مستقيما . وإذا منع الإمام أحدا كان ذلك المنع جائزا ، ولم يكن بين الناس اتساح في الموضع الواحد ولا الضرار فيه مع إذن الإمام ومنعه . وليس ما قال أبو حنيفة يرد الأثر ، إنما رد الأثر أن يقول : وإن أحيها بإذن الإمام فليست له ، فأما من يقول : هي له فهذا اتباع الأثر ، ولكن بإذن الإمام ليكون إذنه فصلا فيما بينهم من خصوصاتهم وإصرار بعضهم ببعض .

وقال عمر بن الخطاب على المنبر : « من أحيا أرضا ميتة فهي له ، وليس لمحتجر بعد ثلاث سنين » . وذلك لأن رجالا كانوا يحتجرون من الأرض ما لا يعلمون . وقال أبو يوسف في حد أرض العشر من أرض الحراج : فأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من حد أرض العشر من حد أرض الحراج ، فكل أرض أسلم أهلها عليها وهي من أرض العرب أو أرض العجم فهي لهم وهي أرض عشر ، ممرنة

المدينة حين أسلم عليها أهلها وبمثلة اليمن . وكذلك كل من لا تقبل منه الجزية ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل ومن عبدة الأوثان من العرب فأرضهم أرض عشر وإن ظهر عليها الإمام ، لأن رسول الله ﷺ — قد ظهر على أرضين من أرض العرب وتركها فهي أرض عشر حتى الساعة .

وأما دار من دور الأعاجم قد ظهر عليها الإمام وتركها في أيدي أهلها فهي أرض حراح وإن قسمها بين الذين عتموها فهي أرض عشر . ألا ترى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه طهر على أرض الأعاجم وتركها في أيديهم فهي أرض خراج ، وكل أرض من أراضي الأعاجم صالح عليها أهلها وصار وادمة فهي أرض خراج .

وقال أبو يوسف فيما يخرج من البحر : وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فإن فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرهما فلا شيء فيه . وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بممرلة السمك ، وأما ما يأتي أرى في ذلك الخمس وأربعة أخماسه لم يخرج ، لأنه قد روينا فيه حديثاً عن عمر رضى الله عنه ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافاً . واستعمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلى بن أمية على البحر ، فكتب إليه في عنبرة وجدها رجل على الساحل يسأله عنها وعما فيها ، فكتب إليه عمر : « إنه مسيب من سيب الله . وفيما أخرج الله جل ثناؤه من البحر الخمس » . وقال عبد الله بن عباس : « وذلك رأيي » . وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك ، فإن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان في المفاوز والجبال على الأشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر .

كتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن أصحاب النحل لا يؤدون إلينا ما كانوا يؤدون إلى السبي — عليه السلام — ويسألون مع ذلك أن نحملهم أوديتهم ، فكتب إلى برأيتك في ذلك . فكتب إليه عمر : « إن أدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى السبي — عليه السلام — فاحم أوديتهم ، وإن لم يؤدوا إليك ما كانوا يؤدونه إلى السبي — عليه السلام — فلا تحم لهم » . وكانوا يؤدون إلى النبي — عليه السلام — من كل عشر قرب قرية .

وأما اللوز والجور والبندق والفسق وأشياء ذلك ففيه العشر إذا كان في أرض العشر ، والخراج إذا كان في أرض الخراج لأنه يكال .
وليس في القصب ولا في الحطب ولا في الحشيش ولا في التبن ولا في السعف عشر ولا خمس ولا بخراج .

وأما قصب السكر ففيه العشر إذا كان في أرض العشر ، والخراج إذا كان في أرض الخراج ، لأنه ثمر يؤكل .

وقال أبو يوسف في الصدقات : سألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة في الإبل والبقر والغنم والخيول ، وكيف ينبغي أن يعامل من وجب عليه شيء من الصدقة في كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين العاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه ، والعمل في ذلك بما سته رسول الله — عليه السلام — ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء . هكذا روى لنا عن نبينا — عليه السلام — وأنا أسأل الله أن يجعلك ممن استر بفعله ورضى عمله وأعظم عليه ثوابه ، وأن يعيذك على ما ولاك ويحفظ لك ما استرعاك ، وقد ذكرت ما بلغنا أنه أوجب على كل صنف من هذه الأصناف ، وعليه أدركت فقهاء ما ، وهو انجمع

عليه عندنا، وهو أحسن ما سمعنا في ذلك حديثاً عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ — كتب كتاباً في الصدقة فقرنه بسيفه أو قال بوصيته، فلم يخرج حتى قبض — ﷺ — فعمل به أبو بكر حتى هلك، ثم عمل به عمر، قال فكان فيه: « في كل أربعين شاة شاة، إلى مائة وعشرين، فإذا زادت فشاتان إلى مائتين، فإذا زادت فثلاث شياه إلى ثلاثمائة، فإذا زادت ففي كل مائة شاة شاة، وليس فيها شيء حتى تبلغ المائة، وفي خمس من الإبل شاة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمسة وعشرين بست محاض إلى خمس وثلاثين، فإن رادت ففيها ابنة لبون إلى خمس وأربعين، فإن رادت ففيها حقة إلى ستين، فإن رادت ففيها جدعة إلى خمسة وسبعين، فإن رادت ففيها بنتا لبون إلى تسعين، فإن زادت ففيها حقتان إلى عشرين ومائة، فإن زادت على مائة وعشرين ففي كل خمسين حقة وفي كل أربعين بست لبون، ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع، وما كان من خيلطين فإنهما يتراجعان بالسوية » .

لما بعث رسول الله ﷺ — معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل ثلاثين من البقر تبعاً أو تبيعة، ومن كل أربعين مسنة، وقد بلغنا مثل ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه .
وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » .

فأما الإبل العوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة، لم يأخذ معاذ منها شيئاً، وهو قول علي رضي الله تعالى عنه قال: « والجواميس والبخت بمزلة الإبل والبقر، وهي كمعز الشاة وضأنها » .

ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى

ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة منها ، بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ، ولا يحتال في إبطال الصدقة بوجه ولا سبب .

ولا يسعى أن يدخل مال الصدقة في مال الخراج ، لأن الخراج فيء لجميع المسلمين والصدقات لمن سمي الله عز وجل في كتابه : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ﴾ (١) . فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا ، والعاملون عليها يعطيهم الإمام ما يكفيهم ، وإن كان أقل من النصف أو أكثر أعطى الوالي منها ما يسعه ويسع عماله من غير صرف ولا تقتير ، وقسمت بقية الصدقات بينهم للفقراء والمساكين سهم ، وللعاملين — وهم الذين لا يقدر على قضاء ديونهم — سهم ، وفي أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون ، وفي الرقاب سهم ، وسهم في إصلاح طرق المسلمين ، ولا بأس أن تعطى الصدقة في صنف واحد .

وسألت أمير المؤمنين عن بيع السمك في الآجام ومواضع مستنقع الماء ، فلا يجوز بيع السمك في الماء لأنه غرر وهو للذي يصيده ، فإن كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد فلا بأس ببيعه . ومثله إذا كان يؤخذ بعير صيد كمثل سمك في حُب (خابية) ، وإذا كان لا يؤخذ إلا بصيد فمثله كمثل طير في البرية أو طير في السماء ، ولا يجوز بيع ذلك لأنه غرر وهو للذي صاده ، وقد رخص في بيع السمك في الآجام أقوام ، فكان الصواب عندنا والله أعلم في قول من كرهه قال عمر بن الخطاب : « لا تأمروا السمك في الماء فإنه غرر » . وكتب أبو زناد إلى عمر بن عبد العزيز في بحيرة يجتمع فيها السمك بأرض العراق . « أنوآجرها » ٥٩

فكتب أن افعلوا . وكتب إلى عمر بن عبد العزيز عن بيع صيد الأحام فكتب أن لا بأس به وسماه الحسن .

وتكلم أبو يوسف في إحارة الأرض البيضاء ودات النخل والمزارعة عنده على ووجه : مها عارية ليست فيها إحارة ، وهو الرجل يعير أحاه أرضا يزرعها ولا يشترط عليه إحارة فيزرعها المستعير يبيذره وبقره وبفقتة فالزرع له والخراج على رب الأرض ، فإن كانت من أرض العشر فالعشر على الراعي وبه يقول أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه .

ووجه آخر : تكون الأرض للرجل ، فيدعو الرجل إلى أن يزرعها جميعا والفقعة والبدرة عليهما نصفان ، فهذا مثل الأول الزرع يسهما والعشر في الزرع إن كانت أرض عشر ، وإن كانت أرض خراج فالخراج على رب الأرض .
ووجه آخر : إحارة أرض بيضاء بدراهم مسماة ستة أو سنتين ، والأرض البيضاء هي التي تخلو من النخل والشجر فهذا جائز والخراج على رب الأرض في قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ، وإن كانت أرض عشر فالعشر على رب الأرض .

وقال أبو يوسف : المزارعة جائزة على شروطها ، والخراج على رب الأرض ، والعشر عليهما جميعا في الزرع ، فهذا الوجه الرابع .
ووجه آخر : أن يكون للرجل أرض وبقر وبذر فيدعو فلاحا فيدخله فيها فيعمل ذلك ويكون له السدس أو السبع . فهذا فاسد في قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ومن وافقه ، والزرع في قولهم لرب الأرض ، وللملاح أجر مثله .
والخراج على رب الأرض ، والعشر في الطعام .

وهو عند أبي يوسف جائز على ما اشترط عليه على ما جاءت به الآثار ، قال أبو يوسف : ولو أن رجلا دفع إلى رجل رحي ماء يقوم عليها ويؤجرها ويطحس

لساس فيها بالأجر على النصف فهذا فاسد لا يجوز ، وكذلك الرجل يدفع إلى الرجل بيوت قرية أو دار أو دواب أو سفينة يؤجرها ويكتسب عليها فما أخرج الله من شيء فينبهما نصفان فهذا لا يجوز في قول أبي حنيفة وفي قول ، وليس هذا بمنزلة ما ذكرنا من المعاملة والمراعاة ، للأجور في هذا الوجه الفاسد أجر مثله على مالك ذلك ، وما كان من غلة الرحى والسفينة فهي لصاحبها .

وقال أبو يوسف في الخزر . وسألت يا أمير المؤمنين عن الحرائر التي تكون في دجلة والفرات يضرب عنها الماء ، فجاء رجل وهي جزيرة أرض له فحصبها من الماء وزرع فيها ، أو إذا ضرب الماء عن جزيرة دجلة أو الفرات فجاء رجل ملاصق الجزيرة بأرض له فحصبها من الماء وزرع فيها فهي له ، وهذا مثل الأرض الموات إذا كان ذلك لا يصير بأحد ، وإن كان يضر أحدا مع من ذلك ولم يترك يحصبها ولا يزرع فيها ويحدث فيها حدثا إلا بإذن الإمام .

وشرح أبو يوسف رأيه في القسي والآبار والأنهار والشرب ، فقال إن كان الهر الذي أضرم مازل قوم قديما فإنه يترك على حاله ، وإن كان محدثا من فعل وال أو غيره نظر في ذلك إلى منفعته وإلى ضرره ، فإن كانت منفعته أكثر ترك على حاله ، وإن كان ضرره أكثر أمر بهدمه وطمه وتسويته بالأرض .

وكل من له عين أو بئر فتاة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئا للشفة والشفة : الشرب لبنى آدم والبهائم والنعيم والدواب ، وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنحل والشجر ، وليس لأحد أن يسقى شيئا من ذلك إلا بإذنه ، فإن أذن له فلا بأس بذلك ، وإن باعه ذلك لم يجر البيع ولم يحل للبائع والمشتري لأنه مجهول غرر لا يعرف . وكذلك إذا كان في مصنعة يجتمع فيها الماء من السيول فلا خير في بيعه أيضا ، ولو سمي كيلا معلوما أو عدد أيام

معلومة لم يجر ذلك أيضا للحديث الذي جاء في ذلك والسنة .
ولا بأس ببيع الماء إذا كان في الأوعية ، هذا ماء قد أحرز فإذا أحرزه في وعائه فلا بأس ببيعه . وإن هيا له مصنعة فاستقى فيها بأوعيته حتى جمع فيها ماء كثيرا ثم باع من ذلك فلا بأس إذا وقع في الأوعية ، فقد أحرزه وقد طاب بيعه ، فإذا كان يجتمع من السيول فلا خير في بيعه ، وإن كان في بئر أو عين يزداد ويكثر أو لا يزداد ولا يكثر فلا خير في بيعه ولو باعه لم يجر البيع . ومن استقى منه شيئا فهو له ، ولو كان يجوز بيعه ما طاب للذي يستقيه حتى يستطيع نفس صاحبه ، ألا ترى أنه لا يطيب لرجل أن يأخذ ماء من سقاء صاحبه إلا بإذنه وطيب نفسه إلا أن يكون حال ضرورة يخاف فيها على نفسه .

قال — ﷺ : « المسلمون شركاء في ثلاث : الماء والكلا والبار » .
وقال — ﷺ : « لا تمنعوا كلاً ولا ماء ولا نارا ، فإنه متاع للمقوي وقوة للمستضعفين » .

والمسلمون جميعا شركاء في كل نهر أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والحافر والخف ، وليس لأحد أن يجمع ، ولكل قوم شرب أرضهم ويخلهم وشجرهم لا يحبس الماء عن أحد دون أحد ، وليس النهر الأعظم لعامة المسلمين كنهر خاص لقوم ليس لأحد أن يدخل عليهم ، وأصحاب هذا النهر فيه شعاء لو باع أحدهم أرضا له ، ولهم أن يمنعوا من أن يسقى أحد من نهرهم أرضه أو شجره أو غلته ، وليس النهر العظيم كذلك فإنه يسقى منه من شاء وتمر فيه السفن ، ولا يكونون فيه شعاء لشركتهم في شربه .

لو أن رجلا اتخذ مشرعة في أرضه على شاطئ النهر يستقى منها السقاؤون يأخذ منهم فيها الأجرة ، فإن ذلك لا يجوز ولا يصلح ، لأنه لم يبيعهم شيئا ولم

يؤاجرهم أرضاً .

وإن كانت أرض لرجل وأراد المسلمون أن يمروا فيها ليستقوا الماء فمنعهم من ذلك ، فإن الإمام يطر في ذلك ، فإن لم يكن لهم طريق يستقون منه الماء غيره لم يكن له أن يمنعهم ويمروا في أرضه ومشرعته بغير أجر ولا كرى ، لأنه لا يستطيع أن يمنع الشفعة ؛ وإن كان لهم طريق غير ذلك كان له أن يمنعهم من الممر .

وقال أبو يوسف في الكلأ والمروج : ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطون منها قد عرف أنها لهم فهي لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل في ملكه ، وليس لهم أن يجمعوا الكلأ ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه ، ولا يجوز لأحد أن يسوق ذلك الماء إلى مزرعة له إلا برضى من أهله ، وليس شرب المواشى والشفة كسقى الحرث . وليس لأحد أن يحدث مرجاً في ملك غيره ولا يتخذ فيه نهراً ولا بئراً ولا مزرعة إلا بإذن صاحبه ، ولصاحبه أن يحدث ذلك كله ، فإذا أحدثه لم يكن لأحد أن يزرع فيما ررع ولا يحتجزه ، وإذا كان مرجاً فصاحبه وغيره فيه سواء مشتركون في كله ومائه .

وليست الآجام كالمرج ، ليس لأحد أن يحتطب من أجرة أحد إلا بإذنه ، فإن فعل ضمن ، وإن صاد فيها شيئاً من السمك أو الطير فهو له من قبل أن رب الأجمة لا يملك ذلك . ألا ترى أن رجلاً لو صاد في دار رجل أو بستانه شيئاً من الوحش أو الطير أن له ذلك ، وليس لصاحب الدار ملك عليه ، وله أن يجمع من دخول داره وبستانه ، فإن دخل بغير إذنه فقد أساء ، وما صاد فهو له أيضاً ، وإذا كان السمك قد حطر عليه فإنه كان لا يؤخذ إلا بصيد فاعطور عليه وغير المخطور سواء لا يجوز بيعه حتى يصاد ، وإن كان يؤخذ

باليد بغير صيد فهو لصاحبه الذى حظر عليه ، وإن صاده غيره ضمن الذى يصيده ، وإن باعه صاحبه قبل أن يأخذه فإن بيعه هذا بمنزلة بيع ما أحرره وإثائه .

ولو أن صاحب بقر رعى بقره فى أجمة غيره لم يكن له ذلك ، وصمم مارعى وأفسد ، ألا ترى أنى أبيع قصب الأجمة وأدفعها معاملة فى قصصها ؟ هذا على من أنى طالب رضى الله تعالى عنه عامل أهل أجمة يؤس على أربعة آلاف درهم وكتب لهم كتابا فى قطعة أديم . والكلاؤ يباع ولا يدفع معاملة . ولو لم يكن لأهل هذه القرية الدين تكون لهم هذه المروج وفى ملكهم موضع مسرح ومرعى لدواهم ومواشيهم غير هذه المروج ، كما لأهل كل قرية من قرى السهل والجل ، فإن لكل قرية من قرى السهل والجل موضع مسرح ومرعى ومحتطب فى أيديهم ، ويسب إليهم وترعى فيه مواشيهم ودواهم ويحتطبون منه ، وكانوا متى أدبوا للناس فى رعى تلك المروج والاحتطاب منها وأضر ذلك بهم ومواشيهم ودواهم كان لهم أن يجمعوا كل من أراد أن يرعى فيها أو يحتطب منها ، وإن كان لهم مرعى وموضع احتطاب حولهم ليس له مالك فإنه لا يسقى لهم ، ولا يحل لهم أن يمنعوا الاحتطاب والرعى من الناس .

وإذا كان الخطب فى المروج وهى ملك إنسان فليس لأحد أن يحتطب منها إلا بإذنه ، فإن احتطب منها ضمن قيمة ذلك لصاحبه ، فإن لم يكن فى تلك لأحد ملك فلا بأس أن يحتطب منه جميع الناس ، ولا بأس أن يحتطب ما لم يعلم له مالك ، وكذلك الثمار فى الحبال والمروج والأودية من الشجر ما لم يعرفه الناس ، ولا بأس يأكل من ثمارها ويتزود ما لم يعلم أن ذلك فى ملك إنسان ، وكذلك العسل يوجد فى الحبال والغياض فلا بأس أن يأكله ، وليس العسل فى الحبال

لا يكون في ملك إنسان من قبل أن الذي يتخذه الناس يكون في الكوارات (١) فما لم يحرز منها فهو مباح كفراخ الصيد من الطير ، ويصه يكون في العياص . ولو أن رجلاً أحرق كلاً في أرضه فدهست النار فأحرقت مال غيره لم يضمن رب الأرض لأن له أن يوقد في أرضه ، وكذلك لو أحرق حصائد في أرضه كان مثل ذلك . وكذلك صاحب الأجمة يحرق ما فيها من القصب فتحرق النار مال غيره فلا ضمان عليه ، وهما مثل الذي يسقى أرضه فيعرق الماء أرض رجل إلى جنبه أو تنز فليس عليه في ذلك ضمان ، ولا يحل لمسلم أن يعتمد الإصرار لجاره ولا القصد لتفريق أرضه ، ولا لتحريق ررعه بشيء يحدثه في أرض نفسه .

وقال أبو يوسف في تقبيل (٢) السواد واحتياهم الولاية لهم والتقدم إليهم : ورأيت أن لا تقبل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد ، فإن المتقبل (المتعاقد على توريد قيمة ثابتة محدودة عن الخراج) إذا كان في قبالة فصل عن الخراج عسف (ظلم) أهل الخراج وحميهم عليهم ما لا يجب عليهم : وطمهم وأحدهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه . وفي ذلك وأمثاله حراب البلاد وهلاك الرعية . والمتقبل لا يبالى بهلاكهم بصلاح أمره في قبالة ، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً ، وليس يمكنه ذلك إلا بشدة مه على الرعية ، وصر ب لهم شديد ، وإقامته لهم في الشمس ، وتعليق الحجارة في الأعناق ، وعذاب عظيم يبال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من العساد الذي سبى الله عنه ، إما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو ، وليس يحل أن يكلموا عوق طاقتهم .

(١) كواراة لحمل . شيء يتحد للحمل من القصبان أو الطين صيق الرأس

(٢) التقبيل : هو الالتزام بعقد بأن يلتزم أحد الولاية بدفع مبلغ معين للخراج و يطلق به

في الخراج .

وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ما ليس يجب عليهم ، فيعاملهم بما وصفت لك فيضر ذلك بهم فيحربوا ما عمروا ، ويدعوه فينكسر الخراج ، وليس يبقى على الفساد شيء ، ولن يقل مع الإصلاح شيء . إن الله قد نبى عن الفساد ، قال عز وجل : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ (١) . وقال : ﴿ وإذ اتولى سعى فى الأرض ليمسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ (٢) . وإنما هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشتري منهم ، وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم . والحمل على أهل الخراج ما ليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لا يحل ولا يسع .

وإن جاء أهل ناحية أو مصر من الأمصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال : أنا أتضمن عن أهل هذه الناحية أو أهل هذا البلد خراجهم — ورضواهم بذلك فقالوا : هذا أحف علينا — نظروا فى ذلك ، فإن كان صلاحا لأهل هذا البلد والناحية قبل وصمم وأشهد عليه ، وصير معه أميرا من قبل الإمام يوثق بديه وأمانته ويمر عليه من بيت المال ، فإن أراد ظلم أحد من أهل الخراج أو الريادة عليه أو تحميله شيئا لا يجب عليه منعه الأمير من ذلك أشد المنع .

وأمر المؤمنين أعلى عينا بما رأى من ذلك ، وما رأى أنه أصلح لأهل الخراج وأوفر على بيت المال عمل عليه من القسالة والولاية بعد الأعذار والتقدم إلى المتقبل والوالى برفع الظلم عن الرعية ، والوعيد له إن حملهم ما لا طاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم . فإن فعل ففدا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا وناهيا لغيره إن شاء الله .

ورأيت (أبى الله أمير المؤمنين) أن تتخذ قوما من أهل الصلاح والدين

والأمانة فتوليهم الخراج . ومن وليت منهم فليكن فقيها عالما مشاور الأهل الرأي عفيما ، لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخاف في الله لومة لائم ، ما حفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الخنة ، وما عمل به من غير ذلك حاف عقوبة الله فيما بعد الموت . تحور شهادته إن شهد ولا يخاف منه جور في حكم إن حكم . فإنك إنما تولية جباية الأموال وأخذها من حلها وتجنب ما حرم منها ، يرفع من ذلك ما يشاء ويحتج من ما يشاء ؛ فإذا لم يكن عدلا ثقة أمينا فلا يؤتمر على الأموال ، إلى قد أراهم لا يختاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك ، وقد يجب الاحتياط فيمن يولى شيئا من أمر الخراج والبحث عن مداهم والسؤال عن طرائقهم كما يجب ذلك فيمن أريد للحكم والقضاء .

وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستحقا بهم ، ولكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم ، والعظمة على الماخر ، والعدل على أهل الدمة ، وإصاف المظلوم ، والشدة على الطام ، والعفو عن الناس ؛ فإن ذلك يدعوهم إلى الطاعة وأن تكون حياته للخراج كما يرسم له ، وترك الابتداع فيما يعاملهم به ، والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه حتى يكون القريب والعبد والشريف والوصيع عنده في الحق سواء ، وترك اتباع الهوى فإن الله مير من اتقاه وأثر طاعته وأمره على من سواه . وإلى لأرجو أن أمرت بذلك وعدم الله من قبلك إثارة ذلك على غيره ، ثم بدل منه مبدل أو حالف منه محالف أن يأخذه الله به دولك ، وأن يكتب لك أحرك وما نويت إن شاء الله .

ولتسير مع الوالى الذى وليته ، قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك ، فإن من نصحتك أن لا تظلم رعيتك ، وتأمر بإجراء أراذلهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ، ولا تحرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه ، فإن قال أهل الخراج نحن نحرى على وليا وحده من عندنا لم يقبل ذلك منهم ولم يحملوه ، فإنه قد بلغى أنه قد يكون فى حاشية العامل والوالى جماعة ؛ منهم من له به حرمة ، ومنهم من له إليه وسيلة ، ليسوا بأرار ولا صالحين ، ويستعين بهم ويوجههم فى أعماله يقضى بذلك الذمامات ، فليس يحفظون ما يوكنون بحفظه ، ولا يصنفون من يعاملونه ، إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو أموال الرعية ، ثم إسم يأخذون ذلك فيما بلغى بالعسف والظلم والتعدي ، ثم لا يزال الوالى ومن معه قد نزل بقرية يأخذ أهلها من نزلهم بما لا يقدر على ولا يجب عليهم حتى يكلفوا ذلك فيجحف بهم ، ثم قد بعث رجلا من هؤلاء الذين وصفت لك أنهم معه إلى رجل عمر له عليه الخراج لىأتى به فيأخذ منه الخراج فيقول له : قد جعلت لك أن تأخذ منه كذا وكذا . حتى لقد بلغنى أنه ربما وطف له أكثر مما يطالب به الرجل من الخراج ، فإذا أتاه الموجه إليه قال له : أعطى جعلى الذى جعله لى الوالى ، فإن جعلى كذا وكذا . فإن لم يعطه ضربه وعسفه وساق البقر والقسم ، ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك منهم ظلما وعدوانا ، وهذا كله ضرر على أهل الخراج ونقص للفقراء مع ما فيه من الإثم ، فمره بحسم هذا وما أشبه وترك التعرض لمثله ، حتى لا يكون مع الوالى من هؤلاء الذين سميت أحد ، ويكون ما يؤخذ لك من المال من باب حله ولا يوضع إلا فى حقه . وتقدم فى اختيار هؤلاء الجند الذين تصبرهم مع الوالى وليكونوا من صالحى الجند ومن له الفهم واليسر والنعمة منهم إن شاء الله تعالى .

وتقدم في أن يكون حصاد الطعام ودياسه^(١) من الوسط، ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر ما يمكن الدياس، فإذا ما أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوماً واحداً، فإنه ما لم يحرز في البيادر تذهب به الأكرة (الحراث) والمارة والطير والدواب، وإنما يدخل ضرر ذلك على الخراج، فأما على صاحب الطعام فلا لأن صاحب الطعام يأكل منه فيما بلعى وهو سنبل قبل الحصاد إلى أن يبلغ المقاسمة، فحبس الطعام في الصحراء والبيادر ضرر على الخراج، وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداً أخذ في دياسه.

ولا يحبس الطعام إذا صار في البيادر الشهر والشهرين والثلاثة ولا يداس، فإن في حبسه في البيادر ضرراً على السلطان وعلى أهل الخراج وبذلك تتأخر العمارة والحراث، ولا يحرص عليهم ما في البيادر ولا يحرز عليهم حرزاً ثم يؤخذوا نقائص الحرز، فإن هذا هلاك لأهل الخراج وحراب للبلاد.

وليس ينبغي للعامل ولا يسعه أن يدعى على أهل الخراج ضياع غلة فيأخذ بذلك السبب أكثر من الشرط، وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم ولا يكيله عليهم كيل معرط، ثم يدعى في البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم في كيله ثانية، فإن نقص عن الكيل الأول قال: أوهوني وأخذ منهم ما ليس له، ولكن إذا ديس الطعام ووضع فيه القصير قاسمهم وأحد حقه ولا يحسه ولا يكيل للسلطان كيل بزيهار وللأكار كيل السرد، بل يكون كيلاً واحداً بين الفريقين سرداً مرسلًا.

ولا يؤخذ أهل الخراج بررق عامل ولا أجره ولا احتقان ولا نزلة ولا حمولة طعام لسلطان، ولا يُدعى عليهم بقيصه فتؤخذ منهم، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الصبوج (رسل البريد) ولا أجور الكياليين

(١) داس الرجل الحطة دوساً ودياساً مثل الدراس.

ولا مؤنة عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذين وصفنا من المقاسمة ، ولا يؤخذوا بأثمان الأتبان على مقاسمة الخنطة والشعير كيلا ، أو تبايع فيقسم ثمنها على ما وصفت في القطيعة في المقاسمة .

ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواحا لدراهم يؤدونها في الخراج ، فإنه بلعنى أن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في خراجها فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها .

ولا يضر بن رجل في دراهم خراج ولا يقام على رجله . فإنه بلعنى أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويصربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يجمعهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله شيع في الإسلام . ورأيت أن تأمر عمال الخراج إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم فذكروا لهم أن في بلادهم أهارا عادية قديمة وأرضين كثيرة غامرة ، وأنهم إن استخرجوا لهم تلك الأهار واحتفروها وأجرى الماء فيها عمرت هذه الأرضون الغامرة وزاد في خراجهم ، كتب بذلك إليك فأمرت رجلا من أهل الخير والصلاح يوثق بدينه وأمانته فتوجه في ذلك حتى ينظر فيه ويسأل عنه أهل الخبرة والبصرة به ، ومن يوثق بدينه وأمانته من أهل ذلك البلد ، ويشاور فيه غير أهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة ، ولا يجر إلى نفسه بذلك منفعة ولا يدفع عنها به مضرة ، فإذا اجتمعوا على أن في ذلك صلاحا وزيادة في الخراج أمرت بحفر تلك الأهار وجعلت النفقة من بيت المال ، ولا تحمل النفقة على أهل البلد فإنهم إن يعمرها خيرا من أن يخرّبوا ، وأن يفرّوا^(١) خير من أن يذهب ما لهم ويعجزوا ، وكل ما فيه مصلحة لأهل الخراج في أرضهم وأنهارهم وطلبوا إصلاح ذلك لهم أجيئوا إليه

(١) يفرّوا من الوفر .

إذا لم يكن فيه ضرر على غيرهم من أهل ناحية أخرى ورستاق^(١) آخر مما حولهم، فإن كان في ذلك ضرر على غيرهم وذهب بعلايتهم وكسر للخراج لم يجابوا إليه . وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أمهارهم العظام التي تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ، ولا يحمل كله على أهل الخراج ، وأما الأمهار التي يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم وورطاسهم وساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شيء .

فأما البثوق والمسيات والبريدات^(٢) التي تكون في دجلة والفرات وغيرهما من الأمهار العظام ، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء ، لأن مصلحة هذا على الإمام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين ، فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه ، وإعمايد الضرر من ذلك على الخراج ، ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل في ذلك بما يجب عليه لله عرفت أماته وحمد مذهبه ، ولا يولى من يحونك ويعمل في ذلك بما لا يحل ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ولمن معه ، أو يدع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئا يحكمها به حتى تنفجر فتفرق ما للناس من العلات وتخرب منازلهم وقراهم .

قال أبو يوسف : وأنا أرى أن تبعث قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جوا

(١) الرستاق : (معرب) ويستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم .

(٢) البثوق : جمع بثق وهو ما يخرقه الماء في جانب الهر . والمسيات : جمع مساة وهو السد يسي في وجه الماء . البريدات : معاتيج الماء وهي فارسية .

الخراج على ما أمروا به ، وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر ، فإذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفسلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤديه بعد العقوبة الموجعة والنكال ، حتى لا يتعدوا ما أمروا به وما عهد إليهم فيه ، فإن كل ما عمل به وإلى الخراج من الظلم والعسف فإنما يحمل أنه قد أمر به وقد أمر بعيره .

وإن أحسنت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وحاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترأوا على ظلمهم وتعسفهم وأحدهم بما لا يجب عليهم . وإذا صح عندك من العامل والوالي تعد بظلم وعسف وحيانة لك في رعيته واحتجان شيء من المنيء أو حث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقنده شيئا من أمور رعيته أو تشركه في شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تردع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له ، وإياك ودعوة المظلوم فإنها دعوة محابة .

قال معاذ : « صل وسم واطعم واكسب حلالا ولا تأثم ولا تموتن إلا وأنت مسلم ، وإياك ودعوات — أو دعوة — المظلوم » .

إن العدل وإنصاف المظلوم ونجب الظلم مع ما في ذلك من الأجر يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد . والبركة مع العدل تكون ، وهي تفقد مع الجور ، والخراج المأخوذ من الجور تنقص البلاد به وتخرب . هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعالى كان يجبي السواد مع عدله في أهل الخراج وإنصافه لهم ورفع الظلم عنهم مائة ألف ألف ، والدرهم إذ ذاك وزنه وزن مثقال . فلو تقربت إلى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيته في الشهر أو الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ، رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس إلا مجلسا أو مجلسين حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن فيحاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم ، ويأمل الضعيف

المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه ، فإن لم يمكنك الاستماع في المجلس الذي تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظرت في أمر طائفة منهم في أول مجلس وفي أمر طائفة أخرى في المجلس الثاني وكذلك في المجلس الثالث ، ولا تقدم في ذلك إنسانا على إنسان ، من خرجت قصته أو لادعى أول ، وكذلك من بعده . مع أنه متى علم العمال والولاة أنك تجلس للنظر في أمور الناس يوما في السنة ليس يوما في الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأصفوا من أنفسهم ؛ وإني لأرجو لك بذلك أعظم الثواب . إنه من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة . قال عليه السلام : من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما في الدنيا ستر الله زكته يوم القيامة . وقال عليه السلام : « من بعثنا على عمل فليبع بقليله وبكثيره ، فمن خان حيطا فما سواه فإما هو غلول يأتي به يوم القيامة » .

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلا من أخيرهم وأصلحهم ، وإلى أهل البصرة كذلك ، وإلى أهل الشام كذلك ، فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد ، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد ، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط ، كلهم سلميون ، فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه .

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : دنست أصحاب رسول الله ﷺ — فقال له عمر : يا أبا عبيدة إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة ديني فبمن أستعين ؟ قال : أما إن فعلت فأعهم بالعمالة عن الخيانة . يقول : إذا استعملتهم على شيء فأجزل لهم في العطاء والرزق لا يحتاجون . قال عبد الله بن العباس : « بعث إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتيته فقال : يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك وكان من أهل الخير والخير قليل ، وقد

رجوت أن تكون منهم فدعوتك لأستعملك عليها وفي نفسي منك شيء أخافه ولم أره منك وأنا أخشاه عليك . فما رأيك في العمل ؟ قلت : فإني لا أرى أن أعمل لك عملا حتى تخبرني بما في نفسك . قال : وما تريد إلى ذلك ؟ قلت : أريد إن كنت بريئا من مثله عرفت أني لست من أهله وإن كنت ممن أحشى على بصبي خشيت عليها مثل الذي خشيت على ؛ فقلما رأيته طست شيئا إلا حاء عليه الوحي . فقال : يا ابن عباس إني أطمح حالك أنك لا تجدني إلا قريب الجدد ، وإني خشيت عليك أن تأتي على الفياء الذي هو آت وأنت في عملك ، فيقال لك هلم إلينا ولا علم إليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله ﷺ — استعمل الناس وترككم . وقلت : والله لقد رأيت الذي رأيت ، ولم تراه فعل ذلك ؟ قال : والله ما أدرى أصرفكم عن العمل وأرفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ، أم حشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيتبع العتاب عليكم ولا بد من عقاب ، فقد فرغت لي وفرغت لك فما رأيك ؟ قلت : لا أرى أن أعمل لك . قال : لم ؟ قلت : لأنني إن عملت لك وفي نفسك ما في نفسك لم أبرح قداة في عينك . قال : فأشر علي . قلت : أشير عليك أن تستعمل صحيحا منك صحيحا عليك .

وعن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه دعا أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إذا لم تعينوني فمن يعينني ؟ قالوا : نحن نعينك . فقال : بأبأ هريرة أنت البحرى وهجر أنت العام . قال : فذهبت فجيته في آخر السنة بخراريتين فيهما خمسمائة ألف . فقال عمر رضي الله عنه ، ما رأيت مالا يجتمعا قط أكثر من هذا . فيه دعوة مظلوم أو مال يتيم أو أرملة ؟ قلت : لا والله ، بفس والله الرجل أنا إذن إن ذهبت أنت بالمهنا وأنا أذهب بالمؤنة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل من بقايا أهل الشام قد انقطع إلى الشام يذكر له ما وقع مما ابتلى به من أمر المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويسأله

المعاونة على ما هو فيه ، فكتب إليه الرجل : يلغى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما ابتلى به من أمور المسلمين وقلة الأعوان على الخير ، ويطلب منى المعاونة ، واعلم أنك إنما أصبحت في حلق بال ورسم دارس ، خاف العالم فلم ينطق ، وحهل الجاهل فلم يسأل ، وتسألنى المعاونة فيما أنعم الله على فلن أكون طهيرا للمجرمين .

وكان عمر بن الخطاب يحبى العراق كل سنة مائة ألف ألف ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله أنه من طيب ، ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد .

وكتب ميمون بن مهران إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجبلة ، وكان قاضى الحزيرة وعلى خراجها ، فكتب إليه عمر : إني لم أكل لك ما يعيك ، اجتن الطيب واقص عما استبان لك من الحق ، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلى ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا .

و ضرب عمر رجلا فقال له الرجل : إنما كنت أحذر جلين ، رجلا جهل فعلم أو أخطأ فعفى عنه . فقال له عمر : صدقت ، دونك فامتثل . فعفا الرجل عنه . و ضرب عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا وساء اردحموا على حوض ، فلقبه على فسأله فقال : إني أخاف أن أكون قد هلكت . فقال على رضى الله عنه : إن كنت ضربتهم على عش وعداوة فقد هلكت . وإن كنت ضربتهم على نصيح وإصلاح فلا بأس . إنما أنت راع . إنما أنت مؤدب .

وكان عمر إذا بعث عماله قال : إني لم أبعثكم جبابرة ولكن بعثكم أئمة ، فلا تضربوا المسلمين فتدلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم ، وأدروا لقحة المسلمين .

وخطب عمر بن الخطاب الناس فقال : إني والله ما أبعث إليكم عمالي

ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا من أموالكم ؛ ولكنى أنعمهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم . فمن فعل به سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفسى بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرايت إن كان رجل من المسلمين واليا على رعية فأدب بعضهم أنك لتقصه منه ؟ فقال : إى والذى نفسى بيده لأقصه منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ — يقص من نفسه . ألا لا تصرىوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوا هم الغياض فتضيعوهم .

وكتب عمر رضى الله تعالى عنه إلى عماله أن يوافوه بالموسم فوافوه ، فقام فقال : يأيتها الناس إني بعثت عمالى هؤلاء ولاة بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ولا من دماءكم ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد فقال : يا أمير المؤمنين عاملك صربنى مائة سوط . فقال عمر : أتضربه مائة سوط ؟ قم فاستقد منه . فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : يا أمير المؤمنين إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم وكانت سمة يأخذ بها من بعدك . فقال عمر : ألا أقده منه وقد رأيت رسول الله ﷺ — يقيد من نفسه ؟ قم فاستقد . فقال عمرو : دعنا إذا فلنرضه . فقال : دونكم .

فأرصوه بأن اشترت منه بمائتى دينار ، كل سوط بدينارين . وكان عمر رضى الله عنه إذا استعمل رجلا أشهد رجلا من الأنصار وغيرهم واشترط عليه أربعا : أن لا يركب بردونا ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يعلق باباً دون حوائج الناس ولا يتحد حاجباً . فبينما هو يمشى فى بعض طرق المدينة إذ هتف به رجل : يا عمر أترى هذه الشروط تنجيك من الله تعالى وعاملك عياض بن غنم على مصر وقد لبس الرقيق واتخذ الحاجب ؟

فدعا محمد بن مسلمة ، وكان رسوله إلى العمال ، فبعثه وقال : اتنى به على الحال التى تجده عليها . فأتاه فوجد على بابها حاجبا فإذا عليه قميص رقيق . قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : دعنى أطرح على قبائى . فقال : لا ، إلا على حالك هذه .

فقدم به عليه . فلما رآه عمر قال : انزع قميصك ، ودعنا بمدرعة من صوف وبريضة من غنم وعصا فقال : البس هذه المدرعة وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم واشرب واسق من مَرَبك واحفظ الفضل علينا . سمعت ؟ قال : نعم والموت خير من هذا . فجعل يردد ما عليه ويردد الموت خير من هذا . فقال عمر : ولم تكره هذا وإنما سمى أبوك غنا لأنه كان يرعى الغنم ؟ أترى يكون عندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : انزع . ورده إلى عمله فلم يكن له عامل يشبهه . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا بلعه أن عامله لا يعود المريض ولا يدخل عليه الضعيف نزعاه ، وكتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى أبى موسى الأشعرى أن سو بين الناس في مجلسك وجاهك ، حتى لا يئأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك .

وخطب عمر رضى الله عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبى ﷺ — وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس إنه لم يبلغ دو حق حقه أن يطاع في معصية الله ، وإنى لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنا أنا ومالككم كولى اليتيم إن استغثت استغثت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف . ولست أدع أحدا يظلم أحدا ولا يعتدى عليه ، حتى أصعب خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فحدو بها ؛ لكم على أن لا أجتنب شيئا من حراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم

على إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم ، ولكم على أن لا أفيكم في المهالك ولا أجركم^(١) في ثغوركم ، وقد اقترب منكم رمان قليل الأماء كثير القراء ، قليل الفقهاء كثير الأمل ، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دبر صاحبها كما تأكل النار الحطب . ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتيق الله به وليصبر . يأبى الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه ، فقال فيما عظم من حقه : « ولا يأمركم أن تتحدوا الملائكة والنبين أرباباً أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »^(٢) ألا وإلى لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم ، فأدروا على المسلمين حقوقهم ، ولا تضربوهم فتذلوهم ، ولا تحمدهم فتفتوهم ، ولا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قلوبهم ضعيفهم ، ولا تستأثروا عليهم فتظلموهم ، ولا تجهلوا عليهم ، وقتلواهم الكفار طاقتهم ، فإذا رأيتمهم كلاله فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم .

أيها الناس إلى أشهدكم على أمراء الأمصار أني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ، ويقسموا عليهم فيهم ، ويحكموا بينهم ، فإن أشكل عليهم شيء رفعوه إلي .

وكان عمر بن الخطاب يقول : لا يصلح هذا الأمر إلا بشدة في غير نجبر ، وليس في غير وهن .

وكتب على بن أبي طالب رضي الله عنه إلى كعب بن مالك وهو عامله : « أما بعد فاستخلف على عملك واخرج في طائفة من أصحابك تمر بأرض السواد

(١) تخمير الجيش : جمعهم في الثغور وحبسهم عن العودة إلى أهلهم

كورة كورة ففسأهم عن أعمالهم ونظر في سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما بين دجلة والفرات ، ثم ارجع إلى البيهقادات^(١) فتول معاونتها واعمل بطاعة الله فيما ولاك منها . واعلم أن الديافاية ، وأن الآخرة آتية ، وأن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، وأنتك مجزى بما أسلفت ، وقادم على ما قدمت من خير ، فاصنع خيرا تحمد خيرا .

وكان على بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا بعث سرية ولى أمرها رجلا وأوصاه فقال له : «أوصيك بتقوى الله الذى لا بد لك من لقائه ، وعليك بالذى يقربك إلى الله فإن ما عند الله خلف من الدنيا» .

وكان رباح بن عبيد مع عمر بن عبد العزيز فقال له : إن لى بالعراق ضيعة وولدا ، فائد لى يا أمير المؤمنين أتعاهدهم ، قال : ليس على ولدك بأس ولا على ضيعتك ضيعة .

فلم يزل به حتى أدن له ، فلما كان يوم ودعه قال : يا أمير المؤمنين حاجتك أوصى بها . قال : حاجتى أن تسأل عن أهل العراق وكيف سيرة الولاة فيهم ورضاهم عنهم ؟

فلما قدم العراق سأل الرعية عنهم فأخبر بكل خير عنهم ، فلما قدم على عمر سلم عليه وأخبره بحسن سيرتهم فى العراق وثناء الناس عليهم ، فقال عمر بن عبد العزيز : «الحمد لله على ذلك ، لو أحررتنى عنهم بغير هذا عرلتهم ولم أستعس بهم بعدها أبدا ، إن الراعى مسئول عن رعيته ، فلا بد أن يتعهد رعيته بكل ما ينفعهم الله به ، ويقربه إليه ، فإن من ابتلى بالرعية فقد ابتلى بأمر عظيم .

(١) بهقاد ، اسم لثلاث كور بعدد من أعمال سقى العرات مسبوبة إلى قبادة فيروز والد أبو شروان .

وكتب عدى بن أرطاة عامل كان لعمر بن عبد العزيز - إليه : « أما بعد فإن
 أنا ساقيلنا لا يؤدون ما عليهم من خراج حتى يمسه شيء من العذاب » . فكتب
 إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذائك إياي في عذاب البشر
 كأنى جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي يسجلك من سخط الله . إذا أتاك
 كتابي هذا فمن أعطاك ما قبله عفوا وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بخناياهم
 أحب إلي من أن ألقاه بعذابهم ، والسلام » .

وأق عمر رجل فقال : يا أمير المؤمنين زرعت زرعاً فمر به جيش من أهل
 الشام فأفسدوه فموضه عشرة آلاف .

وقال أبو يوسف في الجزية : والجزية واجبة على جميع أهل الذمة ممن في السواد
 وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان ، من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين
 والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران خاصة ، وإنما تجب الجزية على
 الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على المومنين ثمانية وأربعون درهما ، وعلى
 الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاح الحراث العامل بيده اثنا عشر درهما ،
 يؤخذ ذلك منهم في كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قبل منهم من الدواب والمتاع
 وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير
 ولا خمر .

وأسهب أبو يوسف فيمن تجب عليه الجزية وكيفية جبايتها والرفق في
 تحصيلها : « فلا يضرب أحد من أهل الجزية في استيذائهم الجزية ، ولا يقاموا في
 الشمس ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكارة ، ولكن يرفق بهم » .

وقال أبو يوسف في العشور : أما العشور فرأيت أن توليها قوما من أهل
 الصلاح والدين وقامرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملوهم به ، فلا
 يظلموهم ولا يأخذوا منهم أكثر مما يجب عليهم ، وأن يمثّلوا ما رسمناه لهم ، ثم

تعتقد بعد أمرهم وما يعاملون به من يربهم ، وهل يجاورون ما قد أمروا به ؟ فإن كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمطلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه ، وإن كانوا قد انتهوا إلى ما أمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك الأمر وأحسن إليهم ، فإنك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدي لما تأمر به في الرعية ، يزيد المحسن في إحسانه وبعده ، وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدي ، وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض القيمة ، ثم يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الدمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، من كل ما مر به العاشر وكان للتجارة وبلغ قيمة ذلك مائتي درهم فصاعداً أخذ منه العشر ، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء .

وكذلك إذا بلغت القيمة عشرين مثقالاً أخذ منها العشر ، فإن كانت قيمة ذلك أقل لم يؤخذ منها شيء ، وإذا اختلف عليه بذلك مرات كل مرة لا يساوي مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . وإن أضاف بعض المرات إلى بعض وكانت قيمة ذلك تبلغ ألفاً فلا شيء فيه ، ولا يضاف بعض ذلك إلى بعض .

وإذا مر عليه مائتي درهم مضروبة ، أو عشرين مثقالاً مضروبة ، أخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ، ونصف العشر من الذمي ، والعشر من الحرني ، ثم لم يؤخذ منها شيء إلى مثل ذلك الوقت من الحول ، وإن مر بها غير مرة .

وكذا إذا مر ممتاع قد اشتراه للتجارة ، فإن كان الممتاع يساوي مائتي درهم أو عشرين مثقالاً أخذ منه ، وإن كان لا يساوي وكانت قيمته تنقص عن مائتي درهم أو عشرين مثقالاً لم يؤخذ منه شيء ، فأما الحرني خاصة فإذا أخذ منه العشر ، وعاد ودخل في دار الحرب ثم خرج بعد شهر مد أخذ منه العشر ، فمر على العاشر فإنه يأخذ منه إذا كان معه ما يساوي مائتي درهم أو عشرين مثقالاً ،

من قبل أنه حيث عاد إلى دار الحرب فقد سقطت عنه أحكام الإسلام، وإن كان معه أقل من مائتي درهم أو عشرين مثقالاً لم يؤخذ منه شيء، إنما السنة في المائتي درهم أو عشرين مثقالاً، فعلى المسلم في المائتين خمسة دراهم، وعلى الدمي في المائتين عشرة دراهم، وعلى الحر في المائتين عشرون درهماً، وعلى هذا الحساب الذي وصعت لك يؤخذ في الذهب إذا وجب: على المسلم نصف مثقال، وعلى الدمي مثقال، وعلى الحر مثقالان.

وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس يؤخذ منه شيء، وإذا مر أهل الذمة على العاشر بخمر أو خنازير قوم ذلك على أهل الذمة، يقومه أهل الذمة ثم يؤخذ منهم نصف العشر، وكذلك أهل الحرب إذا مروا بالخنازير والخمور فإن ذلك يُقوم عليهم ثم يؤخذ منهم العشر، وإذا مر المسلم على العاشر بغنم أو بقر أو إبل فقال إن هذه ليست سائمة أحلف على ذلك، فإذا حلف كف عنه. وكذلك كل طعام يمر به عليه فقال: هو من زرعى، وكذلك التمر يمر به فيقول: هو من تمر بحلى، فليس عليه في ذلك عشر، إنما العشر في الذي اشترى للتجارة، وكذلك الدمي، أما الحر في فلا يقبل منه ذلك.

وإذا مر التاجر على العاشر بمال وجمناح وقال: قد أدبت زكاته. وحلف على ذلك فإن ذلك يقبل منه ويكف عنه. ولا يقبل في هدام الدمي ولا من الحر لأنه لا زكاة عليهما يقولان قد أدبناها، ومن مر بمال فادعى أنه مضاربة أو بضاعة لم يعشر بعد أن يحلف على ذلك. وكذلك العبد يمر بمال سيده وماله نفسه فهو سواء وليس عليه عشر حتى يحصر مولاه، وكذلك المكاتب ليس على ماله العشر.

وإذا مر عليه التاجر بالعنب أو بالرطب أو بالفاكهة الرطبة قد اشتراها للتجارة وهي تساوى مائتي درهم فصاعداً أخذ منه ربع العشر إن كان مسلماً.

وإن كان ذميا فنصف العشر، وإن كان حرييا فالعشر، وإن كان قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء. وإن اختلف عليه بذلك مرارا، وكل ذلك لا يساوي مائتي درهم. ولو أضاف بعض المرات إلى بعض فكانت قيمة ذلك إذا جمع تلغ ألفا فلا ركة فيه أيضا، ولا ينبغي أن يضاف بعض المرات إلى بعض. وكل ما أخذ من المسلمين من العشور فسييله سبيل الصدقة، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا من جرية رءوسهم فإن سبيل ذلك كله سبيل الخراج. ويقسم فيما يقسم فيه الخراج. وليس هو الصدقة، قد حكم الله في الصدقة حكما قد قسمها عليه فهي على ذلك، وحكم في الخمس حكما فهو على ذلك.

قال زياد بن حدير: «أول من بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العشور أنا، فأمرني أن لا أفتش أحدا، وما مر على من شيء أخذت من حساب أربعين درهما واحدا من المسلمين، ومن أهل الذمة من كل عشرين واحدا، ومن لادمة له العشر».

وقال أنس بن مالك: «بعثنى عمر رضي الله تعالى عنه على العشور، وكتب لي عهدا أن آخذ من المسلمين مما اختلفوا فيه لتحراراتهم ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر».

وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب: «إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر». فكتب إليه عمر: «خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين، وخذ من أهل الذمة نصف العشر، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما، وليس دون المائتين شيء، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم، وما زاد فبحسابه».

وكتب أهل نيسح—قوم من أهل الحرب—وراء البحر إلى عمر بن الخطاب:

« دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا » ، فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ — في ذلك ، فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب .
وبعث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ريباد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام ، وأمره أن يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ، فمر عليه رجل من بى تغلب من نصارى العرب ومعه فرس فقوموها بعشرين ألفا ، فقال حدير : أعطى الفرس وخذ منى تسعة عشر ألفا أو أمسك الفرس فأعطينى ألفا ، فأعطاه ألفا وأمسك الفرس .

ثم مر عليه راجعا فى سة فقال له : أعطنى ألفا أخرى ، فقال له التعلبي : كلما مررت بك تأخذ منى ألفا ؟ قال : نعم . فرجع التعلبي إلى عمر بن الخطاب فوافاه بمكة وهو فى بيت فاستأذن عليه فقال : من أنت ؟ فقال : رجل من نصارى العرب . وقص عليه قصته فقال له عمر : كيف ، ولم يزد على ذلك .
فرجع التعلبي إلى ريباد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى ، فوجد كتاب عمر قد سبق إليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل ، إلا أن تجد فضلا .

وكان رريق بن حيان على مكس مصر أيام عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه عمر : « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم العين ، ومما ظهر من التحارات من كل أربعين دينار ديناراً ، وما نقص فيحساب ذلك حتى يبلع عشرين ديناراً . فإن نقصت تلك الديانير فدهعها ولا تأخذ منها شيئا ، وإذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يدبرون من تجارتهم من كل عشرين ديناراً ديناراً فما نقص فيحساب ذلك حتى تبلغ عشرة دنائير ، ثم دهعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم كتابا بما تأخذ منهم إلى مثلها من الحول » .

وإذا مر أهل الدمة بالخمر للتجارة أخذ من قيمتها نصف العشر، ولا يقل قول الذمى في قيمتها حتى يؤتى برجلين من أهل الدمة يقومانها عليه فيأخذ نصف العشر من قيمتها .

قال أبو يوسف : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر أهل الدعارة والمسق والتلصص إذا أخذوا في شيء من الخنايات وحسوا أهل يجرى عليهم ما يقوتهم في الحبس ؟ والذي يجرى عليهم من الصدقة أو من غير الصدقة ؟ وما ينبغي أن يعمل به فيهم ؟

لا بد من كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء يأكل منه لا مال ولا وجد شيء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أي الوجهين فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلي أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم ما يقوته ، فإنه لا يحل ولا يوسع إلا ذلك .

والأسير من أسرى المشركين لا بد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب ، يترك يموت جوعاً ؟ وإنما حمّله على ما صار إليه القضاء أو الجهل . ولم تزل الخلفاء يا أمير المؤمنين تجرى على أهل السجون ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف ، وأول من فعل ذلك على ابن أبي طالب كرم الله وجهه بالعراق ، ثم فعله معاوية بالشام ، ثم فعل ذلك الخلفاء من بعده .

كان على بن أبي طالب إذا كان في القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه ، فإن كان له مال أنفق عليه من ماله ، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين وقال : يحبس عنهم شره ، وينفق عليه من بيت مالهم .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ولاته : « لا تدعن في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً ، ولا تبتس في قيد إلا رجلاً مطلوباً

بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم والسلام .
 فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجرى
 عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإليك إن أجريت عليهم الخير ذهب به ولادة
 السحر والقوام والجلالوزة (الشرطة) . وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح
 يثبت أسماء من في السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده يدفع
 ذلك إليهم شهرا بشهر ، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه في يده ،
 فمن كان منهم قد أطلق وخلي سبيله رد ما يجرى عليه . ويكون للأجراء عشرة
 دراهم في الشهر لكل واحد ، وليس كل من في السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه ،
 وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء ، وفي الصيف قميص وإزار . يجرى على
 النساء مثل ذلك ، وكسوتهم في الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفي الصيف
 قميص وإزار ومقنعة ، وأغنهم عن الخروج في السلاسل يتصدق عليهم الناس ،
 فإن هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أدبوا وأحطوا وقضى الله عليهم ما
 هم فيه محبوسوا ، يخرجون في السلاسل يتصدقون . وما أظن أهل الشرك يفعلون
 هذا بأسارى المسلمين الذين في أيديهم ، فكيف ينبغي أن يفعل هذا بأهل
 الإسلام ؟ وإنما صاروا إلى الخروج في السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد
 الخوع ، وربما أصابوا ما يأكلون وربما لم يصيبوا . إن ابن آدم لم يعر من الذنوب ،
 فتفقد أمرهم ، ومر بالأجراء عليهم مثلما فسر لك . ومن مات منهم ولم يكن له
 ولي ولا قرانة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن ، فإنه بلغنى وأخبرني به
 الثقات أنه ربما مات منهم الميت العريب فيمكث في السجن اليوم واليومين حتى
 يستأمر الوالى في دفنه ، وحتى يجمع أهل السجن من عندهم ما يتصدقون
 ويكثرون من حمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كف ولا صلاة عليه ، فما
 أعظم هذا في الإسلام وأهله .

ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ، ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتأهوا عما هم عليه ، وإنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمرهم ، إنما هو حبس وليس فيه بضر . فمر ولاتك جميعا بالنظر في أمر أهل الخيموس في كل الأيام ، فمن كان عليه أدب وأدب وأطلق ، ومن لم يكن له قضية خلى عنه .

وتقدم إليهم أن لا يسرفوا في الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسمع ، فإنه بلغني أنهم يضربون الرجل — في التهمة وفي الحياة — الثلاثمائة والمائتين وأكثر وأقل ، وهذا مما لا يحل ولا يسمع ، طهر المؤمن حمى إلا من حق يحب بصحور أو قدف أو سكر أو تعزير لأمراته لا يجب فيه حد ، وليس يصرب في شيء من ذلك ، كما يلعي أن ولاتك يصربون ، وأن رسول الله ﷺ — قد سبى عن ضرب المصلين .

قال أبو بكر رضي الله عنه : « سبى رسول الله ﷺ — عن صرب المصلين » . ومعنى هذا الحديث عندنا والله أعلم أنه سبى عن صربهم من غير أن يجب عليهم حد يستحقون به الضرب . وهذا الذي يأتي أن ولاتك يفعلونه ليس من الحكم والحدود في شيء ، ليس يجب هذا على جاني الحياة صغيرة ولا كبيرة . من كان منهم أتى ما يجب عليه فيه قود أو حد أو تعزير أقيم عليه ذلك ، وكذلك من جرح منهم جراحة في مثلها قصاص وقامت عليه البينة بذلك قيس جرحه واقتص منه ، إلا أن يعفو المحسى عليه . فإن لم يكن استطاع في مثلها قصاص حكم عليه بالأرض وعوقب وأطيل حمله حتى يحدث توبة ثم يخل عنه ، وكذلك من كان منهم سرق ما يجب فيه القطع قطع ، إن الأجر في إقامة الحدود عظيم ، والصلاح فيه لأهل الأرض كثير .

قال رسول الله ﷺ : « حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمتطروا ثلاثين صباحا » .

ولا يحل للإمام أن يحل في الحد أحدا، ولا تنزله عنه شفاعه، ولا ينبغي له أن يخاف في ذلك لومة لائم إلا أن يكون حذافيه شبهة، فإذا كان في الحد شبهة درأه لما جاء في ذلك من الآثار عن أصحاب رسول الله ﷺ — والتابعين وقولهم: «ادرعوا الحدود بالشبهات ما استطعتم». والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة»، ولا يحل إقامة حد على من لم يستوجبه بعير شبهة فيه، ولا يحل لمسلم أن يشمع إلى إمام في حد قد وجب وتبين. فأما قل أن يرفع ذلك إلى الإمام فقد رخص فيه أكثر الفقهاء، ولم يحتجوا في التوق للشفاعة فيه بعد رفعه إلى الإمام فيما علمنا والله أعلم.

مروا على الزبير يسارق فشفع فيه فقالوا له: «أتشفع في حد؟» قال: «نعم، ما لم يوث به الإمام، فإن أتى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا عنه». وشفع على رضى الله عنه في سارق، فقبل له: «أتشفع في سارق؟» قال: «نعم، ما لم يبلغ به الإمام، فإذا بلغ به الإمام فلا أعفاه الله إن عفا عنه». وقد رأيت غير واحد من فقهاءنا يكره الشفاعه في الحد ألينة، ويتوقاه ويحتج في ذلك بما قال ابن عمر: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد حاد الله في خلقه».

سرفت امرأة من قريش قطيفة من بيت رسول الله ﷺ — فتحدث أن رسول الله ﷺ — عزم على قطع يدها، فأعظم الناس ذلك. فجاءوا النبي ﷺ — يكلموه وقالوا: نحن نفديها بأربعين أوقية. فقال: «تطهر خير لها». فلما سمعوا لئن قول النبي ﷺ — أتوا أسامة فقالوا: «كلم رسول الله ﷺ — فكلمه». فقام رسول الله ﷺ — خطيبا فقال: ما إكثاركم على في حد من حدود الله وقع على أمة من إماء الله؟ والذى نمسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد نزلت مثل الذى برئت به لقطع محمد يدها. يا أسامة لا تشفع في حد». .

وتكلم أبو يوسف في الحدود على أهل الجنائيات وعن الأموال التي تصاب مع اللصوص ثم قال : وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين مما بلغك واستقر عندك وكتب به إليك صاحب البريد في يد قاضي البصرة أرضين كثيرتين فيها نخل وشجر ومزارع ، وأن علة ذلك تلغ شيئا كثيرا في السنة ، وقد صيرها في أيدي وكلاء من قبله يجر على الواحد منهم ألفا وألفين وأكثر وأقل وليس أحد يدعي فيها دعوى ، وأن القاضي وو كلاءه يأكلون ذلك ، فهذا وشبهه من الواجب عليك النظر فيه إذا استقر عندك ، مما كان في يد القاضي مما ليس يدعي فيه أحد دعوى وقد استغله وكلاء القاضي وأخذوا غلة ذلك وطالت به المدة ولم يأت أحد يطلب فيه حقا ، وقد أمسك القاضي عن الكتابة إليك بذلك لترى فيه رأيك . فقاضي سوء صير هذا وشبهه مأكلة له ولمن معه ، وهو آثم في ذلك . فتقدم إلى ولاتك في محاسبة القاضي على ما جرى على يديه وأيدي وكلائه حتى يخرجوا منه ، ويصير ما كان من غلات ذلك إلى بيت مال المسلمين بعد أن لا يكون لوارث ولا أحد فيها شيء يدعيه ، وإذا صح مثل هذا على القاضي حتى تبين امتناعه من الكتابة إلى الإمام بذلك ، فقاضي سوء عاش لنفسه ولالإمام وللمسلمين ، ولا ينبغي أن يستعان به على شيء من أمور المسلمين .

وقد رأيت أن تأمر بإحراج تلك الأرضين من أيدي القضاة الذين يأكلونها ويؤكلونها ، وأن تختار لها رجلا ثقة أميا عدلا ، وأن تأمر أن يختار لها الثقات فيقولوا أمرها ، وتأمر بأن تحمل غلاتها إلى بيت مال المسلمين إلى أن يأتي مستحق لشيء منها ، فإن كل من مات من المسلمين لا وراث له فماله لبيت المال ، إلا أن يدعى مدع منها شيئا بمراث يرثه عن بعض من مات وتركها ويأتي على ذلك يبرهان وبينه ، فيعطى منها ما يجب له ، ورأيك تعد ذلك .

وسألت من أي وجه تحرى على القضاة وأعمال الأرقاق؟ فاجعل — أعز الله

أمير المؤمنين بطاعته — ما يجرى على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين : من جباية الأرض ، أو من خراج الأرض والجزية لأنهم في عمل المسلمين ، فيجرى عليهم من بيت مالهم ، ويجرى على كل والى مدينة وقاضيا بقدر ما يحتمل ، وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ، ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا ، إلا والى الصدقة فإنه يجرى عليه منها كما قال الله تعالى : « والعاملين عليها » . فأما الزيادة في أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك ، من رأيت أن تزيد في رزقه منهم زدت ، ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت ، أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك ، وكل ما رأيت أن الله تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره ، فإنى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب ، وأما قولك يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من موارث الخلفاء وبنى هاشم وغيرهم ، من الذى يصير إليه ويوكل من قلبه من يقوم بضياعهم ومالهم فلا . إما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قima للفقير والغنى ، والصغير والكبير ، ولا يؤخذ من مال الشريف ولا الوضع إذا صارت إليه موارثه رزقا ، ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين ، فأما من يوكل بالقيام بتلك الموارث في حفظها والقيام بما يجرى عليهم من الرق بقدر ما يحتمل ما هم فيه لا يجحف بمال الوارث فيذهب به ، ويأكله الوكلاء والأماء ، ويبقى الوارث هالكا . وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم ببالى بما صنع وكيفما عمل ، ولا يبالى أكثر من معهم أن يفكروا اليتيم ويهلكوا الوارث ، إلا من وفقه الله تعالى مهم .

وسألت يا أمير المؤمنين عن رجل الحرب يخرج من بلاده يريد الدحول إلى دار الإسلام فيمر على مسلحة من مسالخ المسلمين عن طريق أو غير طريق فيؤخذ فيقول : حررت وأنا أريد أن أصير إلى بلاد الإسلام أطلب أمانا على نفسى وأهلى

وولدى . أو يقول : إني رسول . يصدق أو لا يصدق ؟ وما الذى يبنى أن يعمل به فى أمره . فإن كان هذا الرجل الحرى إذا مر بمسلحة مر ممتنعاً منهم ، لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعاً منهم ، صدق وقبل قوله ، فإن قال : أأرسل الملك بعشى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق هدية إليه فإنه يصدق وقبل قوله ، إذا كان أمراً معروفاً . فإن مثل ما معه لا يكون إلا على مثل ما ذكر من قوله إنها هدية من الملك إلى ملك العرب ، ولا سبيل عليه ، ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، إلا أن يكون معه شيء له خاصة حملة للتجارة ، فإنه إذا مر به على العاشر عشره ، ولا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم ولا من الذى قد أعطى أماناً عشر إلا ما كان معهما من متاع التجارة ، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه .

وإذا قال هذا الحرى المأخوذ دائماً خرجت من بلادى وجئت مسبباً ، فإن هذا لا يصدق وهو للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاءوا اقتلوه وإن شاءوا استرقوه ، وإن قدم لتصرف عنقه فقال : آمست بدينكم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله — ﷺ — فإن هذا إسلام يحقن به دمه ، ويكون ماله فيئا ولا يقتل ، قال رسول الله — ﷺ — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوا هم آمنوا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . فإذا أراد هذا الرسول رسول الملك أو الذى أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح ولا كراع ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب ، فإن اشترى من ذلك شيئاً يرد على الذى باعه منهم ، ورد أولئك الثمن إليهم . فإن كان مع هذا الرسول أو الذى أعطى الأمان سلاح جيد فأبدله بسلاح أسوأ منه ، أو دابة فأبدلها بأشرف منها ، فذلك جائز ولا بأس بأن يترك يخرج بذلك . وإن كان أبدله بخير منه رد عليه سلاحه ودابته ، ورد ذلك على صاحبه

الذى أبدله ، ولا ينبغي للإمام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان ، أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق والسلاح أو بشيء مما يكون قوة لهم على المسلمين . فأما الثياب والمتاع فهذا وما أشبهه لا يجمعون منه ولا يبيع أن يبيع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشيء من الخير والخزير ولا الربا وما أشبه ذلك ، لأن حكمه حكم الإسلام وأهله ، ولا يحل أن يبيع في دار الإسلام ما حرم الله تعالى . ولو أن هذا الداخل إليا بأمان أو الرسول رضى أو سرق فإن بعض فقهاءنا قال : لا أقیم عليه الحد . فإن كان استهلك المتاع في السرقة ضمنته . وقال إنه لم يدخل إليا ليكون ذميا تحرى عليه أحكاما ، قال : ولو قدف رجلا حددته ، وكذلك لو شتم رجلا عررته ، لأن هذا حق من حقوق الناس .

وقال بعضهم : إن سرق قطعته ، وإن رضى حددته ، وكان أحسن مما ممعنا في ذلك والله أعلم أن تأخذه بالحدود كلها حتى تقام عليه .

وإن أقام هذا المستأمن فأطال المقام أمر بالخروج ، فإن أقام بعد ذلك حولا وضعت عليهم الجزية ، ولو أن مركبا من مراكب المشركين من أهل الحرب حملته الریح بم فيه حتى ألقته على ساحل مدينة من مدائن المسلمين ، فأخذوا المركب ومن فيه فقالوا : نحن رسل بعثنا الملك ، وهذا كتابه معنا إلى ملك العرب ، وهذا المتاع الذى في المركب هدية إليه . فيسعى للوالى الذى يأخذهم أن يبعث بهم وما معهم إلى الإمام ، فإن كان الأمر على خلاف ما ذكروا كانوا فيما لجميع المسلمين وما معهم ، والأمر فيهم إلى الإمام إن رأى أن يستقيم فعل ، وإن رأى قتلهم فعل ، والإمام في ذلك موسع عليه .

وإن كان أهل المركب إنما قالوا نحن تجار حملنا معا تجارة لدخلها بلادكم لم يقل ذلك منهم وصيروا ما معهم فينا للمسلمين ، ولم يقل قولهم إنما تجار . وسألت يا أمير المؤمنين عن الخواسيس يوجدون وهم من أهل الدمة أو أهل

الحرب أو من المسلمين ، فإن كانوا من أهل الحرب أو من أهل الذمة ممن يؤدي الجزية من اليهود والنصارى والمجوس فاضرب أعناقهم ، وإن كانوا من أهل الإسلام معروفين فأوجعهم عقوبة وأطل حبسهم حتى يحدثوا توبة .

ويبقى للإمام أن تكون له مسالخ على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق ، فيفتشون من مرهم من التجار فمن كان معه سلاح أخذ منه ورد ، ومن كان معه رقيق رد ، ومن كانت معه كتب قرئت كتبه ، فما كان من خبر من أبحار المسلمين قد كتب به أخذ الذي أصيب معه الكتاب وبعث به إلى الإمام ليرى فيه رأيه ، ولا يبيع للإمام أن يدع أحدا من أسر من أهل الحرب في أيدي المسلمين يخرج إلى دار الحرب راجعا إلا أن يتأدى به ، فأما على غير الفدا فلا . ولو أن الإمام بعث سرية فأغاروا على قرية من قرى أهل الحرب فأخذوا من فيها من الرجال والنساء والصبيان فأمر بهم الإمام إلى دار الإسلام ، فقسّمهم الإمام واشترأهم من القسم وصاروا له فأعتقهم جميعا ، ثم أرادوا الرجوع إلى دار الحرب — الرجال والنساء — فلا يسمى أن يتركهم وذاك ، ولا يدع أحدا منهم يعود إلى دار الحرب بعد أن يصيروا في دار الإسلام إلا على ما وضعت لك من الفداء يقادى بهم .

قال الحسن : « لا يحمل مسلم أن يحمل إلى عدو المسلمين سلاحا يقويهم به على المسلمين ، ولا كراعا ولا ما يستعان به على السلاح والكراع » .

وقد ترجم كتاب الخراج إلى الألمانية وإلى لغات أخرى ، وعكف عليه رجال الاقتصاد ورجال القانون الأجانب وأحدوا عنه الكثير ، فهل آن الأوان ليدرسه رجال القانون ورجال الاقتصاد عندنا دراسة مقارنة مستفيضة ؟ إنهم لو فعلوا لخرجوا بحقيقة لا تقبل الحدل ، وهي أن أغلب النظريات الاقتصادية المعاصرة ، وأغلب القوانين والشروح الفقهية الأجنبية ، إنما هي بضاعتنا قد ردت إلينا .

المراجع

- القرآن الكريم — الكتاب المقدس — صحيح البخارى
 السيرة النبوية لابن هشام
 إنسان العيون (السيرة الحلبية) لعلى بن برهان الدين الحلبي
 بلوغ الأرب للألبوسى
 نهاية الأرب للنويرى
 إيران فى عهد الساسانيين لكريستيس — ترجمة د . يحيى الخشاب
 نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشيخ الشيلجى
 إحياء علوم الدين للعزالى
 شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لتقى الدين محمد بن أحمد العاسى
 حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافي
 محمد رسول الله مولاي محمد على
 الرسول . حياة محمد ر ف . بودلى ترجمة : محمد محمد مخرج وعبد الحميد جوده السحار
 الإسلام والنظام العالمى الجديد مولاي محمد على — ترجمة أحمد جوده السحار
 الدين القيم لأبى الأعلى المودودى
 المستشرقون والإسلام للمهندس زكريا هاشم زكريا
 نساء النبى للدكتورة بنت الشاطىء
 عبقرية محمد لعباس محمود العقاد
 الروح الآتف للسهيلى
 تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية	للدكتور ر كريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون	لعباس محمود العقاد
أسباب النزول	لنواحدى
شرح نهج البلاغة	لابن أبي الحديد
الملل والنحل	للشهرستاني
فجر الضمير	جيمس هري برستد — ترجمة الدكتور سليم حسن
تفصيل آيات القرآن الحكيم	جون لا بوم — ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي
الوحي المهدى	السيد محمد رشيد رضا
سلم الواعظين	عبد الله بن الشيخ حسن الفارسي الكوهجي
الحضارة البيزنطية	ستيفن رسيما
كتاب الخراج	لأبي يوسف
الإسلام والاشتراكية	ميرزا محمد حسين
المظرة العامة لكينز بين الرأسمالية والاشتراكية	ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب
رأس المال	دكتور جمال الدين محمد سعيد
الربا في الإسلام	كارل ماركس — ترجمة دكتور راشد البراوى
	ترجمة فاروق حلمي

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- النقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله
- تأليف : مولاي محمد على
- ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
- قصص من الكتب المقدسة
- صدى السنين
- حياة الحسين
- (مجموعة أقاصيص)
- (مجموعة أقاصيص)
- (رواية)
- (قصة)
- (قصة)
- ترجمت إلى الاندونيسية

- الشارح الجديد (رواية)
- وكان مساء (قصة)
- أذرع وسيقان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسرائء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر

- الله اكبر
- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

السيرة النبوية في ٢٠ جزءاً

- | | |
|---------------------------|-------------------|
| ١ — إبراهيم أبو الأنبياء | ١١ — الهجرة |
| ٢ — هاجر المصرية أم العرب | ١٢ — غزوة بدر |
| ٣ — بنو إسماعيل | ١٣ — غزوة أحد |
| ٤ — العدنانيون | ١٤ — غزوة الخندق |
| ٥ — قريش | ١٥ — صلح الحديبية |
| ٦ — مولد الرسول | ١٦ — فتح مكة |
| ٧ — اليتيم | ١٧ — غزوة تبوك |
| ٨ — خديجة بنت خويلد | ١٨ — عام الوفود |
| ٩ — دعوة إبراهيم | ١٩ — حجة الوداع |
| ١٠ — عام الحزن | ٢٠ — وفاة الرسول |

ثمن الجزء الواحد عاды جنهان

ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنهات ونصف

ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرافي ٢٠ مجلدا ٩٥ جنهها

رقم الإيداع : ٥٩٥٩

الترقيم الدولي : ١ — ٣٢٦ — ٣١٦ — ٩٧٧